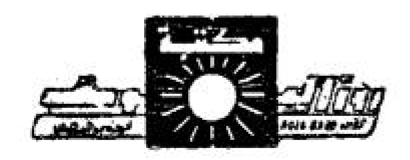

صبري موسى
Amly
فساد الأمكنة
الرواية الفائزة بجائزة الدولة

صبري موسى

فساد الأمكنة



فبراير ١٩٧٦



هذه الرواية :

في ربيع عام ١٩٦٣ ، أمضيت في جبل « الدرهيب » بالصحراء الشرقية قرب حدود السودان ، ليلة ، خلال رحلتي الأولى في تلك الصحراء ٠٠ وفي تلك الليلة ولدت في شعوري بذرة هذه الرواية ٠

ثم رأيت الدرهيب مرة ثانية بعد عامين ، خلال زيارة لضريح المجاهد الصوفي أبي الحسن الشاذلي المدفون في قلب هذه الصحراء عند « عيذاب » ٠

وفي تلك الرؤية الثانية للدرهيب أدركت أنني في حاجة لمعايشة هذا الجبل والأقامة فيه ، اذا رغبت في كتابة هذه الرواية ٠

وقد وافقت وزارة الثقافة على تفرغي من نوفمبر عام ١٩٦٦ الى نوفمبر ١٩٦٧ للأقامة في الصحراء حول الدرهيب ٠٠ للتفكير ومحاولة الكتابة ٠٠٠

ولكنني بدأت في كتابتها وعام ١٩٦٨ في أوله ٠٠ ثم انتهيت منها وعام ١٩٧٠ لم يبدأ بعد ٠

وقد نشرت مسلسلة بمجلة « صباح الخير » الأسبوعية خلال عامي ١٩٦٩ ، ١٩٧٠ ٠ ثم نشرت طبعتها الأولى كاملة في العدد (٢٠٤) من الكتاب الذهبي الذى صدر في يوليو ١٩٧٣

وفي عام ١٩٧٤ فازت « فساد الأمكنة » بجائزة الدولة التشجيعية للرواية ٠٠

وفزت أنا بوسام الجمهورية للفنون ، من الطبقة الأولى ٠

ص ٠ م

اسمعوا منى بتأمل يا أحبئى . غنى مخيتكم
اليوم فى وليمة ملوكية . سأطعمكم غيب عد ،
جبنيا لم يعهـده سـكان المدن . بينما أحرك
أرغن لسانى الضعيف وأحكى لكم سيرة ذلك
المأساوى نيكولا .. هذا العجوز الذى أعطته
أمه اسم قديس قـديم حـين ولدته فى ذلك
الزمان البعيد ، فى بلدة لم
يعد يستطيع أن يتذكرهـا
الآن .. ذلك الذى كانت
فاجعته فى كثرة اندهاشه،
وكان كل شىء يحدث أمام
عينيه جديدا يلقـاه بحب
الطفـل ، لدرجة أنه لم
يتعلم أبدا من التجارب !

الدرهيب
ملمح شبه نهائي ؟

لو أتيح للملمح أن يكون مرئيا لطائر يحلق عاليا ، محاذرا في دورانه المغرور أن تصطدم رأسه المريشة بقمم الصخور ونتوءاتها ، لرأى الدرهيب هلالا عظيم الحجم ، لابد أنه قد هـــوى من مكـــانه بالســـماء في زمن ما ، وجثم على الأرض منهارا متحجرا ، يحتضن بذراعيه الضخمتين الهلاليتين شبه واد غير ذي زرع ، أشجاره نتوءات صـــخرية وتجاويف ، احدثتها الرياح وعوامل التعرية خلال آلاف السنين ..

ولعل ذلك الطائر المرتفع لو دقق البصر وحدده ، يرى نيكولا العجوز ، ذلك المســـمى بأســـم قديس ، عاريا هناك تحت شمس أغسطس الجهنمية .. وســـط ديكور فج ، من بازلت وجرانيت ، وأحجار أخرى جيرية وبحرية متكلسة .. تشكل وهادا أحيانا وتلالا أحيانا .. يقف هناك نيكولا ، كما قرر لنفســـه ، على قمم خادعة متزلجة ، مؤرجحا على حصى دقيق من الأسبستوس وبلورات الرخام ذات الأســـنة القاطعة .. والقواقع المهشـــمة من مليون ألف عام ..

يقف هناك نيكولا الذى لا وطن له .. غريب ومصـــلوب على [illegible]
المتأجج الحرارة وحده .. تلفحه ريح الصحـــــراء عاصفة بين حين وحين .. فلا يمكنه أن يدخر منها ملء قبضته ..

كذلك يفعل نيكولا كل يوم .. !

وباســــتطاعه ذلك الطائر ـ وليكن واحدا من تلك الصــقور الشرقية البنية الريش ، الصفراء المخالب والمناقير ـ أن يراه كل يوم فى نفس الميعاد ، على صليبه المتخيل والحتمى معا ، لو جاء محلقا فوق الدرهيب خلال رحلته من بئر شــلاتين وجبل الأبرق ، وعبر القمم المتالقة ببياض الريش فى جبال زرقة النعام .. الى وليمة الجثث فى وادى الجمال حيث تموت انثيات الأبل أحيانا من عنف الجماع .

ولكن .. حتى الصقور نفسها تمتنع عن الطيران والشمس فى كبد السماء .. وهكذا يبقى نيكولا يمارس طقوس عذابه وحده ، غير مرئى الا من السماء التى بهتت وأقشــعرت وتحيرت جدا ، من هول أفعاله التى يستعيدها فى رأسه ! .

وما تكاد الشمس تنحرف عن مجلســــها العمودى فى رحلتها المتأنية الى الغرب ، فى ذلك الفراغ الصحراوى المضمخ برائحة الجبال المزهوة بعريها تحت الشمس ، وتكون الصـــخور الحمراء قد بدأت تشع لهيبا .. والصخور السوداء تكون قادرة على طهى الخبز .. عند ذلك يدرك نيكولا المأســـــاوى أنه غير جدير باحتمال العذاب بهذه الطريقة .. فيدحرج جسده العارى من القمم المتزلجة هابطا الى مأواه فى بطن الدرهيب .. ليواصل الطقوس بطريقته الاخرى .

فى بطن الدرهيب يختلف الأمر ..

فالمكان هنا حافل بمخلفـــــات البشر .. حيث يتقوس باطن الدرهيب .. وتنحدر قمته الى الســـــفح ، عند المنتصف تقريبا ، تســـتوى الأرض وتصـــبح ممهدة .. شــبه دائرة أولا حيث أقيمت البيوت الخشبية ودورة المياه .. ثم تنبعج الدائرة الممهدة .. مكونة فناء أمام البيوت الثلاثة تتناثر فيه بقايا الخشب وعادم الآلات وبقع الزيت السوداء وبراميل الصاج .. وينبعج الفناء مكونا دربا ضيقا يصـــعد حينا ثم يبدأ فى الغوص بين الصخور .. يغوص ويغوص ، حتى يصبح نفقا منحوتا مكشوف السقف على الفضــــاء .. وحينئذ

يواجه المرء فوهة الدرهيب ·· مدخله ·· الباب الذى يقود الى كنوزه وجواهره ·

لكن الكنوز والجواهر قد أصـــبحت مهجورة حين حمل الجميع متاعهم عن الدرهيب ورحلوا ، فما عاد باستطاعة أحد أن يهبط فى جوفه الآن سوى نيكولا الوحيد ·· ففى الجوف طرق طويلة وممرات، وغرف على الجانبين ·· وميادين ·· على عمق ألف متر من ذلك المدخل المسحور ·· وعلى امتداد عشرات الكيلو مترات ، فى تلك الأنفاق التى تتوسدها قضبان حديدية تسير عليها عربات نقل الأحجار والخامات رسمها نيكولا كلها وخططها بعقله الخبير ·

لقد وقف هنا نيكولا فى جوف الدرهيب ملايين المرات على مدى السنين ·

فى السراديب الحارة والسراديب الباردة ، فى الكهوف البيضاء المظللة بالأخضر الشديد القتامة ، فى ذلك المناخ الثلجي حيث تحيط به وكأنها سيوف مشرعة أسنان خامة التلك الشـــمعية التكوين ·· وقف نيكولا الطيب ورســـــم للرجال ممرات أقدامهم فى جـــوف الدرهيب العظيم ·· بل أنه جعلهم يلمســـون قلبه الداخلى بأيديهم الخشنة ·· ومع ذلك رحل الجميع ، تاركين خلفهم ما ثقل عليهم حمله وفكروا لجرأتهم أن يأخذوا نيكولا معهم ! ·

ويبصق نيكولا من فمه ترابا صحراويا حملته الريح ، ويلعق حلقه الجاف بلسانه الجاف ويبرطم بلكنة ركيكة ســـبابا عربيا وهو يتأمل الفنـــاء المخرب والمهجور أمام البيوت حيث كانوا يروحـــون ويجيئون ، يعملون ويأكلون ويلعبون الورق ويشربون صاخبين أو شاكين همومهم ··

لقد أخرجوا جميعا محاسنهم ومباذلهم وقدموها على تراب هذا الجبل وصخوره ، قرابين فطنة وخلاعة ·· فما أغباهم حين يهجرون أرواحهم الحقيقية ويرحلون ·

لكن تلك طبيعة الأشياء ·

فهم قد جاءوا كثيرا ·· ورحلوا كثيرا ·· ودائما كانوا قادرين على أن يأخذوا أرواحهم الحقيقية معهم ·

ودائما كان يبقى نيكولا مع الدرهيب وحده ·

لقد هربوا .. جميعهم هربوا ..

يقولها نيكولا محتدا ، ثم يلين صوته ، وترق نبراته ، وكأنه يحنو على جبنهم وفرارهم .. وكأنه موقن أن طاقته على الاحتمال فوق طاقتهم ، وأنهم فى النهاية أحرار مستقلون عن المكان لا يشدهم اليه ذنب أو تربطهم به خطية .. فليس منهم من ضاجع أبنته فى باحة هذا الجبل ، وعلى وسادة من صخور ، وأولدها طفلا ، ثم سرقه منها وهى نائمة ليطعم منه الذئب والضبع ! .

وليس منهم من قاد تلك الأبنة فى سراديب الجبل المظلمة ودهاليزه الحارة والباردة ، ومضى يدفعها أمامه فى مسيرة جنائزية حتى تنتهى السراديب المطروقة وتبدأ السراديب المهجورة ، تلك التى لم تطرقها قدم من مئات السنين ، فيتركها هناك بعد أن يغلق عليها كهفا بانهيار صخرى غادر .

لقد صرخت ايليا وهى ترى الصخر ينطبق على باب الكهف ويحبسها بداخله .. وأخذت تهبش الصخور فى محبسها المظلم بأظافرها الجذابة الملونة ، بينما صرختها تتسرب عبر السراديب وتتردد فيها حتى بعد أن أمتلأ حلقها بتراب الأنهيار ، وكفت عن هبش الصخور وبدأت تهبش فى عنقها الجميل بأظافرها الجميلة ، قبل أن تسكن حركتها ، كانت الصرخة ماتزال تتردد فيسمعها نيكولا خلال هرولته المذعورة فى السراديب ، كأنها تطارده لتمسك به وتعيده الى ايليا .. وكأنما الالم المنغم واليأس والدهشة فى تلك الصرخة المفجوعة تعاتبه وتدعوه للبقاء معها .. كأنها تلوح له بعالم مسحور هما كفيلان بخلقه فى تلك الصخور الصماء ليعيشاه معا ، جنبا الى جنب كما كانا دائما .. رجل وأبنته .. أو رجل وأمه .. أو رجل وأمرأته المعشوقة والمفضلة ! .

فأين لهؤلاء الهاربين جميعا رباط دموى كهذا يمنعهم من الفرار ؟ .

يتوجع نيكولا وهو يلوى رقبته ، ويزيح العرق المترب الذى ينثال غزيرا من جسده العارى المترب بكفه الكبير المتربة ، فيصبح التراب ملء مسامه جميعا .

وبينما الشمس تصبغ الفناء أمام البيوت الخشبية بضوئها

الناري ، فيبدو التراب والرمل رماد أحتراق صخور هذا الفناء بذلك الضوء الناري ·· يدلف نيكولا الى بيته الخشبي ·

فان صحبناه رأينا البيت غرفة واحدة ، في جانب منها سرير حديدي من ذلك النوع الذي يستخدمه مرضى المستشفيات ورجال التعدين وضباط الجيوش ، وفي الغرفة كثير من الأحجار المختلفة او الادوات التي توحي بحياة متطرفة لمهندسي المناجم ·· وعلى الجدران الخشبية خرائط للصحراء ·· ولم يكن نيكولا قد بلع طعاما في يومه ذاك ، يتذكر ذلك حين يرى على المائدة الحديدية علب السمك المحفوظ ، فيزم شفتيه مقطبا وكأنه يرفضها ·· ويتناول زجاجة الخمر فيجدها فارغة ·· وكان قد تناولها بالأمس ووجدها فارغة أيضا وسوف يتناولها بعد حين ويجدها أيضا فارغة ·· فكيف تجيء الخمر الآن في هذا الفراغ ؟! ·

يكون نيكولا العجوز مايزال حافي القدمين ·· جسده الأوروبي الأصل قد أكتسب سمرة غامقة أصيلة ، وشعر رأسه الغزير قد أبيض تماما وصار في لون القطن ، ولم يكن نحيلا كما أنه لم يكن سمينا ·· فمد يده الى زجاجة السبرتو الأحمر ، وصب منها في جوفه جرعة ، فأشتعلت النار في داخله ·· وضغط بذراعيه على صدره وبطنه حتى لا يتلوى من ذلك الألم الذي يعرفه جيدا ·· لكن بعد قليل يغيب الألم ، ويصعد بخار التخدير الى عقله المضنى ! ·

ومشى نيكولا الى رقعة الشطرنج على مائدتها الخشبية الصغيرة فحملها وخرج بها الى الفناء ، وكانت على الرقعة بعض قطع الشطرنج بلونيها القديمين الاحمر والاسود ، باقية في أماكنها من دور بدأه نيكولا منذ يومين فأخذ يتأملها وهو واقف فوقها عاريا ·

كان الملك الأحمر يواجه تهديدا مباشرا من الوزير الأسود في حماية الفرس ·· وكان الملك الاسود يواجه تهديدا غير مباشر لكنه قاتل من الطابيتين الحمراوين ·· وكان الأسود غالبا ، واللعب للأحمر ·· فمد نيكولا يده وهرب بالملك الأحمر الى بيت فرسه ·· ثم أستدار وعاود الهجوم على الملك الأحمر بالطابية السوداء من بيتها تحت الوزير ·· ووقف يفكر عاريا ، ثم تراجع بالملك الأحمر الى ثاني فيله ·· وظل نيكولا يهجم ، ويستدير ليواجه الهجوم ويتملص منه

ولم يكن بذلك يتسلى أو يقطع الوقت .. فهو نفسه اللاعب والخصم هو الأحمر والأسود معا ! .

ويدخل نيكولا بيته الخشبى بين نقلتين على الرقعة ، فيجرع من السبرتو جرعة أخرى ، ثم يخرج الى الفناء يتلوى ليواصل الهجوم والصد كما قرر لنفسه في طقوس عذابه .. لكن النتيجة كانت معروفة وحتمية ، فلابد للدور من مهزوم فى النهاية .. وكانت عظمة نيكولا فى أنه يعرف تلك النتيجة سلفا ، ومع ذلك يواصل اللعبة !

ما أغرب تلك الرقعة ، تجرى عليها تلك القطع المنحوتة بصورة تماثيل للناطق والساكن على درجات ومراتب ، فالشاه فيها هو الملك ، والفرس والفيل مركوبان له ، والفارس وزيره والرخ أو الطابية حصنه وملجأه ، أما البيادق فرعاياه .. يخرجون جميعا من كيس واحد . الشاه والفارس والفلاح .. فيحظى كل منهم بنصيبه حسب قدره وقدرته .. وكان قدر نيكولا هو الفشل ، ولهذا كان الفشل نصيبه .. وها هو على صليب عذابه الخفى يواصل هذا الفشل المقدر ويكرره . كأنه ذلك الأغريقى القديم ، يزحف بصخرته صاعدا القمة المستحيلة ، فما يكاد يعلوها حتى تسقط الصخرة ، فيعاود الهبوط ليصعد بها .. ويظل كذلك حتى تختفى الشمس فى الغرب تماما .. ويزحف اللون الأسود كثيفا على أصفر الصحراء وأحمرها وأخضرها فيكسوها جميعا .. ويتحول الحر اللافح الى نسيم لافح ثم الى برد لافح . وتصبح الجبال اشباحا خرافية فى ذلك المدى اللانهائى .. وتتعذر الرؤية على نيكولا فيحضر بطانية ويلتف فيها ، ويقبع مسندا ظهره الى صخور الدرهيب التى بدأت فى التثلج ، حتى يظهر فى شرق السماء كوكب المريخ باحمراره القرنفلى الخفيف مطلا فوق جزيرة العرب .. ويبدأ المشترى فى الغرب يتأرجح بعيدا فوق صحراء ليبيا .. فيسبح عقل نيكولا فى الملكوت ! .

الفصـــل الثانى

كانوا يتحدثون عن الوطن فيتحسر نيكولا ، الذى لا وطن له ، وينزوى منكسرا منسحبا من الحديث ٠٠ فأى وطن ذلك الذى يمكنه أن ينتسب اليه ٠٠ ؟!

لقد هاجرت عائلته وهو طفـــل فى العاشرة من احـــدى المـــدن الروسية الصغيرة ٠ وأستقر أبوه فى اسطنبول طبيبا للاســـــنان ، وكان ذلك آخر ما يعلمه عنه ٠ بينما كان يقطع الأرض مهاجرا ، دائما مع أخويه ، فيترك كل واحد منهما فى مكان ٠

لقد سرق نيكولا المعرفة من بحر التجـــوال ، لكن ثمن هذه المعرفة كان فادحا ٠٠ فعلى مدى عشرين سنة أخرى كانت خطـابات أخويه قد فقدت طريقها اليه فلم تعد تستطيع متابعته فى تلك الهجرة الدائمة ٠٠

وكان قد اســـتقر اســـتقرارا جزئيا فى احدى المدن الايطالية حيث تعرف على امرأة فى جانب من المدينة ٠٠ وتعرف بأحد مهندسى التعدين فى جانبها الآخر ٠

كانت المرأة قوقازية مهاجرة ٠٠ تجتاز الحلقة الثالثة من عمرها مسلحة بجمال حاد ، يأخذ الحواس ويغمرها برجفة نشوة موعودة ، عند الرؤية الأولى ٠ وكان هو في ذلك الوقت مولعا بالنساء ٠٠ كان ولعه بالنساء أبرز ما فيه ، ومع ذلك كان هذا الولع مشوبا بنعومة أو ترو ، يكاد يشبه العفة ، وكان ذلك متناقضا مع ما حوله في مكان من الأرض معبأ باليود ٠٠ يسميه الجغرافيون حوض البحر الأبيض مكان من الأرض تعتبر المرأة فيه علفا لأسماك الشهوة ٠٠ ولعل ذلك قد أصبح حكما تاريخيا الآن ، فلقد أصبحت المرأة علفا لأسماك الشهوة المستوحشة في كل مكان ٠٠

قالت له القوقازية ، سأكررك يا نيقولا ، واسمرك في الارض بهذا التكرار ٠٠ ولن أجعلك قادرا على هذا التحليق المستمر من مكان الى مكان ٠

لعل عفته المزيفة هذه قد جذبتها ٠٠ قد اشعلت طاقاتها وحفزتها للحصول عليه ٠٠ كان دائما يحلم مع كل منهن بحب نادر وتفاهم يبلغ حد الكمال ، لدرجة ان يكون بامكانهما التحليق معا في سماء الامكنة جميعا ، التحليق الدائم ، وليس الانزواء في براثن دفء مكان واحد ، وأمنه وراحته ٠

لكن جناحين أكثر حرية وانطلاقا من اربعة اجنحة ٠٠ فلا يملك حبه قبل ان يتبلور سوى أن ينقلب الى صداقة عميقة وحزينة لم يكن بوسع واحدة منهن فهمها ٠٠ فكان يصبح صداقة من طرف واحد وحبا من طرف الآخر ٠٠ فاتاح له هذا تحررا شبه كامل من المكان ٠

ولعل هذا التناقض هو الذى جذب اليه ايليا الاولى « زوجته » تلك القوقازية المهاجرة ، التى تعرف بها في احد شواطىء ايطاليا ، تنصب الفخاخ للعشاق ، مسلحة بجمال حاد يغمر الحواس برجفة نشوة موعودة ، عند الرؤية الاولى ٠

كانت تدير مطعما مع ابيها على الشاطىء ، وكان ابوها جلفا غليظ الخلق ، يضربها امام الزبائن ٠٠ وحين جاء نيكولا يطلب عملا في ذلك المطعم اعطته نفسها ٠٠ لم يكن قد مر على التحاقه بالعمل ساعات ست أو سبع ٠٠ ولم يكن قد تعرف بعد على فراشه الجديد

فى مؤخرة مخزن الادوات بالمطعم حينما اقتحمت ايليا خلوته واعطته جسدها للمرة الاولى ٠٠ لكنها لم تستطع ان تمتلكه بتلك الطريقة ٠٠ كان جسده معها وروحه تحلق بعيدا متطلعة الى امكنة جـديدة ومتنوعة لم تحلق فيها بعد بينما هى تحـــدثه عن المطعم ومشروع الكازينو الذى تحلم به عاليا على تلك الصخرة المطلة على الشاطىء مغمورا فى أضواء خافتة ، يهجع بينها العشاق تحت اشجار صناعية يتبادلون هواهم المشبوب الذى يبدو لهم لا نهائيا ٠

كان الاستقرار مسعاها ومأملها ، وكان هو شابا لين المبادىء لم تنضـــج احكامه بعد ٠٠ فرضـــخ لها وتزوجها ، فأنجبت له ايليا الصغرى ٠

قالت له : سأكررك يا نيكولا وانجب من صلبك ولدا يسمرك فى الارض ويثقل اجنحتك عن الطيران ٠

لكنها انجبت بنتا ٠٠ ولم يجد هو ما يعوضها عن حبه الذى تحول الى صداقة سوى ان يكررها ٠٠ فسمى البنت ايليا ٠

وأصبحت له فى الحياة امرأتان تسميان ايليا ٠٠ تربطه بهما مشاعر صداقة عميقة فشلت فى ان تكون حبا ٠٠ احداهما زوجته ، والثانية ابنته ٠

وحين بدأت ايليا الكبرى ترسم الخطط للتخلص من ابيها الذى يقف عقبة امام مشروعاتها فكرت فى الاستعانة بنيكولا ، قالت له ان ضربة على مؤخرة الرأس لن تضر أحدا ٠٠ وستريح العجوز من كل تعبه الذى يتعبه تحت الشمس فيذهب الى ملكوت الرب اللانهائى مصحوبا بدعواتهم واعترافهم بفضله واريحيته اذ يترك لهم هـــذا الراسمال الممتاز يصنعان به مستقبل ايليا الصغيرة ٠

لكن نيكولا فى تلك الايام كان يكثر من لقاء صديقه مهندس التعدين المغامر وكان صديقه يلوح له بأرض عظيمـــة ذات تاريخ حافل ، يشقها النيل ويمتد بها الى حافة البحر قادما من صحارى هائلة ، بها جبال تحوى انواعا متنوعة من كنوز المعادن ٠٠ ارض لايحكمها اهلها ٠ ينزح اليها كل راغب فينقب ويعثر ، ويستخرج ترخيصا للحفر ، فيصبح مالكا لواحد من هذه الجبال العظيمة التى لايملكها حتى الان أحد ٠

فأستولى الجموح على نيكولا واخـذ يحلم بنفســـه مالكا جبلا يؤكد تفرده فى ذلك الكون الواسع ٠

كان رأس العجوز والد زوجته قد اصبح على بعد خطوة واحدة من ضربة المؤخرة التى تحمله الى ملكوت الرب ، عندما نكص نيكولا على عقبيه ، وارتد الى صديقه المغامر فركب البحر معه مبحرين الى الشمال ٠٠ تاركا وراءه امرأتيه الصديقتين اللتين تسمى كل منهما ايليا ٠

هل مضت على ذلك الان خمسون سنة ٠٠ ام اربعون ٠

هو الان عبر هذا الزمان الطويل الماضى يدرك وهو يطل من عزلته الشاهقة فوق الدرهيب انه قد رسم لايليا الصغيرة صديقته الحبيبة ، ابنته ٠٠ دون ان يتعمد ذلك او يقصـده ٠٠ مســتقبلا مناقضا لهذا الذى كانت تحلم لها به امها ، ايليا الكبرى ٠

بل انه رسم لها ايضا تلك النهاية التعسة ٠٠ حية وميتة فى الوقت نفسه ٠٠ فى كهف مهجور ومغلق بالصخور فى الاحشـاء العميقة لهذا الجبل ٠٠ الذى يمم وجهه تجاه الصحراء مـع صديقه المغامر ، المهندس ماريو ، وهو يحلم بامتلاكه ٠ ٠

والان ٠

ها هو نيكولا المأساوى يمتلك جبله فعلا ٠٠ فأى ثمن رهيب ذلك الذى دفعه فيه ؟

كانت الجبال منطوية على أسرارها والصـحراء غامضـة مغلقة على سكانها من قبائل البجاة ٠٠ اقدم شعوب افريقيا الذين جاءوها من آسيا ٠٠ أقارب نيكولا واصهاره القدامى ، الذين يرجح الرواة انهم فى الغالب من سلالة كوش بن حام ، الذين هاموا على وجوههم بعـد الطوفان ٠

كانوا وثنيين الى ان جاء الاسلام فاعتنقوه لكنهم ظلوا عـلى بداوتهم ، ولغتهم ، ليكونوا جديرين بذلك العناد التقليدى المشهور عنهم ٠٠ فعلى الرغم من قسوة الحياة فى الصحراء ، وجدب الوديان معظم الحول ! وجفاف الابار ٠٠ الا انهم ظلوا لاصقين بصخور هذه الجبال فى اصرار ، يتكاثرون فيها ، وينقسمون الى فروع وقبائل ، منها البشـارية ، والعبابدة ، والبوجوس ، وبنو عامر ٠٠ يتناثرون حول الابار والعيون الباقية على حالها من زمن الفراعنة واسلحتهم

سيف طويل ودرع ، ورمح أو خنجر ٠٠ وسيفهم مصـــنوع مثل سيف أسير من الحروب الصـــليبية ، يوســـدون رءوسهم حينما يفترشون الارض للنوم وسادة من خشب الشجر ، مصنوعة على غرار وسادة توت عنخ آمون الذهبية ، ويهيمون بين الجبـــال وراء الابل والغنم والعنز ٠٠ ويشدون خيامهم التى تصنعها نساؤهم من سعف نخيل الدوم ، فى مناطق الرعى على السهل الساحلى من بئر الشلاتين فى أرض مصر الى حدود مملكة السودان ٠٠ ويقعون أمامها يسوون الخبز على الصخور ، ويرشفون القهوة السوداء المغلية ، بينما ترعى الابل نصيبها من نبت الصحراء العزيز الشحيح ٠

وفى المواسم يرسلون القوافل الى السودان جنوبا ، أو قنـــا غربا ، فتبيع الابل والغنم ، وتشترى البقول والتبغ ٠٠ يتصـــل النجع بالنجع ويتحلق الرجال في شبه دائرة ويتفقون على المطلوب بيعه من الدواب ، والمطلوب شراؤه من التموين والزينة ، ثم يتهيـأ المندوبون فيتسلمون مقاود الابل ، ويقودون القافلة عبر الدروب المطروقة التى سواها اجدادهم القدامى بسعيهم المنتظم بين الجبال ٠٠ فيصلون قنا على النيل فى خمسة ايام ٠٠ ويصلون جبال علبة المطلة على مشارف السودان ٠٠ فى تسعة ايام او عشرة ٠

وحين يقترب ميعاد العودة يخرج البشاريون والعبابدة وغيرهم ممن بقى بالصحراء للقاء القافلة على الماركة ٠٠ يمضون وقتهم هناك، يرصدون الافق ٠٠ عساهم يلمحون القافلة وهى تعود ٠٠ يكـــون الحرمان قد اضناهم ، والشوق الى الاشياء القادمة من وراء عالمهـــم يحرك فضولهم ٠٠ حتى تجىء القافلـة فيقيمـون الافـراح داخـل نفوسهم الشجاعة الصبورة ، ويطربون ٠٠ وتصبح الصحراء حضرا كاملا اذا جاءت القافلة بالسجائر والعطور والبقول والحلاوة !

فى واحد من تلك الايام البعيدة والبدو قاعدون مربعين عـــلى الماركة فى دوائر ، أو جالسون ركعا على الركبتين كركوعهم للصلاة أو مائلين عى ركبة واحدة ٠٠ يرصدون الافق فى انتظار القافلة وهى تعود ٠٠ دخلت الصحراء قافلة تضم عددا من الخواجات والبكوات والمهندسين، تحفها كوكبة من هجانة سلاح الحدود مسلحة بالبنادق والسياط ، احاطت بهم واخذت منهم بعضا كادلاء لها بين الجبال ٠٠ ثم مضت تقيس هذه الجبال وتفحصها وتسالهم عن اسمائها وتسجل هذا كله في اوراقها على مدى حول ٠

ثم ذهبوا جميعا عن الصحراء وغابوا حولا آخر . جاءت بعده قافلة ثانية محملة بالمعدات وبدأت تنقب داخل هذه الجبال كأنها تبحث عن كنز .

كنز مهم وغامض لايعرف البدو عنه شيئا ، وهم يعيشون بجواره طول الوقت .

استولى الفضول على البدو فى مبدأ الامر .

لكن فضولهم لم يكن ضارا ، فهم بطبيعتهم ينفرون من الغرباء .. فيتجنبونهم .. وعندما حاول هؤلاء الغرباء اشراكهم فى العمل معهم فى فحت الجبال رفضوا .. كنوع متطرف من اعتزازهم بفرديتهم .. بينما استبد الفضول ببعضهم فعملوا مع هؤلاء الاغراب كأدلاء .. يقودونهم بخيامهم ومعداتهم فى دروب الصحراء الفسيحة المفتوحة على الخطر طوال الوقت .. الى جبال بعينها كان هؤلاء الغرباء يطلبونها بالاسم .. كان معظم هؤلاء الاغراب خواجات، ليسوا من سلالة اجدادهم فى اعالى الجنوب ، ولا من سلالة احفادهم فى اقصى الشمال .. انما هم غريبون حمر الوجوه .. خواجات جاءوا من وراء البحر الكبير المالح .

ومن خلال احتكاك هذه القلة الفضولية من البدو بهؤلاء الخواجات ، انكشف السر وذاع ، واصبح معروفا للبدو ما تحويه تلك الصخور من خامات ، جاء هؤلاء الغرباء سعيا وراءها .

من سلالة هؤلاء الادلاء الذين باعوا لهؤلاء الخواجات معارفهم الغريزية عن هذه الجبال التى ينتمون اليها .. ولد ايسا .. ذلك الذى قاد جمل نيكولا صامتا كأنه ينوء فى دخيلة نفسه باحمال فوق طاقته .. بينما ذلك الخواجة الجديد يتأرجح فوق الجمل مبهورا كطفل .. وهو يلاقى الصحراء لاول مرة .

لقد توقف ايسا مرتين فى ذلك الصباح القديم وهم يغادرون بيت الشيخ على فى مرسى علم ، متجهين فى الصحراء الى جبل السكرى .. توقف ايسا مختلقا عذرا ليختلس النظر الى نيكولا متأملا براءته وهو يحدق مثل طفل .. مشغوفا بما تقع عليه عيناه من مشاهد الصحراء البكر .

ولعل ايسا احب نيكولا فى واحدة من هاتين المرتين اللتين توقف فيهما ليختلس النظر .

كان الامر قد بدأ يستولى على اهتمامه منذ بلغ الرابعة عشرة من عمره وقلدته القبيلة خنجرا اعترافا منها ببلوغه سن الرجولة٠٠ من وقتها بدأ ايسا يفحص هؤلاء الغرباء ويرصد بحماس غريزى كل افعالهم ٠

فى ذلك الزمان القـديم ٠٠ كانت الجبال قد بدأت تتجاوب بأصداء المطارق والمتفجرات ، وامتلأت الكهوف بالعمـــال الذين ساعدت السلطة فى اجتلابهم من وادى النيل ليفتتوا الصـــخر فى المغارات تحت اشراف هـؤلاء الخواجات الذين أقاموا عليهـــا نوعا متناقضا من الحياة الاجتماعية ، كان يحير ايسا ويثير دهشته ٠

فبينما تربع الخواجـات والمهندسـون فى خيامهـم الانيقـة ، يخططون عـلى الورق مداخـل الكهـوف والممرات ، ريثمـا الطهـاة يجهزون لهم الطعام المشوى والفواكه المحفوظة ، كان العمال فى هذه المغارات والكهوف يأكلون ما يصـلب عـودهم فقط تحت احمـالهم الثقيلة ، يشدهم الى هذه المغارات والكهوف ذلك الاجر المميز الى حد ما ٠٠ عشرة قروش ثمنا لقوى الرجل فى اليوم ٠٠ فقد جـــاءوا جميعا من تراخيل الريف حيث كانت تبـاع قـوى الرجـل بقرش أو قرشين ٠

لقد رآهم ايسا مرة حينما زار منجما مع عمه الشيخ على ، كان صاحبه الخواجا قد طلبه فى عمل ٠

وصلوا المنجم فى الليل ، وكان الخواجا نائما ، فمـــالوا الى مساكن العمال لانتظار يقظته فى الصباح ٠٠ واضاء لهم مشـــعل الكربون المكان ، فرأى ايسا امامه مساكن العمال فى شبه دائرة ٠٠ أكواخ من البراميل الفاسدة واغصان الجبل الجافة والاخشاب القديمة وبعض الصخور ، بيوتا ملفقة واهية ٠٠ كان من الصعب عليـه ان يتصور حياة بشرية تدب فى داخلها ٠٠ هو الذى ولد فى خيام من سعف الدوم ، مفتوحة من جوانبها على السموات والوديان ، ويغمرها الضوء بنظافة فطرية ٠

ولشد ما اذهله بعد ذلك ان يرى اى نوع من العمـــل المعجز يقوم به سكان هذه الاكواخ ٠٠ فى سراديب هذه الجبال التى ينتمى اليها ٠

تلك الصخور العظيمة والجبارة الموجـودة بمكـانها فى هـذه

الصحراء من وقت لايعلمه أحد .. يفعل الزمن والجو فعله فيهـــا فتتشكل وتتحول ، وتلد بداخلها عشرات الانواع من المعادن ، رآها ايسا بعينيه وامسكها بيده فوجد لكل معدن منهـا لـونه الخـاص وشخصيته .

فحينما تتبين المجسات وجود الخامـة ، يبـدأ هـؤلاء العمـال القادمون من الوادى فى الفحت داخل الجبل للوصول اليها ، وحينما يبدأون لايعرفون متى التوقف ، يصبح جوف الجبل مباحا ، طالمـا عروق الخام تلوح لهم وتجذبهم .. كأنهم الات مسخرة لاستخراجها ، يحفرون الممرات للعبور ، ثم يمدون قضبان العربات الحديدية لنقلها خارج الكهوف .. الى حيث تحملها الجمال وترحـل بهـا الى خارج الصحراء ..

عرف ايسا وتبين أى عمل بطـولى يقـوم به هـؤلاء الرجـال المجلوبون من وادى النيل داخل الكهوف والمغارات ، فعندما يرفع الواحد منهم مطرقته وهو على عمق اربعمائة متر او خمســمائة فى بطن الجبل ، يدرك جيدا ان من الممكن والمحتمل ان تتخلخل فوقـه الصخور وتنهار ، وتسد عليه طريق الحياة .

ولعل ذلك كله ، كان يحمل الى ايسا بذور همومه دون ان يدرى ، فما من مرة يمر فيها على منجم أو يرى فيها خواجا او تعبر به قافلة جمال محملة بالخامات فى طريقها الى البحر حتى تثمر هذه البذور وتفرخ فى نفسه غضبا كظيمـا ، غضـبا غريزيـا ، يجعلـه يتساءل وهو محنق محير ، عن هذه الكنوز التى يجهد هؤلاء الرجال لاستخراجها من جباله الخاصة .. من عالمه ودنياه .. من حق من ؟ .. من هو صاحبها الحقيقى فعلا ؟



الفصـــل الثالث

يصعد الفجر الفضى من الوديان العميقة خلف جبال السكرى وحماطة وأبو غصون وسميوكى وزرقة النعام والابرق وجبل مصرار وغيرها ٠٠ ثم ينتشر على التلال والهضاب متسربا عبر ظلمة الليــل الكثيفة فيبددها سحبا وتلافيف ، تأخذ فى التحليق فوق القمـــم المنبسطة والمدببة تجاه السماء الخالدة فوق الصحراء ٠٠ قريبـــــة ومستحيلة ٠

ومع خيوط الضوء الاولى يعثر الفجر بنيكولا فيوقظه ٠

يكون عاريا فى بطانيتــه الوحيــدة ٠٠ ممــددا عــلى صــخور الدرهيب التى تثلجت فعلا طوال الليل ، وبدأت الان تفرز انفاسها ندى رطبا ٠٠ فيتململ نيكولا متقلبا ٠

ثم يبرز نصفه العارى من بطانيته وهو ينهض بشعره الكثيف الابيض وشاربه الكثيف الابيض وحاجبيه الكثيفين الابيضين ٠٠ ويفرك عينيه ثم يستقيم واقفا بينما تنساب بطانيته على الارض حول

ساقيه ، فيتمطى محركا اضلاعه ليوقظها ، ثم يخطو عبر الصخور الصغيرة الى الفناء الممهد امام البيوت الخشبية الثلاثة ، فيعبره الى بيته ، محاذرا فى طريقه ان يقلب رقعة الشطرنج القائمة طوال الليل على قاعدتها الخشبية الصغيرة .

وينحنى نيكولا فى جانب من البيت فياخذ من برميل الماء كوزا يملأ به كفيه ، ويسفحه على وجهه ورقبته ، ثم يأخذ كوزا آخر ويجرعه بشغف .. ويملأ غلاية الشاى ثم ينحنى على كسر الحطب والخشب المكومة فى حفرة بين صخرتين ، فينفض عنها الرماد ، ويعيد تنسيقها داخل الحفرة .. ثم يشعل فيها النار .. ويعلق الغلاية فوقها .

وهكذا يبدأ نيكولا يومه .

سيكون الشاى المر افطاره .. وبعدها يبدأ زحفه المقرر الى قمة الدرهيب قبل ان تكتسى سفوح الجبال بلون الذهب .. فلن تكون الشمس قد أطلت من وراء الافق الفضى بعد . وهكذا يكون نيكولا حاضرا حينما تتعرى الصحراء قطعة قطعة فى بشائر النور الذهبية .. عيناه تسبحان عبر السفوح والوديان قافزة فوق القمم ، وجسده عار حر تدغدغه نسمات الصباح القادمة عبر السهول الجافة والسهول المزهرة ، محملة باريج بكر .. فيرتجف نيكولا بنشوة الشوق والشبع .. وتغمره السعادة .

فى تلك اللحظات البالغة القصر ، بين الصبح والفجر ، بين الذهبى والفضى .. قبل ان يبدأ نيكولا طقوس عذابه اليومية ، يكون مبتهجا فعلا .. يعاوده ذلك الشعور القديم الذى استولى عليه ، حينما دخل الصحراء لاول مرة .

فى شروق كهذا .. منذ خمسين سنة او اربعين ، ارتجف نيكولا ، واصطخب بداخله نوع من الشغف الرقراق ، الشغف الظامىء للمستحيل ، فظن ان باستطاعته ان يحث بعيره فيخب به مسرعا تجاه الافق المنقسم بين الذهب والفضة ، ليمسك بقرص الشمس قبل ان يقفز مرتفعا فى السماء .

كان المشهد حوله اسطوريا وهو يتأرجح مرتفعا فوق جمله ، بجوار المهندس ماريو الذى يتأرجح مرتفعا فوق جمله أيضا .

وكانت وراءهم ثلاثة جمال اخرى ، تحمل العمال والادوات والمئونة ٠

قال (الباشا) المصرى المسمى خليل ، شريك ماريو ، ان بدو هذه الصحراء رعاة غنم وابل ٠٠ ويتأبون على العمل فى المناجم وأحضر لهم الباشا من صعيد الوادى حفارين ونجارين وناقلى حجارة حمل بهم جملا ، وحمل جملا آخر بالمئونة : الزيت والارز والدقيق والسمن والشاى والسكر والسجائر ٠٠ وحمل الجمل الثالث بالاخشاب والبارود وأدوات الحفر والمقاطف ، وقال لماريو : أنا أمول العمل ، وانت تقوم بتنفيذه ٠

وهكذا أصبحا شركاء ٠٠ وبقى معهم على العشاء فى البيت الخشبى الذى يملكه الشيخ على دليل الصحراء ، بمرسى علم ، فشوى لهم الشيخ سمكا كبيرا صاده صبيانه من مياه البحر الاحمر التى تصطفق حول جدران بيته الخشبى ، وكان الباشا قد أحضر معه زجاجتى ويسكى ، للاحتفال بالمناسبة ٠ وبعد منتصف الليل بقليل نهض الشيخ على فأيقظ العمال والجمال ٠٠ وشدت القافلة رحالها فوقف الباشا يودعهم وهو يتمنى لهم التوفيق ٠٠ ولعله ساعتها كان يحلم فى دخيلة نفسه بسبائك الذهب التى ستوالى هذه القافلة الصغيرة ارسالها بعد انتزاعها من براثن هذا الجبل المسمى بالسكرى الذاهبين الان اليه ٠

كانوا جميعا يحلمون بالذهب بينما نيكولا مبهورا ، يحلم بالمعرفة فى بحر التجوال ٠

وعلى طول الطريق الذى قطعوه بين الجبال فى ذلك الصباح القديم ٠٠ مروا بشجرتين أو ثلاث ٠

الشجرة تكون وحيدة فى الارض القفار فتصبح ظلا ، فيفىء البدو بأغنامهم تحت هذا الظل ويقيمون مسكنا من الخيش ، يهدمونه ويرحلون حين تعجز الاغنام عن ايجاد ورقة خضراء تأكلها ٠

ومن خلال بقع الظل هذه ، كان يخرج لهم بين الحين والحين مخلوق يعترض القافلة وذراعه على عينيه ٠٠ ويهمهم بلغة غير مفهومه وهو يلوح لهم بسيفه الطويل الصدىء ٠٠ فيصب له الشيخ على قليلا من الماء فى وعائه ، ويعطيه سيجارة ، فيقعى الرجل على

الارض ويأخذ فى التدخين بنهم بينما يشيعه الشيخ قائلا : هذا من البشارية ٠٠ ويواصل السير ٠

يكون الرجل حافى القدمين ٠٠ مرسل الشعر عــــلى جانبى الرأس وخلفه حتى الكتفين مدهونا بمزيج من دهن الماعز وخشـــب الصندل ، على طريقة فراعنة طيبة القديمة ٠

قال له ماريو وهم يتعمقون طريقهم داخل الصـحراء فى ذلك اليوم : هؤلاء اقاربك يانيكولا وأصهارك ٠٠ الم تكن زوجتك ايليا قوقازية مهاجرة ٠٠ هؤلاء أيضا مهاجرون من جبـــال القوقاز ، لقد جاءوا قديما عبر بلاد الشام وشبه جزيرة سيناء ثم ساروا بمحاذاة الشاطىء الشرقى للبحر الاحمر حتى نهايته فعبروه الى اريتريا ٠٠ واستقر أكثرهم فى صحراء السودان ومصر ٠٠ شرق مجرى النيل ٠

فنظر نيكولا الى أصهاره الغامقى السمرة ٠٠ وتعجب من جلده الاوربى الابيض ٠

فقال له ماريو ان خمسة آلاف سنة من الهجرة تحت شـــمس افريقيا الحارة ٠٠ كفيلة بأن تحرق جلـــدك وتصـــبغه بلون البن الغامق ٠٠ لكن هذا الانف القـــوقازى لن ينمحى ٠٠ دقق النظـــر ستجده مطلا من وجوههم جميعا ٠٠ الا يشبه انف ايليا زوجتك ؟

كان ماريو قادرا على ان يكون ماجنا وجادا فى نفس الوقت ٠

وبين الحين والحين تبرز ، فجأة على طرف جبل أو حافة وادى ، كومة من العظام البيضاء ٠٠ أو غصن جاف ترفرف على أعلاه قطعة صغيرة من القماش ٠٠ هى علامات الموت فى الصـــــحراء ٠ يرقبها نيكولا ويرتجف مهابة ٠

ان كومة العظام كانت جملا ، يدقق فيها النظر فيجدها منهارة متناثرة ٠٠ فيعرف أن المـــوت قديم ، وأنه فاجأ الجمل وهو يمشى فتهالك على نفسه ٠ وأحيانا يجد نيـــكولا ان الجمجمة مشرئبة ، تحملها عظام العنق بوضوح فيعرف أن الجمل قد مات وهو جالس يتأمل هـذه الصحراء فى عظمة ٠ وأن جوارح الصـحراء قد نهشت لحمه الميت لتبقى عظامه علامات ناصعة البياض على الصـــخور مئات السـنين ٠

وحين يموت الرجل يوارونه التراب حيث مات .

قد يجدونه ميتا فوق صخرة ، أو على حافة سهل . متشقق الفم من العطش .. مطفأ العينين من الحر والموت .

وقد يعثرون به ميتا على الماركة ، بعد ان اضناه السير بحثا عن انسان أو حيوان ، أو صوت يهديه لنقطة من الماء .

لقد جرب نيكولا الموت في الصحراء ، حيث يضرب الانسان على غير هدى . بين الصخور باحثا عن الطريق والماء يوما أو يومين .. وفي اليوم الثالث أو الرابع يجد نفسه وحيدا معزولا في جبال لا نهاية لها . وقد جف حلقه وجوفه ، وتشققت أطرافه وشفتاه .. فيخطف الرعب قلبه لكن غريزة البقاء تدفعه يمينا ويسارا منقبا عن بئر .. يزحف ويزحف حين يعجز عن النهوض .. ثم بالتدريج يفقد طعم العطش .. ويصبح من الصعب ان يتنفس من حلقه الجاف فيتأرجح بين الغيبوبة والوعي .. ثم ينزلق على الارض ويتنازل عن النهوض .

يومها قال نيكولا لنفسه : لقد فعلت ما استطعت فعله ، وليس لدى أى أمل الآن سوى أن أموت في هدوء .. وأغمض عينيه لينال السلام .. ثم فتحهما بعد ذلك ليجد ايسا قائما عند رأسه ملثم الوجه ، ممتشقا سيفه ، يصب في فمه الماء من كيسه المصنوع من جلد الشاه .

كانوا قد استقروا في جبل السكرى وأقاموا الحياة حول فتحة المنجم القديم المهجور .. وانتشر العمال يمهدون الطريق القديم .. ثم نزلوا الى السراديب يجسون الصخور الداخلية بحثا عن عروق المرو التى تحتمى بها ذرات الذهب .

في تلك الممرات تعلم نيكولا اسرار التعدين .. وعرف أنه لن يكون أول المعدنين ولن يكون آخرهم ..

فها هي السراديب المهجورة تحكى له قصص الفراعنة القدامى الذين كانوا أول من استخرجوا الذهب من الصخور ، وبعدهم يجيء الرومان والعرب .. بل أنه من هذا المنجم بالذات .. كان محمد على والى مصر ، يرسل عماله الالبان فيحضرون له ثمانية أرطال من الذهب كل شهرين . !

وكانت هذه المعلومات تملأ قلبه بالحماس .

وحين شاهد احجار الكوارتز وهي تصحن وتمر في الطواحين ثم نغربل .. وشاهد ذرات الذهب وهي تلتمع متبلورة على الصواني النحاسية خلال عملية التنقية بالزئبق .. توهج بداخله ذلك الشعور العظيم بالانتصار .

وبدأ يفكر في تلك الذرات وهي تتكاثر وتتجمع تحت الضغط في سبيكة ، ثم تذهب الى مكتب الباشا في القاهرة .
لكن السبيكة لم تذهب الى مكتب الباشا في القاهرة .

كانت كبيرة وثقيلة ، فتركوها في البوتقه الجرانيتية خلال الليل .. وفي الصباح لم تكن موجودة .
ولم يكن ايسا مشغولا بفكرة الحق والعدل على المستوى العقلي ، ولم تكن بذور همومه قد أثمرت بعد اتجاها يقود قواه الكظيمة .. عندما قاد ثلاثة من رجاله شاهرين سيوفهم ورماحهم ، وتسللوا الى منجم السكرى ، وخلعوا سبيكة الذهب التي تزن رطلين من بوتقة البازلت والجميع نيام ، فدسها ايسا في كيسه ثم اختفى مع رفاقه في ليل الصحراء .

انما هو نوع من الغضب الغريزي يجري في دمائه البجاوية القديمة ، جعله يقف مرتجفا مقشعرا في ذلك النهار بباحة المنجم ، كانما هو مطالب من قوى قدرية بعمل لا يدري كنهه بعد ... بينما كان نيكولا يقوم بتدشين السبيكة التي تمثل حصاد عامين من العمل الشاق ، والجهد المضني والعناء ، لهذه المجموعة البشرية الصغيرة والمتناقضة التي اختارت هذا الجبل مكانا تستثمر فيه وجودها .

لقد رأى ايسا في ذلك النهار الخواجا ماريو شريك الباشا المصري وهو يصفق مبتهجا بجوار نيكولا ، بينما يرقب بجانب بصره مجموعة من العمال المتحلقة حول البوتقة منفرجة الاسارير في بلاهة ، وعيونها فاغرة على سبيكة الذهب ، كأنها لا تصدق ان تلك السبيكة قد ولدت من تلك الصخور الهائلة التي حفروها بأظافرهم وحملوها على ظهورهم من باطن الجبل الى سطحه على مدى عامين .. فقطع عليهم ماريو حبال دهشتهم وامر ايسا بأن يأخذهم ويذبح لهم غنمتين .

فهكذا الامر اذن كما يقول أبوه بشير ٠٠ الذهب للاغراب ، ولاهل المكان ملء بطن أو بطنين ٠ !

أخذ يرقب هؤلاء الخواجات الذين أدخلهم الصحراء من مرسى علم ، ذات صباح من عامين وكانوا وقتها ممتلئين تواضعا وبساطة بل أن أحدهم كان مدهوشا كطفل وهو يلج بين الجبال ٠٠ فاذا بهم الآن يتصرفون تلقائيا وكأنهم قد امتلكوا هذه الجبال فعلا ٠

ولعل هذا الخاطر وحده هو الذى حفز ايسا للحصول على السبيكة ٠٠ لعله رغب فى تأكيد سلطانه على جباله الخاصة ، مقابل ان يكسر سلطان هؤلاء الاغراب ويفزع زهوهم الطاووسى هذا ٠

فلم يكن فى نيته أبدا أن يحتفظ بالسبيكة ٠٠ بل انه قرر أن يأخذها وفى نفس اللحظة قرر أن يعيدها ٠

لقد أخذ يحث بعيره فى ليل الصحراء والسبيكة فى كيسه اللاصق بصدره كأنها درع يحتمى بها من كل الشرور المجهولة التى يمكن لهؤلاء الاغراب ان يطلقوها خلفه ٠٠ متجها جنوبا فى الصحراء محاذيا الساحل البعيد للبحر غير المرئى ٠ وحوله رفاقه الثلاثة ٠٠ عبروا رأس صمادى ٠٠ ومروا بالشرم فبدأ يظهر لهم غربا جبل زيارة ٠٠ وقبل الفجر بساعة وصلوا رأس بغدادى ٠٠ ثم عبروا وادى الجمال مع بشائر الصباح وأخذوا يحثون الابل جنوبا الى بئر رنجه وحماطه ورأس نكرات ، فاطلوا على البحر فى العصر ٠٠ ومالوا الى الغرب داخل الصحراء ثانية ، بعد أن تركوا خلفهم أنقاض مدينة برانيس الاثرية التى بناها القيصر بطليموس الزمار من ألفى سنة ، تخليدا لابنته ذات الاصل الزنجى ٠٠ وكان خليج بناس الشهير ، قد أصبح على يسارهم ، ثم خلفهم ٠٠ فارتاحوا ساعة على سفح جبل باتوجا ٠٠ ثم واصلوا السير الى بئر الشلاتين ، عبر جبال زرقة النعام ٠٠ فى طريقهم الى الجبل الابيض المقدس علبة ٠٠ فوصلوه بعد يومين آخرين ٠٠ وسقطوا جميعا على أقدام الجبل منهكين لاهثين كأنهم فى صلاة خاشعة كأنهم رسل قادمون من بعثة قدسية ٠

كان الجبل ينتصب شامخا نحو السماء ، تطل من قممه تلك الكباش البرية التى تحيا فى ظلال أشجاره المقدسة الخضراء النابتة على القمم العالية المتسامية لتطاول السحاب ٠٠ ثم تتراجع تلك

الكباش منكمشة مفزعة خشية السقوط عـلى السـهول الخضراء المنبسطة حول سفوحه ٠٠ ومن بين هذه الصخور الحادة والمدببة الشديدة القسوة والجفوة ، كان الماء العذب يسيل زلالا على المساقط الجنوبيـة والغربية للجبـل ، ثم ينسـاب فى وادى عيـذاب ليروى تلك الغابة الكثيفة التى لم يقدر على اختراقها انسان للآن ٠٠ حيث تعتقد قبائل البجاة انها مغلقة على روح جـدهم الاكبر القديم كوكا لوانكا ، ذلك الذى أمضى عمره فى كهف عميق داخـل هذا الجبل الابيض يصلى للمكان ويتعبد ٠٠ حتى تحـول جسمه بفعل الزمن وكثرة العبادة ٠٠ الى صخرة من صخوره ٠٠ بينمـا انطلقت روحه تحفر القمم وتفجر منها ينابيع المـاء لتنشىء لها غـابة فى الوادى تحتويها ٠

وهكذا فى ذلك الصباح المبكر على أعتاب الجبل الذى يحتوى تلك المغـارة التى تضم الصخرة التى كانت فى القديم كوكا لوانكا وقف ذلك الحفيد ايسا وأخرج من صدره سبيكة الذهب فأقامها على صخرة ٠٠ ووقف مع رفاقه حولها وكأنهم يشهدون جدهم كوكا على ما فعلوه ٠٠ مؤكدين له أن أحفاده مازالوا يملكون السلطان عـلى الصحراء وجبالها ٠

هكذا يفعل الجميع من البشاريين والعبابدة وبقية فصـائل البجاة ٠٠ كلما ألم بهم أمر وأعياهم ، حملوا همومهم وأفعالهم الى الجبل الشامخ فى السماء ، يحوطه الضباب بغلالة بيضاء لا تستطيع ان تخفى الخضرة الزاهية النابتة على قممه الصامدة ٠

لقد ظلوا أمناء على العهد منذ حط جدهم الاكبر الرحال تحت أقدام جبل علبـة الاشم ، فأصبح الجبـل كعبتهم ٠٠ ينحـدرون الى الشمال ويصعدون الى الجنوب ، ويذهبون الى الغرب ، ويستقبلون الهجرات المتتابعة عبر البحر على مر الزمان قادمة من الشرق ٠ فتؤثر فيهم وتدفعهم أمامها ، لكنهم يعودون دائما الى علبة ٠

يقولون أن الله عندما خلق آدم مثل له الدنيا بقعة بقعة ليراها فلما رأى مصر رأى جبل علبة مكسـوا بالنور وكان جبلا أبيض ، فناداه بالجبل المرحوم ٠٠ ودعا لارضه بالخصب والبركة ٠

أيداخلهم الشك فى أن آدم القديم هذا ليس سوى جـدهم الاكبر كوكا لوانكا ؟!

لقد خاطب ايسا جده وهـــو يصيح من وقفته عـــلى السفح ليسمعه فى مغارته المرتفعة ٠٠ وأخرج له كل ما بنفسه ٠٠ وحكى له بالتفصيل ما فعله ، ثم رفع الســبيكة بين يديه كأنه يقربها من عينى جده الصخريتين ، فتوهجت بأشعة الشمس المنكسرة عـــلى حوافها الذهبية ٠٠ وأخبره أنه سيعود بها الى مكانها فى المنجم ٠٠ فليست السرقة من شيمه وأخلاقه ٠٠ وطلب رضا جده ليهديه فى دروب الصحراء الى المراعى المزهرة والماء الوافر ٠

وقد خرج من بين أقدام الجبل بعض أقارب ايسا ومعـــارفه وقفوا حوله منتصبين بقاماتهم الشامخة وأسنانهم البيضاء المصقولة ورءوسهم الملبدة بالشعر الكثيف المضفر ، ثم أمسكوا قرص الذهب بأيديهم وقلبوه فى وجه الشمس مرتين أو ثلاثا ، وقذفوا به عـــلى الصـــخر ليختبروا صـــلابته واصـــالته ٠٠ ثم اعادوه لايســا وهم يباركونه ٠٠ فوضعه فى صدره ثم أقام جمله ، وانكفـــأ عائدا الى المنجم يتبعه رفاقه ٠

أمضوا الليـــل والجمـــال تقطع بهم الصـــحراء كرماح مطلقة ، مستنيرين بقمر الصحراء السحرى ، وبالنجوم والكواكب ٠٠ وفى الصباح كانوا يقتربون من حافة جهنمية عثروا عندها عـــلى قبعة نيكولا ٠٠ فتعرف عليها ايسا ٠ وأمر رفاقه بالبحث عن الخواجا ٠٠ فوجدوه بعد ساعتين من تقصى الاثر وتشمم الارض ٠٠ منحنيا على صخرة ، واصابعه التى تشققت وجفت عليها الدماء ، مغروســـة فى الارض تحتها ٠٠ كأنه كان يحفر على الماء ٠

وكان يبدو كأنه قد مات منذ ساعات ، فانحنى عليه ايسا وسمع صدره ، ثم بلل وجهه بالماء ، محاذرا ان يسقط منه فى فمه أكثـــر من قطرتين ٠٠ حتى يلين بلعومه وتتندى قنواته الداخلية ٠٠ فتبدأ فى تقبل الســـائل ٠٠ وحين بدأ يفتح عينيه ، شرب من الماء جرعة صغيرة وهو يرتجف ٠٠ فخلع أيسا عباءته ودثره بها ٠
ثم حمله على بعيره ٠

لم يحصل نيكولا على الموت الذى تمناه فى تلك اللحظة القديمـــة بعد خمسة ايام من الضلال فى تيه العطش ٠ وأصـــابعه الداميـــة المغروسة فى الارض قد فشلت فى أخراج الماء من الصخر ٠٠ كما أنه

لم يحصل على سبيكة الذهب المسروقة التى خرج الى الصحراء وراءها ٠
ولم يكن يدرى ان قرص الذهب قابع فى ذلك الكيس المعلق على صدر أيسا الذى يقود جمله صامتا عائدا به من جبال الموت الى وديان الحياة ، بنفس الصمت الذى قاد به جمله ليدخل به الصحراء أول مرة ٠

ومضوا يخترقون الصخور عائدين الى المنجم ٠٠ عبر انقاض المدن القديمة فى وادى العلاقى ، وركام القلاع فى وادى شنشف ووادى سكيت والخريط ، عبر تلك الطرق القديمة التى كانت تقطعها جيوش الفراعنة القدامى وأباطرة الرومان ٠٠ غازية أو فى طريقها للغزو ٠٠ أو لحراسة الاسرى والمحكوم عليهم ، الذاهبين للعمل فى المناجم ومقاطع الاعمدة والاحجار المرمرية التى تزين قصور الفرعون او الامبراطور او المعابد ٠
فحيثما سارت القافلة الصغيرة التى تحيط بنيكولا عثرت عيونهم على بقايا هذه المناجم الاثرية المهجورة ٠٠ ولمحوا على الصخور آثار الكتابات القديمة ٠

وكان نيكولا يرتجف مهابة وخشوعا ، وقد استولى المكان على حواسه المضطرمة بالرغبة فى التحليق ٠٠ وشعر بأنه يوشك أن يجد مكانا يرغب فى الانتماء اليه ٠
يوشك أن يجد وطنا ٠
وكان متأكدا أنه قد اكتسب ايسا أخا وصديقا ٠
ولم يكن قادرا على الكلام أو الحركة ، فأخذ يتأمل ايسا حينا ٠٠ ويتأمل الصحراء من حوله حينا آخر ٠٠ ولم يكن فى الصحراء حوله غير الرمال الباهتة الصفراء ، والسماء الباهتة الزرقاء ، وانفاس الارض التى تتكاثف تحت الشمس فتبدو كلما ابتعدوا عنها سرابا ٠٠ فأخذ نيكولا يحدق فى السراب ويتأمله ٠

فى الاول ظهر له ظلالا كثيفة عند الافق ٠٠ مجرد ظلال ٠٠ وعندما أمعن النظر ظهرت له قباب ومآذن وأسوار وبوابات ويمكنه أن يقسم أنه رأى اشجارا كثيفة الاوراق وارفة ، مثقلة بالثمار ، تبدو كأنها تموج وتتحرك ٠
فحاول أن يكشف اللغز الذى تحويه هذه الظلال فيجعلها تبدو قبابا ومآذن ذات مرة ٠٠ وحدائق ونافورات مرة أخرى بل واخطر من

هذا ان تجعل ذلك الذى يراها يصدقها ٠

ثم أدرك أن اللغز فى داخله هو ٠

كان على درجة من الوعى بموقفه مما جعله يدرك أن الامـــل والرغبة ، هى الفخاخ التى ينصبها البشر لانفسهم ويلهثون جـــريا وراءها ليسقطوا فيها ٠

فالآن ، وهو مطمئن فوق جمله محاط بالرعاية من هؤلاء الرجال الأشداء الذين يعرفون الصحراء كما يعرفون اصابعهم يمكنه ان يجلس متماسكا يتأمل السراب ويحلله ويفكر فيه ٠

ذلك السراب نفسه ٠٠ الذى قاده من عينيه المضللتين بالامس فقط ، وهو يهيم ضالا مشقق الفم من العطش فى تلك المساحة الهائلة من الصخور الجهنمية التى لايظهر فيها ظل لشجرة أو مخلـــوق ٠٠ فيجرى تجاهه جريا لحوحا ملتاعا ، يبغى الامان تحت قبابه ، وينشد الارتواء من نافوراته واشجاره يجرى وينكفىء ، ثم ينهض ويواصل الجرى ، مدفوعا بقوة العطش الخارقة ٠٠ حتى تبددت قواه تماما ٠٠ فانهار على الصخور هامدا متشقق البلعوم والجوف ٠٠ دون ان يصل الى هذه القباب أو تلك الاشجار الوارفة ٠٠ لانها لم تكن سوى وهـم صنعته حاجته ٠





الفصل الرابع

فى تلك الايام كان للاجانب فى مصر كلمة عليا ، وحق يكاد يكون موروثا ٠

فلم يكن باستطاعة المواطن المصرى مثلا ان يبتعد فى الصحراء بعد مصر الجديدة أربعة كيلو مترات ٠٠ دون ان يحصل على تأشيرة عبور من المحتل الانجليزى ٠

لقد عاش نيكولا ليرى بعينيه ذلك الهيلمان يذهب وينداح ٠ لكن وقتها فى تلك الايام البعيدة ٠٠ كان الانجليز قد انشأوا فى الصحراء فرقا من الهجانة مسلحة بالبنادق والكرابيج ظاهرها حماية الحدود من عمليات التسلل والتهريب ٠٠ وباطنها حماية تلك الشركات التى انتشرت فى جبال هذه الصحراء بحثا عن الذهب والنحاس والرصاص والزنك والتلك ٠

ولم تكن قد وقعت بين هذه الجبال سرقة يعتدبها ، منذ سطا هؤلاء الاغرار ابناء عمومة أيسا من قبيلة المعازه ، على قوافل المحمل

الشريف والكسوة الشريفة ونقود الصدقة الاميرية ·· الذاهبة فى طريق الحج الى مكة ·· بين قفط والقصير ، عبر جبال الصحراء ·· واجتمعت رءوس قبيلة المعازة تتقاسم المغانم والأسلاب بناحية الجبل المعروف للآن باسم جبل الجوخ ، نسبة الى جوخ الكسـوة المنهوب ، فماكادوا ينتهون من القسمة ·· حتى كانت الحملة التأديبية التى ارسلها محمد على الكبير فوق رءوسهم فاستولت على الجمال والاحمال ثم جمعت رجال المعازة ونساءها وبناتها وأطفالها وعادت بهم أسرى ·· ليعرضوا جميعا للبيع ، فى سوق الرقيق بساحة القلعة !

من وقتها لم تحدث فى الصحراء سرقة يعتد بها ·· حتى هذه البراميل المستهلكة والاخشاب القديمة التى يجمعها الاعراب من حواف المناجم ، ليصنعوا منها اخصاصا ومظلات وأوعية ·· لم يعد اصحاب تلك المناجم يعتبرونها سرقة ·

ولهذا كان الحادث جللا ، جاءله هجانة الحدود من بئر الشلاتين فبقى بعضهم بالمنجم وانطلق بعضهم فى الصحراء وراء سارق الذهب وكان الباشا المصرى قد جاء من القاهرة وهو يرغى ويزيد ·· واخذ يهدد بما يملك فى العاصمة من اتصالات وسلطات ·· فأفسحوا لـه فى الباحة مكانا وثيرا ، بينما اخـذ تابعه يخرج مـن حقيبته لفافات الحلوى القادمـة من جروبى ·· وقفص الفاكهة المغلفـة بالسـلوفان ، فجلس يروى عطشه بعد الرحلة المتعبة ·· بينما وقف ماريو مرتبكا ، مدهوشا ·· يحكى له ما حدث ·· كيف استيقظوا فى ذلك الصباح فلم يجدوا نيكولا ، ولم يجدوا قرص الذهب ·· والباشا يسـمع مرتابا ، ثم يحدق فى وجه ماريو بين الحين والحين كأنما يخامره الظن أن ماريو قد دبر تلك اللعبة مع صديقه نيكولا ·· فالباشـا هو الباشا ·· مهما بدا من اتصاله بهـؤلاء الاجـانب والتحـام مصـالحه بمصالحهم ، يظل حذره الماكر التقليدى منتبها ومتيقظا !

لقد شعر ماريو بهذا الحذر المتهم فى عينى الباشا شريكه ، فأستشاط غضبا ، وأقام الغضب بينهما سـتارا كثيفا يكاد يكون مرئيا ·· عاقهما عن تبادل الكلام خلال الايام الخمسة التى امضاها الباشا فى المنجم للاشراف على البحث والتحقيق ·

متباعدان ·· كل منهما كبير بتلك العزلة التى يقيمها حـول حجمه ·· بينما البدو والعمـال والهجانة حولهما ·· كمخلوقات

اضافية • أفقدها الحادث قدرتها على الاستيعاب والتفكير فاقعت على الارض صامتة ، وأن همست فبالتكهن أو التخمين •

وفي اليوم السادس هبوا جميعا مع الفجر ، على ضجة الابـل وهى تحط فى باحة المنجم •• ليجدوا فرقة الهجـانة التى كانت تواصل البحث فى الصحراء ، قد عادت بصيدها الثمين •

لقد بهت الباشا وتدلى فكه • ووقف ماريو منتصبا يتطـلع الى نيكولا وهو يهبط عـن جمل ايسا •• بينما كان ايسا يتعثر فى تلك الحبال التى قيده بها هجانة الصحراء ، فبدا للجميع فجأة •• وبشكل مصدق •• كانما ايسا هو السارق •• ونيـكولا شريكـه !

قال كبير الهجانة للباشا انهم عثروا على ايسـا ورفـاقه عـلى حافة جبـل النقرس ، فبدأوا محاصرتهم •• وقد تمكن رفاق ايسا من الفرار •• وسقط ايسا ونيكـولا فى ايديهم •• وكان قـرص الذهب فى صدر أيسا •

وقال نيكولا انه اندفع الى الصحراء ليلا وراء اشـباح رجال تغادر المنجم •• وانه ضل وتاه •• وان ايسا انقذه من الموت فى الصحراء ، وليس ممكنا ابدا أن يكون هو السارق ، لعله قد ضبط الذهب المنهوب وكان عائدا به الى المنجم حينما عثر عليه وأنقذه •

أما ايسا فقد التزم الصمت •

وكان الباشا قد انشرح لعـودة الذهب •• ولم يعد ما يجرى بعد يهمه فى شىء ، الا بالقدر الذى يحفظ مهابته وسـلطانه • أو يبعث فى نفسه البهجة أو التسلية •

ولعله بخبث خفى •• اراد أن يستفيد من دفاع نيكولا الملحوظ عن ايسا ، ليترك ظلال الشك فترة •• تحـوط ماريو بأحتمـال اشتراكه فى تدبير الحادث •• أن نيكولا ليعلم ذلك جيدا الآن ، بل أنه متأكد منه •• فبعد مرور تلك السنوات ، يمكنه أن يكون متأكدا من أن الباشا لم يأمر عبثا بحبسه مع ايسا ومراقبتهما معـا •• فى ذلك اليوم القديم ، حتى يفكر فى الموضوع ويتخذ فيه قرارا •

فى ساعات الحبس الطويلة تلك التى كان الباشا يتجول خلالها فى باحة المنجـم وينزل فى السراديب ليحصى الآلات والادوات ، يقوده ماريو المحاط بالشك •• يعتقد نيكولا انه قـد ولد ولادة

جديدة ، في محبسه الخشبي في تلك الباحة ·· مع أيسا البدوى الذى يدين له بحياته ـ عاجزا عن أن يمد له يد العــــون ـ بينما يحرسهما من الخارج رجال الهجانة المسلحون بالكرابيج والبنادق ·

لقد ارتعش نيكولا بالغضب فى لحظة ·· وهو ينظر فى عينى ايسا ، مقتنعا اقتناعا غريزيا ببراءته ·· مغتاظا هائجا من صـــمته هذا الذى يتسربل به ·

ولعل ايسا قد اهتز لانفعال نيكولا ·· ذلك الخواجا الوحيـــد الذى أحبه حين رآه بنظرة مختلسة مندهشا مسحورا كطفل بينما يقوده ويلج به جبال الصحراء التى ينتمى اليها ·

ولعل محبسهما معا قد ازال ما بينهما من حـــواجز الجنس واللون ·

فبدا أيسا يحكى لنيكولا همومه التى ينوء بها قلبه ·· قال له انه أخذ الذهب ليطلع جــــده عليه ثم يعود به ·· رغبة عارمة سيطرت على حواسه أن يعكس على سفوح الجبال وهج تلك الثمرة التى خرجت من بطونها ، فلشد ما كان يخالجه الشعور أكثر من مرة ·· ساعة الغسق ·· حينما تلتمع هذه الجبال تحت الضوء الذابل الاحمر ، فيبدو له كأن صخورها الحادة تضم خليطا من اللحم والدم والعظام ·· خليطا من الرجال الذين راحوا ضــحايا الاختناق فى الآبار القديمة ·· أو مطمورين تحت الانهيــارات الصـخرية المفاجئة داخل انفاق التعدين ·· فيخالجه الشعور بأن الجبل من لحم ودم !

ولو غير نيكولا يستمع لايسا فى تلك اللحظات لعجز عن فهمه أو تصديقه ·

لكن نيكولا كان قد بدأ يشعر بالولادة الجديدة التى سيكون هو ثمرتها ، بينما يستمع لايسا ·

وكان يكتشف تلك المعاني الحقيقية للانتماء خـلال كلمات هذا البدوى الذى يواجه الطبيعة حوله بالفطرة ·· فأقتنع به ·

بل انه احتضنه فى صدره وقلبه !

وكان الشيخ على قد جاء الى الجبل منكسا خزيانا بما يحوط ابن أخيه ايسا من شبهات ، فطلب من الباشا أن يحتكموا لشريعتهم ·

لقد عاد الذهب ، لكن الحقيقة ماتزال غائبة ·· وفي شريعتهم يحتكمون الى النار ، لتظهر الحق من الباطل ·

فليمش ايسا على الحطب المشتعل ، فان كان ما قاله هو الصدق فسوف ينجو ولن تصيبه النار بضرر ٠

وقد وافق الباشا على اقتراح الشيخ على ٠٠ فهو حريص على ارتباطه به ، ومنافعه فى الصحراء كثيرة ٠٠ ومن ناحية أخرى فقد استطاع بهذه الحادثة أن يحقق غرضة ويترك فى ماريو أثرا نفاذا يمنعه من المساومة حين يحين الوقت لتقسيم قرص الذهب ٠٠ وكان من الذكاء بحيث يدرك أنه لن يعود عليه بشىء انتقال التحقيق من الصحراء الى البندر ، وترحيل مجموعة من البدو الى سجنه ٠٠ بل حتى اعدامهم لن يعود عليه بشىء ٠٠ فمن الواضح أن مهابته فى الصحراء ٠٠ لا تزال محفوظة ٠

وامر الشيخ عماله فحفروا امام البيوت حفرة طولها ثلاثة امتار ، وعرضها متر ٠٠ وجمعوا من فضلات الاخشاب والحطب ما ملأها ٠٠ موسدا مرصوصا ، غير مخلخل ٠٠ ثم اشعلوا النار فى الحطب وتركوها تسرى منه الى الاخشاب فتشعلها ٠٠ فتوهجت النار فى ذلك العصر الحار بينما الوجوم يثقل بظله الكئيب على الشيخ على ورفاقه وعمال المنجم الذين تجمعوا حول الدائرة ، مشحونين بالقلق والتوتر يرقبون النار وهى تحيل الاخشاب السميكة الى جمر ملتهب ما تزال الالسنة الحارقة تتصاعد منه كأنها شياطين نهمة ٠

وأمر الباشا باخراج ايسا ، فأخرجوه ، وأوقفوه أمام النار فشد قامته ، ونظر بثبات فى عينى عمه ٠٠ ثم صاح بلكنته البجاوية مؤكدا للشيخ على انه لم يكن ينوى سرقة الذهب ٠ وانهم امسكوه وهو فى طريقه لاعادته ٠

ووقف نيكولا المتحضر مرتجفا ، يحملق فى الباشا المصرى الذى يخرج من أشداقه فكاهات بذيئة ، يحاول بها أن يخفف من ذلك الثقل المأساوى الجاثم على المشهد الذى كان واضحا أن أحدا لا يستمتع به غيره وحده ، بينما كان الجميع من حوله صامتين عاجزين عن الاستجابة لفكاهاته ٠٠ ينقلون ابصارهم الواجفة بين أيسا النحيل المنتصب ، وبين الحطب المشتعل فى الحفرة المستطيلة وقد التحم بكتل الاخشاب فحولها الى جمر تتصاعد منه السنة من النيران قصيرة ، تكاد تكون غير مرئية ، فى ذلك العصر الحار ٠٠

فيتداعى الى ذهنه مشهد قديم لزوجة هذا الباشا المسماة اقبال هانم، والتى تصغره بواحد وعشرين عاما .. شبه عارية على رمال مرسى علم الساحلية .. ممددة بجسدها اللدن المعطـــاء كله . امام ماريو الجالس بجوارها شبه عار هو الآخر .. يجمع قواقــــع البشبش الدقيقة الحجم .. المتموجة الالوان ، ويرصها جامدة ساكنة عـلى الجسد الانثوى العارى ، فتتلألأ فى وهج الشمس الغاربة كأنهـــا فصوص من جواهر ، تزينه وتزيده فتنة ، فما تلبث الحيــوانات اللزجة الدقيقة المختبئة فى تلك القواقع أن تطمئن للدفء المنبعث من حرارة اللحم ، فتخرج اقدامها الهلامية وتزحف بقواقعها عـــلى جسم المرأة .. بنشاط وسرعة هنا وهناك ، حول الرقبة ، والثديين، وفوق البطن ، وداخل السرة ، كانما قد دبت الحياة فى القـــواقع فجأة .. بينما تتلوى أقبال هانم ، مدغدغة مثارة . تصرخ وتضحك ويختلط ضحكها بصراخها فيخرج من فمها الشـــهوانى على ذلك الشاطىء البكر مزيج من الرعب المصطنع واللذة .

هل كان خليل باشا فى ذلك الغروب يستمتع وهو يصـــب لهم كئوس الويسكى فى الشرفة الخشبية ببيت الشيخ على ، فى ذلك العشاء الاخير من السمك الكبير المشوى على طريقة الحمـلان ، ليلة الرحيل الى هذا الجبل .. بينما زوجته العارية على بعد أمتار منـه تملأ ذلك الشاطىء البكر بضحكاتها الشبقة ؟!

أكان يستمتع ذلك المساء ، مثلما يستمتع الان فوق هذا الجبل المنحوس نفسه ، حين رأى ماريو المهيج ينحنى بذراعيه العاريتــين حول جسد زوجته الخاصة ، فيحتويها ويحملها تجاه البحـــر .. ويغيب بها عن عيونهم داخل الماء الساكن المشع تحت غـــــروب الصحراء السحرى . كانه فراش اسـطورى ممهد للقاء شـــهوانى عارم ؟!

كان يفكر نيكولا وهو يتأمل أيسا البدوى بينما يلقى عـــلى مستطيل النار نظرة سريعة واجفة ، ثم ينحنى فيخلع نعله ، ويشمر سراويله عن قدميه النحيلتين المعروقتين الغامقتى السمرة .. ثـــم ينهض بصدره شامخا .. ويمد قدمه .. ويخطو على النار مفتـوح العينين على الافق .. لعله وقتها كان ينظر بغريزته الصـــافية فى أغوار الزمان القديم ، فيرى النمرود يدفع بابراهيم الى النــار فيخرج

منها سالما ٠٠ أو يرى معجزة بابل القديمة ، حينما القى بخد نصر بثلاثة من رعاياه فى النار موثقين فخرجوا منها محلولى الوثاق ، لم تمس النار حتى ثيابهم ؟

لقد كان أيسا مؤمنا بحكايات الاجداد ٠٠ كما انه كان مؤمنا ايضا بما فعل ٠٠ مدركا ٠٠ بحسه الفطرى أنه لم يغتصب حق احد ٠٠ وبهذا الحس الفطرى نفسه ، أمكنه ان يوائم بجسده المدرب على المشاق المهولة ٠ مع آلام النار الجامحة ٠٠ فيجتازها ٠٠ مـــرة ٠٠ واثنتين ٠٠ وثلاثا أمام العيون المحملقة ٠٠ ثم يخرج منها سالمـــا فيجمع نعليه ٠٠ ويرتمى على الارض مادا قدميه فى وجوه الجميع ، كانه يشهدهم على براءته ٠

هل كان ذلك غريبا على احد من هؤلاء البدو الذين يدربـــون أجسادهم جيلا بعد جيل ، على التلاؤم مع النظام الضـــارى الذى تفرضه الصحراء على من يختارها مكانا لحياته ٠

أن الشيء عندهم هو الشيء ٠٠ والرجل عف اللســـان كريم متأمل ، لايمكنه أن يكـــذب أو يسرق أو يزنى ٠٠ ومن يخطىء فى واحدة من هذه الخطايا يحتقر ، وترفض البنات زواجه ، واذا دخـل مجلسا ووزعت فيه القهوة ، مد الســـاقى يده بالفنجانة موهما اياه انه يقدمها له فاذا مد يده لتناولها سكبها الساقى على الارض امتهانا لشأنه ٠٠ فينصرف عن المجلس دون ان ينطق بحرف ، وفى أغلب الاحوال يرحل عن الصحراء الى بلاد لايعرف احد فيها جنايته ٠

لقد غرست فيهم الصحراء شتى الفضائل ، فأخذوا يشهرون من هذه الفضائل سلاحا يواجهون به مخاطر حياتهم اليومية ٠ فأن مئات الخطايا الصغيرة التى نرتكبها بسهولة ويسر فى المدينة ، ضـد انفسنا وضد الآخرين ٠٠ تتراكم على قلوبنا وعقولنا ، ثم تتكثـف ضبابا يغشى عيوننا وأقدامنا فنتخبط فى الحياة كالوحوش العمياء ، فالمدينة زحام ، والزحام فوضى وتنافس وهمجية ، ولكنهـــم فى الصحراء قلة ، والخطايا الصغيرة تصبح واضحة تطارد من يرتكبها ٠٠ ويصبح ضبابها على النفس اشد كثافة وثقلا ، بينما تحتـــاج دروب الحياة فى الصحراء الى بصيرة صافية نفاذة لتجنب اخطارها ٠ أن الفضائل تمنحهم قدرة على الصفاء فيمتلكون حسا غريزيا

مشبعا بالطمأنينة ، يضيء في عقل البدوى حينما يضيع منه الطريق في رمال الصحراء الساخنة الناعمة ، فيهتدى الى طريقه ٠٠ وتجعل قلبه يدق له انذارا بالخطر وهو نائم في ليل الصحراء السحرى ، حينما يقترب من جسده عقرب أو ثعبان ٠

لقد زحف نيكولا مأخوذا من موقعه خلف الباشا خليل في الدائرة المحيطة بالنار ٠٠ وجثا الى جوار ايسا فأمسك بقدميه واحتضنهما ٠

كانتا شديدتي السخونة ، كانهما قد اختزنتا لهب الجمرات وهاهما الآن تخرجانه في صدره ، الى جوار قلبه ٠

أى أحساس شمولى قد احتواه فى تلك اللحظات الملهمة ، فمزجه بالمكان واذابه فيه ، فأخذ يهمس فى اذن ايسا المغمض العينين بنجواه وجيشانه ٠ قال له أنه يرغب أن يصعد خلفه فى الجنوب بحذاء الساحل البعيد للبحر غير المرئى ، فيعبران رأس صمادى ، ويمران بالشرم ووادى الجمال وبئر رنجة وحماطة ونكرات ويخلفان وراءهما خليج بناس الشهير ، وانقاض مدينة الاميرة برانيس ذات الاصل الزنجى ٠٠ ويجتازان بشجاعة تولد من توحدهما معا ممر الاعاصير والعواصف الرملية عند بئر الشلاتين ٠٠ فى طريقهم الى الجبل الابيض المرحوم المقدس علبه ، فيتمسح نيكولا بجبهته الاوربية على اعتابه توقيرا واجلالا ، بينما يقدمه ايسا الى جده الكبير العظيم الصخرة ٠

قال له انه يود لو يهيم معه فى حنايا تلك الجبال ودروبها فيتعرف على اقربائه القدامى ، أبناء عمومته وابناء خئولته وأصهاره ٠

يفكر في ذلك نيكولا وهو عار على قمة الدرهيب المتزلجة ، تحت شمس أغسطس الجهنمية ، وسط ديكور فج من بازلت وجرانيت وأحجار جيرية وقواقع متكلسة من مليون ألف عام ٠٠ مؤرجح هناك على صلبان عذابه وتكفيرة ، بينما يتأمل الجبال المزهوة بعريها تحت الشمس من حوله ، وقد بدأت صخورها الحمراء تشع لهبا ، بينهما صخورها السوداء أصبحت قادرة على انضاج الخبز ٠

يفكر فى هؤلاء البدو البسطاء الذين يعيشون بين هذه الجبال

يصارعون الطبيعة الام ، ويقبلون قسوتها وعطفها بخلق فطرى رائق ·· بينما يمسح بعينيه فى حنان وديع قمم تلك الجبال المغموسة فى السماء ملتهبة ومتوهجة ، فيرى بعين خياله خلفها مئات الجمال العارية المكسوة بالسحب الربيعية المنعشة وهى تتعانق برقابها وتتغازل عند الافق المتصل بالبحر ·· أو يلمح نساء البدو المحجبات من الرأس للقدم · يطفن بالاشجار المتوحدة بين هذه الجبال ، فيكرمنها ، ويقدمن لها نذور التقديس · ويعلقن فى اغصانها المسامير والخرز ، ويزينها بحبوب البقول واباريق الزيت والنقود القديمه ·· فيعاوده اليقين بأن الحياة هنا جديرة بالبشر الحقيقين الذين يكرهون المدن المليئة بالمخلوقات الهمجية المستوحشة ·

ويمتلىء بالزهو ، فيجرع من السبرتو الاحمر جرعة تملا احشاءه بالنار والخدر ، فيصرخ فى العراء منتشيا ·· لانه كان صائبا حينما قرر لنفسه البقاء ، بينما كان ماريو يقرر لنفسه الرحيل ·

ايمكنه أن ينسى أن منقذه وصديقه ايسا ، قد عبر النار ماشيا ثلاث مرات أمام عينيه ؟!





الفصل الخامس

ذات صباح قديم ، اشترى الحاج بهاء دفترا صغيرا بقـــرش وكتب فى صحيفته الاولى بالقلم الكوبيا الذى كان يبلله بلسانه بين الكلمة والكلمة : بسم الله الرحمن الرحيم وعلى بركة الله عزمنا السفر مع صاحب السعادة الخواجا انطون بك الى أدفو ، يوم الثلاثاء المبارك الموافق غرة محرم ، سنة ١٣٤٧ هجرية ، لنقابل المهندس الخواجا نيكولا بصحبة الشيخ على · ومن هناك نأخذ الجمال الى الدرهيب فى صحراء الشرق حيث يكون العمل ·

كانت الكتابة بدائية ، فالخط متباعد الاطراف مكسور الحروف والسطور صاعدة هابطة فى مسطح الصفحات ·· وهكذا فى أبسط الاشكال واكثرها ركاكة ، تتحدد المصائر وترسم النهايات ·· فلم يكن الحاج بهاء يعـــلم ، أن مصير حياة بأجمعها قد أصبح مرتبطا ومعلقا بذلك التاريخ الذى خطه بيده ·

كان الحاج بهاء فى الاصل بدويا ، انفرط جـــده من عنقود

عبادى وانحدر عبر دروب الصحراء الى حافة النيل ، فتــرك الرعى وزرع وتاجر ، وحين اراد الزواج من اقاربه فى الصـــحراء قوبل بالرفض . فالعبادية لا تقبل الزواج من رجل هرب من الصحراء الى الحضر .. وهكذا تزوج الجد العبادى من الريف ، وولد أولاده واحفاده فى صعيد النيل على خير زرعه وتجارته التى كبرت ونمت .

وقد احتفظ الحاج بهاء بعينى جده الواســعتين الجبليتين ، وانفه النحيل ذى الارنبة المميزة .. وكان جسده متناسقا يميل الى القصر ، لكنه على العموم كان وطيد البناء ، متسع الافق ، فأســتطاع ولم يبلغ الاربعين بعد أن يقيم ذلك الجسر القديم الذى انخلع بعبور جده من الصحراء المحضر ، فعاود الاتصال بأهله ، وأقاربه ، فاشترى منهم غنمهم وباع لهم زيته ودقيقه وسكره .. وافادهم بماله وخبرته .. ومن خلالهم تعرف على جبال الصحراء وماتحويه من مناجم ، وما يحتاجه عمال هذه المناجم ومهندسوها من ادوات وتموين .

وقد اعطاه واحد من اقاربه حجرا من خامة التلك عثر عليــه فى الواجهة الغربية لجبل يسمى بالدرهيب ، فذهب الحاج بهاء الى الجبل وعاينه ، واقتطع لنفسه مساحة منه ، ثم ذهب الى مصــلحة المناجم واستخرج تصريحا بالحفر ، وسجل اسبقيته فى الكشف عن هذا المنجم القديم . وقد ظل حجر التلك ملقى فى جانب من دكانه بجوار تصريح الكشف والحفر عاما ونصفا حتى جاء صاحب السعادة الخواجة انطون بك الى الصحراء باحثا عن منجم فعثر بالدرهيب .. وعلم ان الحاج بهاء قد سبقه اليه فأتصل به وأخذ يساومه .

فى ذلك الثلاثاء المبارك ، وصل صاحب السعادة الخواجــة انطون الى كوم امبو قادما من مصر ، وتوجه مباشرة الى بيت الحاج بهاء المرتفع على الهضبة وجلس الاثنان فى الباحة الخلفية المطلة على بوادر الجبال ومشارفها ..وعلى مرمى حجر منها وقف رجال الحاج يشوون خروفا صغيرا على نار الحطب ، يديرونه فيتساقط منه الدهــن فى النار فتتوهج لحظة ثم تخرج دخانا شهيا ، فيديرونه من جديد .. ومالبثوا أن قدموه أمام الاثنين الحاج والخواجة مقنطرا على هرم مــن الارز ، فأنشب فيه الحاج أصابعه وقسمه قسمين ، وضــع اطيبهما أمام الخواجة . فرمق انطون بك نصيبه بتوجس غــير ملحوظ ، ثم دار ببصره هنا وهناك كأنما يبحث عن شوكة أو سكين ، ثم مـــد

اصابعه النحيلة المترددة فاقتطع من اللحم الملتهب نسيرة صغيرة ·· أخذ يلوكها تحت أسنانه التي ينوى ان يغيرها بطاقم صناعى سليم ·· ثم بدأ الاثنان وهما يمضغان اللحم والارز ، يتكلمان عن العمل الذى كان والعمل الذى سيكون ·

قال الخواجة انطون انه قد شحن الادوات والالات والخيام ، وكمية كبيرة من الاخشاب على المركب فؤاد ·· فقال الحاج بهاء ان المركب فؤاد قد وصلت ادفو منذ يومين وانزلت شحنتها على البر · وانه يتوقع ان يكون الشيخ على قد حملها على الجمال حسب الاتفاق ، وتوجه بها ومعه العمال الى الدرهيب ·· ثم اتفقا على الرحيل الى ادفو فى الصباح المبكر للاطمئنان على كل شىء ·

وسأله الخواجة عن مشكلة الماء · فأخبره الحاج بانهم عثروا على بئر قديمة غرب الجبل مطمورة منذ سنين ، فأرسل لها الشيخ على ولد أخيه أيسا مع ثلاثة من الرجال لتسويتها وتطهيرها ، لعلها تغنيهم عن اجتلاب الماء من بئر شاذلى البعيدة ·

وقد أمضيا معا بعد العشاء ساعة شربا فيها من الشاى ثلاث دورات ، وتبادلا توقيع بعض الاوراق ، وفى الفجر ايقظ الحاج ضيفه الخواجة ، وصب على يديه الماء من ابريق فضى فى جانب من الباحة ، فغسل وجهه ، وازدرد كل منهما بيضتين ، وشربا الشاى ثم اخذا القطار الى ادفو فوصلاها والنهار لم يشرق بعد ، فوجدا نيكولا يتناول افطاره فى بوفيه الخواجة اندريكو · فقدم الحاج كلا منهما للاخر وتعارفا ·

وكان الاتفاق أن يعمل نيكولا مديرا فنيا للمنجم الجديد ·

كان الباشا المصرى خليل قد حسم المسألة فى ذلك العصر الذى بدأ مأساويا وأخذ ماريو فى جانب واعلنه انه باع ترخيص منجم السكرى لشركة فرنسية سوف تحسن استغلاله بأحدث الادوات ·· وكان ماريو عند حسن ظنه ساعة التقسيم فلم يساوم وأخذ نصيبه من الباشا مشمئزا منه ·· وقرر ان يرحل الى ساحل البحر الاحمر ليدلى بدلوه مع الباحثين عن البترول ·

وقال نيكولا انه سيبقى فى الشرق الجنوبى مع أقاربه هؤلاء ·· فضحك ماريو وهو يودعه ، وذكره بأن له نسلا فى ايطاليا ،

يجب أن يذهب اليه ٠

وقد تبادل نيكولا مع ايليا زوجته بعض الرسائل حدثته كثيرا عن ايليـــا ابنته التى أصبح عمرها الآن ست سنوات وأثمرت فى عقلها روح الفضول فبدأت تسأل عنه بالحاج ، وارسلت له صورتها فى الكازينو المظلل بالاشجار الصناعية ، وأخبرته ان حماه قد مات موتة الله ٠٠ وقال ماريو انه سيذهب أولا الى ايطاليا ثم يعـــود الى صحراء الغرب فى الربيع فأعطاه نيكولا خطـــابا كان قد كتبـــه لزوجته وحمله بعض الهدايا الاقليمية الصغيرة لايليا ابنته ٠٠ ثـم ودعه تابعا أيسا الى كوم امبو للتعرف بالحاج بهاء ٠

رحب الحـاج بنيكولا وقدمه للخواجة انطون بـك ، ثم جلس الثلاثة فى بوفية اندريكو للراحة واخبر نيكولا الحاج بان الشيخ على قد أخذ الجمال محملة بالادوات الى الدرهيب وسبقهم فى ذلك الطريق القديم ، عبر وادى الخريط ووادى خشب الى بير شاذلى ثم الدرهيب ٠٠ وقال الخواجا انطون بك أنه اشترى ســـيارة جيب للمشروع ، وعين لها ســـائقا ، فهنأ الحـــاج بهاء شريكه عـــلى تلك البادرة الحسنة ٠٠ وأبدى بعض التحفظات تجاه وعـــورة الطرق وخشونتها على السيارات ، فأسهب الخواجا انطون فى الحـديث عن العربة الجيب ٠ وأخبرهم انهم قد بدأوا يستعملونها فى الحـــرب لقدرتها على صعود الطرق الوعرة ، واختراق الغـابات ٠٠ ثم ألقى حكمة ظلت تدوى فى اذنى نيكولا بعد ذلك على مدى السنوات ، اذ قال أن على المرء ان يعطى الكثير اذا اراد ان يأخذ الكثير ٠٠ وقد بدا من حديثه انه يعلق على مشروع الدرهيب امالا كبـــارا ، لو تحققت لنفخ الرب فى صورة شركتة الصغيرة فى القاهرة لتجـــارة أدوات التجميل ، فتضم مصنعا وربما مصنعين ٠٠ لتصـــــنيع خامة التلك التى سيعطيهم اياها جبل الدرهيب العظيم ٠

وجاءت السيـــارة الجيب يقـــودها ســائق حضرى ٠٠ فوقفت جديدة مزهوة أمام بوفيه اندريكو ٠٠ وكان زهوها جـــديرا بأول سيارة تجرؤ أن تدير عجلاتها على رمال هذه الصحراء وحصـــاها لتسلك طريقها بجرأة ، عبر الدروب الملتوية والمنحوتة فى الاحجار ٠

واقترح الحاج بهاء أن يأخذوا تلك الطريق الاضمن والاطـول نوعا ، الى جبل الشلول غربا ٠٠ ثم جنوبا عند مفرق جبل مدرك ،

وعبر وادى البرامية الى جبل حفافيت ثم جبل التميمة فيطلوا على الدرهيب مع الغروب ان لم يتوقفوا فى الطريق ٠

ووافق انطون بك على الاقتراح ٠ واضاف اليه انه يرغب أن يمروا بأبى غصون ٠٠ ليعلم مدى ما وصل اليه مشروع البحث عن الالمنايت هناك ٠٠ فله فى المشروع صديق يرغب ان يلقاه ٠

وجلس انطون بك ونيكولا فى المقعد الخلفى ٠٠ بينما جلس الحاج بهاء الى جوار السائق ليدله على الطريق ٠

وحين وصلت الشمس الى مجلسها العمودى فى الافق ، فى ذلك النهار المبارك المرصود فى دفتر الحاج بهاء كانت العربة الجيب ، تتلمس طريقها بصعوبة على الاطراف الشمالية للهضبة التى تعلو وتنخفض وتدخل فى البحر ثم تنأى عنه ، فتظهره لهم حينا ، وحينا أخر تبعده وتخفيه ٠٠ ولاحت لهم على البعد مشارف ابى غصون ، فرفع جندى الحدود خشبته الطويلة التى تسد الطريق ، ثم تبادل مع السائق كلمات مضغمة لم يفهمها فأشار له على الحاج فحياه الشاويش ٠٠ وألقى له بالخبر ٠

قال فى هدوء ، ونبرة ساكنة ان الرجال قد ماتوا فى البئر ٠

ـ أية بئر ؟ ٠

سأل الحاج بدهشة ٠٠ فأجاب الشاويش :

ـ البئر القديمة غرب الدرهيب ٠

لقد اختار أيسا رجلا وأخاه وولده ٠٠ وحملوا غبيط الجمال بالماء والزاد وادوات الحفر والحبال والزنابيل ، وساروا الى الغرب الجنوبى لجبل الدرهيب مع المساء فوصلوا البئر مع الفجر ٠٠ فحطوا الرحال واخذوا يتفقدون المكان ٠٠ وامرهم أيسا فأقاموا مظلة من اغصان جافة جمعوها عبر الطريق ، ووضعوا تحتها الزاد والماء ، وأناخوا الجمال ٠٠ بينما كان أيسا يزيح الصخور على حافة البئر ، ويربط حبلا للهبوط ٠٠ وحبلا أخر علق فى نهايته الزنبيل الذى سيحمل الردم ٠٠ ودلاه داخل البئر ٠٠ واتفقوا على أن يهبط أثنان داخل البئر لرفع الردم ، ويبقى اثنان خارجه لاستقبال الردم وافراغه واعادة الزنبيل ٠

ونزل الرجل وشقيقه ٠
وبقى أيسا مع الغلام يرقبان العم وهو ينزلق على الحبل داخل البئر ، يتبعه الاب ، كأنهما قد دربا الاف المرات على الهبـــوط ٠٠
وبعد أن اختفيا فى عمق البئر البالغ عشرين مترا واســـتغرقا من الوقت ما يكفى لملء الزنبيل ، اهتز الحبل ، فجذبه أيسا بمساعدة الغلام ٠٠ وصعد الى السطح زنبيل الردم الملآن فأفرغاه ، ثم دلياه ثانية وانتظرا عودته ٠٠ لكن انتظارهما طال ٠

فمد أيسا رأسه داخل البئر فلم ير غير الظلام فنادى عـــلى الرجال فلم يسمع غير صدى الصوت ٠
هز الحبل بالاشارة المتفق عليها ، فلم يتلق اشـــــارة الرد المماثلة ٠
فأنزعج ٠٠ وقرر النزول ليعرف ماحدث ٠٠ وترك الغلام فى الخارج ٠
وقف الغلام على الحافة يرقب أيسا وهو يغيب داخل الظـلام العمودى المجوف ٠٠ لم يكن يسمع صوتا ٠٠ والشىء الوحيد الذى كان يعلن عن الحياة داخل البئر ، تلك الاحتكاكات التى يصـــنعها الحبل بالحافة اثناء نزول أيسا ٠٠ ثم توقفت هـــذه الاحتكاكات وسكن الحبل ، فعرف الغلام ان أيسا قد وصل الى القاع ٠٠ فأنتظر فترة وهو يرقب طرف الحبل الساكن عند الحافة ، بعينيه الضيقتين ٠٠ متوقعا اشارة من أيسا بالحبل ٠٠ لكن الاشارة تأخرت ، فعملها هو ٠٠ حرك الحبل يمينا ويسارا ثم تركه يسكن على الحافة وانتظر الرد ٠٠ لكن الحبل ظل ساكنا٠٠فمد رأسه داخل البئر وأخذ ينادى الاب ٠٠ فلم يرد عليه ٠٠ فاخذ ينادى العم ، فلم يرد عليـــه ٠٠ فأخذ ينادى أيسا ٠٠ فلم يرد عليه ٠

لم يرد عليه أحد ، وكان الظلام العمودى المجوف يبتلع نداءاته وينغمها ويكررها فذهبت الطمأنينة من قلبه ٠٠ واصابه جنون الخوف فأخذ يصرخ في فتحة البئر صراخا مفعما باليأس ، ومضى يجـــرى هنا وهناك حول البئر فى خبل ٠٠ يبتعد ، ثم يعود فيطل على الظـلام الذى يحتوى الرجال الثلاثة ٠٠ فى تلك الفوهة ، وينادى بأقـــوى ما تستطيعه حنجرته ، دون أن يرد عليه أحد ! ٠
جمدت حركته واقعى على نفسه عند الحافة يحدق فى الفوهة

والجبل الساكن ·· ساعة وساعتين وثلاثا ·· وحين أحس بالظلام يزحف على رمال الصحراء وصخورها نهض مفزعا ، وقد أدرك أنه قد أصبح وحده تماما فى تلك الناحية الموحشة من الجبل ·
فمضى يجرى فى وهاد الجبل واخاديده ، صاعدا هابطا وقد تشققت قدماه بينما يخترق الصخور ، ليدور حول الدرهيب ·

كان يعلم ان الشيخ على قد سار بأحمال الادوات تجاه الواجهة الشرقية للجبل ليهيىء المكان عند فتحة المنجم لاستقبال القادمين ·· وقد وصل الغلام الى خيام الشيخ على ورجاله مع الليل ·· ومن خلال لهاثه وشحوبه ، ادركوا الواقعة ·· فوضعوا للغلام طعاما وماء لم يقربهما ·· وجلسوا حوله يخمنون ما حدث للرجال فى البئر ·
قال واحد : لعل البئر مليئة بالطين ، وقد غرقوا فيها ·
فقال الغلام : أبدا ·· أول زمبيل طلع مليان ردم ناشف ·
فقال آخر : يكون البير فيه غازات خنقتهم ·
ـ يمكن ·
ـ واللا يكون فيه تعابين ·
ـ يمكن ··

وكان الشيخ على قد انطوى منكسرا ، وقد هده الخبر لحظة فتمالك ثم قرر ان يذهبوا فورا الى البئر لمعرفة ما كان ·
هبطوا دروب الدرهيب الشرقية الملتوية ·· مائلين حوله فى ظلمة الليل الشديدة البهاء متجهين الى الغرب حيث توجد البئر فوصلوها قبل الفجر بقليل ·
وجدوا الجمال على حالها تحت العشة التى أمر ايسا باقامتها ، ووجدوا الماء وطعام الرجال على حاله فى المناديل ·· ووجدوا سيف ايسا ودرعه على حافة البئر ، بينما كانت الحافة فاغرة فاها المظلم تحت هذا الفجر الصاعد على الصحراء بجبالها الساكنة ، التى لا توحى ابدا بوقوع مأساة ·· فانقبض قلب الشيخ على قبضة موخزة ·· وكأنما هو يدرك للوهلة الاولى ان هذه الفوهة اللعينة قد ابتلعت ايسا ابن اخيه الى الابد ، دون ان تترك منه سوى تلك البقايا من الحديد ·· التى كان يتسلح بها فى مواجهة الحياة ·

انحنى الشيخ على ومال مبتعدا ليخفى دموعا انفجرت دون ارادته من عينيه ·· ثم جمع نفسه فى صوت اجش وأمر الرجال

ان يضموا اليهم جمال الضحايا ، ليذهبوا الى حماطة .. فلم يكن باستطاعتهم ان يفعلوا شيئا حينذاك .

حماطه بين برانيس وأبو غصون .

هناك ينحدر الجبل مكونا سفحا ممددا الى ساحل البحر الاحمر .. سفحا يضم عددا غير قليل من التلال والوديان .

وعلى هذا السفح كشك صغير من الخشب وبرميل ماء وعسكرى شاب ، هو فقط كل مظاهر الامن المنظم والمظهر الرسمى للقانون .

وفى المنحدر أقيمت مظلة من الخشب القديم والصاج .. عشة فقيرة لكنها نعمة عظيمة فى وهج الصحراء .. وما انفعها واعظمها واغناها بقعة الظل التى تحتها . حيث يجتمع الرجال الهابطون من الجبال فيعرفون الاخبار ويتبادلون الرسائل وينتظرون القوافل ويجتمعون بشيوخ الصحراء ويتناقشون فى الملمات .

وقد وصل الشيخ على ورجاله الى هذه العشة وقد امتلأت بالعبابدة .. أقارب الرجال الذين غابوا فى البئر .. فقد انتشر الخبر فى الصحراء .

قال الرجال : شوف لك صرفه ياشيخ على .

وكان الشيخ على منطويا على فاجعته .. فقال :

لازم نبعت اشارة للقصير عشان يبعتوا وكيل النيابة يعمل تحجيج .. !

توجد محطة صغيرة للاسلكى اليدوى فى مرسى علم يملكها حرس الحدود ، يتصلون منها بالقصير على ساحل البحر ، اقرب حضر للصحراء .

وفى القصير يقيم حرس السواحل والبوليس ووكيل النيابة فى القصير يقيم القانون .

وأخرج الشيخ على ورقة كتب فيها ملخصا للحادث ، ثم طلب وكيل النيابة للتحقيق ، وطوى الورقة واعطاها لولد فى الثالثة عشرة .. ملأ الولد كيسا جلديا بالماء وربط منديله حول بعض الطعام ثم شمر جلبابه وعقده حول خاصرته ، وربط الطعام والماء على كتفه ، واحضر فرعا صغيرا من شجرة جافة فشقه من طرفه شقا

صغيرا وضع فيه الخطاب ‥ ورفع الفرع بالخطـــاب فوق رأسه كالعـــلم ٠

قال الشيخ على : لا تعوق ‥ جاعدين مستنظرين ٠
وانطلق الولد يجرى فى خط مستقيم مرتفعا ومنخفضا حتى غاب عن الانظار ٠
وعندما اختفى نظر واحد الى الشمس وبحث عن مكـــانها فى السماء ثم قال : ان شاء الله يوصل مرسى علم بالليل ٠
قال رجل : يكون بتاع اللاسلكى نام ٠
وقال آخر : ويكون وكيل النيابة نام ٠
فقال الشـيخ : يبلغوها الصبح يوم التلات ، ووكيل النيابة يوصل عندنا الضهر أو بالليل ٠

قال الرجال مستنكرين : بالليل ؟!
قال الشيخ : ادى احنا جاعدين ‥ اعمل ياولد الشاى ٠
ودخلوا بقعة الظل تحت العشة ‥ وبـــدأوا يتهيأون لهذا الانتظار الطويل ٠
وانحدرت سيارة الجيب على حصى الهضبة بينما الحاج بهـاء يمد ذراعه منها مشيرا للسائق على الطـــريق ، حتى توقفت أمام العشة فى حماطه ٠
وبجوار العجلات رأى نيكولا النار تحت كوز الشاى ، وصبيا من الابنوس ، يغسل أكوابا من الالمنيوم لها اذان مطلية بالمينا ٠
وكان الرجال الجالسون على أنفسهم داخل الظل وقد احتضن كل منهم وجهه بركبتيه قد نهضوا جميعا واقفين ، وافسحوا الطريق للشيخ على ليرحب بالقادمين ٠
وقف متماسكا يتطلع الى الخواجا انطون بك ذلك الضـــيف الجديد على الصحراء ، ولم تمنعه فاجعته من ان يقدم له مايلائمـــه من حفاوة وترحيب ‥ وسأل الحاج بهاء عما حدث فقـــال الشيخ على : أمر الله ‥ قضاء الله ٠
رددها مرتجفا محاولا أمساك انفعاله ‥ ثم مال جانبا واخفى حزنه فى الترحيب ، بينما تطوع واحد من الرجـــال للاخبـــار بالتفاصيل ٠

واقترب الغلام الابنوسي من نيكولا مقـــدما له كوبة الشاى

فرأى ايسا ماثلا أمامه فجأة في وجه الغلام ·· بهت نيكولا وامسك بالغلام من كتفيه محدقا فيه وهو يهز رأسه كأنما يجلو عينيه ·· لكن الغلام كان يحمل وجه ايسا مايزال ·

وقال الشيخ علي : هذا أبشر ، ولد ايسا البكر ·

ولم ير نيكولا أثرا واضحا للفاجعة ، في وجه الغلام ·· حتى وجوه اقارب الموتى من حوله لم ير فيها اثرا بارزا للفاجعة ·· كانت وجوههم المستقيمة الحادة ، جامدة صلبة ·· وتحت العينين ذلك الخط الوهمي الغائر الذي يوحي بالطيبة والبساطة ، بساطة ذلك النوع من البشر الذي يفطر بالشدائد ·· ويتغدى بها ·· وينام في الليل وكل حواسه عيون صاحية · !

وكانت عيونهم جميعا مواربة ·· تلك عادة الناس الذين يسكنون مساحات فارغة ممتدة تكتوى بنار الشمس ·· انهم يواربون عيونهم فتصبح درجة الابصار اكثر عمقا ، واكثر حدة وتحتمي الحدقة من الضوء الشديد ·· ويمكنهم حينذاك اخفاء الحزن الفاجع خلف هذا الخط الوهمي تحت العيون المواربة ·

كانوا على الاجمال رجالا ، يطوون في جنوبهم كل الرموز والمعاني التي تعطيها كلمة رجال هذه ·

بل ان ابشر غلام ايسا ، كان أيضا رجلا ·

وكان حزنهم جميعا متواضعا لان الموت في الصحراء عادة ·

قال نيكولا : سنأخذ أبشر معنا ·

فلم يكن قادرا على مواجهة ذلك الشعور بالفاجعة وحده ·

وانطلقت السيارة تحمل بداخلها الحاج بهاء والخواجة انطون ونيكولا الذي افسح لابشر مكانا بجواره ·· بينما وقف الشيخ على والرجال في وداعها حتى اختفت في أسفل الهضبة ونيكولا بداخلها منطويا على هذا الحدث الفاجع الذي شاءت الصحراء أن تواجهه به ·

أن تبتلع صديقه ورجلين اخرين ·· على شرف استقباله مواطنا دائما بها ·

لقد تأكد له ساعتها ، وهو يحيط ابشر الصغير بذراعه في حنو ان هذا الحدث الذي كانت الصحراء مشغولة بتدبيره بينما كان هو في ادفو يحتسي النبيذ ويأكل البتاو مع طواجن الحمام

المحشى فى بوفيه اندريكو ، سوف يلقى ظله الكئيب على اقامته ٠

وسيكون له وقع السحر فى تشكيل النفسية التى سيتعامل بها مع هذه الصحراء ٠

ورغم ذلك فقد كان متأكدا أنه لم يعد بامكانه التراجع ٠

لقد بدأ رحلته يومها من ادفو ، مرحا كرجـــل فى نزهة مع مجموعة من الرجال ٠٠ لكن الصحراء فى حماطة ، كشـــفت له عن وجهها القبيح ٠٠ فذابت خفته ٠

ومضى ينظر الى جبالها من السيارة ، فى وجل وتوقـــير ٠٠ فلم يكن بامكانه ان يستخف بها ٠





الفصل السادس

عبر هذا الزمن الطويل الذى لم يعد نيكولا يستطيع تقديره يصل الى حالة من الوجود تقترب من اللاوجود ٠٠ فعلام يتغذى ذلك الهيكل العجوز العارى ، المتوحد على قمة الدرهيب بجوار فتحة ساكنة لمنجم مهجور ، كان الى وقت قريب ينبض بحركة الحياة ٠

أى عناد يبقيه حيا بين هذه الصخور الحادة بأشكالها المغرقة فى الغرابة ، الا شعور متفرد ونادر يملؤه ويوحى له ويقنعه بأن جسده البشرى ، ذلك المكان المحدود الذى يحتوى روحه اللامحدودة قد ذاب وانتشر وامتزج عضويا فى ذلك المكان الام ٠٠ الممتد والفسيح ٠٠ فيزحف زاهدا فى الطعام ٠٠ وفى الشطرنج ٠٠ بل زاهدا ايضا فى التجول داخل شرايين الدرهيب العظيم ، تحيط به ، وكأنها سيوف مشرعة ، أسنان خامة التلك الشمعية التكوين ، باحثا عن ايليا ٠٠ صديقته الحميمة ٠٠ ابنته ٠٠ تلك التى اغلق عليها كهفا بانهيار صخرى غادر ٠

زاهدا فى كل هذا ٠٠ يزحف نيكولا بجسده الاوروبى العارى

الذى لفحته شمس الصحراء فأحالته الى لون البن المحروق ، مصطحبا ما بقى فى زجاجة السبرتو الاحمر ٠٠ متسلقا الصخور ودائرا حولها ، تاركا الشرق خلفه ، زاحفا الى الغرب ٠٠ فيصل والشمس فى قلب السماء ، الى حيث توجد البئر القديمة ٠٠ المهجورة ٠٠ فيتوقف يلهث ٠٠ وقد سال العرق الغزير على جسده العارى ، حبالا مضفورة بما استوعبه من تراب ٠٠ ويتأمل المكان الساكن كأنه مقبرة اثرية ٠٠ ويلقى بعينيه المنكسرتين تحت جفونه البيضاء فى فوهة البئر الساكنة ٠٠ فينكر عليها سكونها ٠

من ذا يصدق الآن ان ايسا قد هبط هذه الفوهة بارادته ليخرج لهم الماء ٠٠ فلم يخرج ايسا ولم يخرج الماء ٠

من ذا يستطيع ان ينكر عليه ان ايسا لايزال هنا ٠

بأى شكل من الاشكال موجود هنا ٠

ويقعى نيكولا على الحافة منكسرا لحظة ، ثم يجرع من السبرتو الاحمر جرعه نارية ، ويهدر فى فتحة البئر المهجور مناديا ايسا ٠٠ ساديا باقوى ما تملكه الحنجرة من طاقة وجهد ٠٠ لكن ايسا لا يجيب ٠٠ فينزوى نيكولا ويلتوى على نفسه ٠

ليتك بقيت فى أبو غصون تتسلى باصطياد الاستاكوزا مع صاحب السعادة انطون بك ٠

ليتك لم تقرر والصغير أبشر يرمقك بعينيه الرجوليتين ، أن تذهب معهم الى البئر ، فى ذلك الوداع الاخير ٠

كانت الشمس اللاهبة قد اشعلت النار فى حديد السيارة الجيب ٠٠ نارا اذابتهم وجعلتهم كتلا من الدهن لا أثر للنشاط العقلى فيها ٠٠ وفجأة انعطف السائق بالسيارة يمينا ثم يسارا ٠٠ وانبعث من تحت العجلات التى احتكت بالارض الصخرية صوت مكتوم ٠٠ كأن شيئا قد تحطم ٠٠ وأعلن السائق بفخر انه قد قتل ثعبانا ٠٠ ثم اوقف السيارة ونزل منها يفحص العجلات ويتأكد من سلامتها فانتهزها الحاج بهاء فرصة ليفرد جسده وغادر السيارة ٠٠ فتبعه نيكولا ٠٠ والشيخ على ٠٠ وبقى الرجال اقارب الضحايا مكدسين فى صندوق المؤخرة ٠

وانحنى الشيخ على ودقق النظر تحت عجلة السيارة وأعلن أن السائق قتل طريشة ، وليس ثعبانا عاديا ٠٠ فاحتفى الرجال فى

مؤخرة السيارة بالسائق ٠٠ فعلى رمال الصحراء وبين صخورها تزحف آلاف الأفاعى ٠٠ نوع يبخ السم ٠٠ ونوع يغرسه بأنيابه ٠٠ والطريشة من النوع الآخر ٠٠ وأخذ الرجال يتبادلون الحكايات عن رجال قطعوا أعضاءهم بسيوفهم وخنابرهم لان الطريشة قد هبشتها ٠٠ فلا علاج أبدا لسم الطريشة بغير القطع ، بغير التخلص من العضو المسموم ٠٠ التنازل عن العضو ٠٠ أو التنازل عن الحياة كلها ٠

وحينما تأكد السائق من سلامة العجلات عاد الى السيارة ٠ فعادوا جميعا اليها ٠

كم ساعة ساروا وكم ساعة بقيت حتى يصلوا الى غايتهم ٠٠ لم يكن نيكولا يستطيع التقدير ٠٠ كان واجما ولاحظ أن السائق مستغرق تماما كما لو انه قد أصبح قطعة من حديد السيارة ٠٠ وكان واضحا أن الطريق تسحبه من عجلاته ٠ وانه لا يملك سوى الطاعة والاستسلام ٠٠ فليس عليه سوى أن يتبع الماركة التى مهدتها آلاف الاقدام للبشر والجمال الذين عبروا هذا الطريق من قبل ٠٠ وخيل لنيكولا أن الطريق من وجهة نظر السائق يبدو مائلا ، وأنه ينزلق عليه ، وان هذا يسبب له اللذة ٠٠ وكأنه نائم يحلم ٠٠ لكن وجهه سرعان مايربد ويقلق وتنتبه عيناه ٠٠ حينما تضيع الماركة ٠ ٠ أو تبدو باهتة فى مكان ٠٠ حينما ينظر أمامه فيجد الارض منبسطة فسيحة ٠٠ جديدة كأنما لم تمسها من قبل قدم انسان ٠٠ صامتة لكنها مشحونة بالخطر فى داخلها ٠٠ وابسط اخطارها أن ينطلق فى أرض رخوة ، وتغوص سيارته فى بحر من الرمال ٠٠ وسمع نيكولا الشيخ على يحذر السائق عند مفترق ماركتين ، ويهديه الى احداهما ٠٠ وسمع السائق يعطى لابشر وعدا بأن يعلمه قيادة السيارة ، لو قدر له البقاء فى الصحراء ٠٠ وسمع حديث الحاج بهاء عن الاستاكوزا التى يصيدها الخواجة أنطون فى أبى غصون ٠

لكنه كان غائبا رغم ذلك ٠٠ كأنما روحه قد انشطرت نصفين ٠٠ وكانت صورة ايسا دائما طافية فوق كل الصور ٠

وهبطت بهم السيارة واديا حفرته السيول ٠٠ ومن بعيد لاح لهم الدرهيب جاثما فى مواجهتهم كظل هائل يمد جناحيه الهلاليتين فيحتضن بهما الوادى العظيم الذى يعبرانه اليه ٠٠ ولم تكن ملامحه قد ظهرت لهم بعد رغم الضوء الجارح الذى تلقيه عليه الشمس من السماء البيضاء ٠

ورأى نيكولا على الصخور ظلال الرجال داخل صندوق السيارة وهم يمدون رءوسهم خارجها ·· وسمع ضجة تساءل الشيخ عن سببها فرد رجل من الخلف بان الرجال المكلفين بالانتظار جوار البئر قادمون ·· فدهش الشيخ على ، ومد بصره محدقا ، حتى لمح شبحين قادمين على السفح ·· لا فرق بينهما وبين صخوره ·

كانا يلهثان كأنما الاشباح تطاردهما ، وعندما توقفت السيارة بجوارهما تهالكا عليها وقال أحدهما : الثعابين يا شيخ على ·· الثعابين والطريشات نازلة طالعه من البير زى يوم الحشر ·· ولا فيه فتفوتة أرض الواحد يحط فيها رجليه ·· كل الارض حوالين البير غطتها الثعابين ·

وكانت رائحة عفنة قد بدأت تلفح انوفهم داخل السيارة ·· فتمتم الشيخ مستعيذا بالله ·· وأمر السائق بمواصلة السير الى البئر ·

وجدوا السفح مغطى بحبال غليظة طويلة مختلفة الاحجام ، تلتف وتدور وتتحرك مندفعة للامام ·· عشرات من الحبال السوداء والصفراء والمرقطة ·· أهاجتها رائحة العفن الصادرة من البئر ، فخرجت من بيوتها بين الصخور متجهة اليها ·

ولم يستطيعوا أن يروا فوهة البئر ·· مثل قبائل النمل كانت الثعابين قد غطت الحافة وأخذت تصعد منه وتهبط فيه ·

وبدا السفح لنيكولا كبحر خرافى والثعابين أمواج فشعر بدوار ·

كانت الحركة الملتفة الدائبة قد بهرته ، واكتشف خلالها الى أى مدى هو واهى البنيان فى مواجهة تلك الصحراء الوحشية ، بقوانينها وتقاليدها ، حيث يهون الموت ، وتعالج الامراض بنبات الارض ، ويختفى الخجل ، وتصبح المباشرة هى الاسلوب الصحيح ·

لقد أزعج موتور السيارة تلك الثعابين ، فأرهفت رءوسها تتسمع وسكنت حركتها حينا ما ، فأنحدر السائق فى سرعة وأخذ يدور بالعربة يسارا ، ثم يرتد ويدور يمينا ·· وكأنه يطارد الثعابين بالعجلات ·· فبدأت تتقلص وتتلوى على نفسها وتندفع مبتعدة عن المكان ·· حتى خلا السفح منها ، كأنما ابتلعها الجبل ·· ولم يبق منها سوى الجرحى ، تجرر ذيولها المكسورة وهى تفح منسحبة خلف الصخور ·· فتوقفت السيارة وتهيأ الرجال لمغادرتها فأسرع الشيخ على يحذرهم ، فالثعبان الجريح أشد خطرا من الصحيح ·

واتفق الرأى على أن يكتفوا بالقاء صفيحة ماء فى البئر لتطهير الموتى ٠٠ ويؤدوا عليهم الصلاة ويعودوا ٠٠ فهبط الرجال بصفيحة الماء وساروا الى الحافة وهم يطوحون رءوسهم يمينا ويسارا بحذر ٠٠ وعند فوهة البئر بسملوا وقرأوا الشهادتين والقوا بالماء فى البئر ٠٠ وغطوا الفوهة بقطعة كبيرة من الصاج أثقلوها بصـــخرة ٠٠ ووقف الشيخ على اماما واصـــطف الرجال خلفه ٠٠ يقرأون الفاتحة وهم يتلفتون حولهم خشية أن يتسرب بين أقدامهم ثعبان ! ؛

أية سكينة كان ينعم بها الموتى فى مقرهم الاخير داخل البئر ، تاركين الفزع والرعب لهؤلاء الاحياء الذين كانوا يدركون بشـــاعة نهايتهم ويصلون لارواحهم ؟ ٠

كانت الشمس تغرب على الســـفح الغربى للدرهيب ، فتكسر اشعاعاتها الحمراء على صـــخوره الزرقاء ، فتنبعث منها كل ألوان الطيف ٠

وفى هذا الجو الاسطورى ٠٠ فى تلك البقعة المنعزلة ٠٠ تذكر نيكولا ما كان يقوله ايسا ٠٠ وخيل له أن دماء الرجال الذين ابتلعتهم البئر ، قد نشرت لونها فى الصحراء وصبغت كل شيء ٠

فكأن الطبيعة كانت رغم ذلك حزينة على الضحايا ٠

وما أروعه من حزن ذلك الذى كانت تفوح رائحته فى الارض والسماء والجبال ٠

وحين خرجت الســـيارة من بقعة الظل التى منحها لهم جانب الدرهيب الغربى ، بينما هى صاعدة الى الشرق ٠٠ كانت الكآبة قد أذابت حيوية الجميع ، فدخل كل منهم فى البئر الخاصة به ، وأخذ يهبط ويهبط داخل نفسه ٠٠ واصبح ســـكون كل منهم وطيدا فى علاقته بســـكون الجبل ، وسكون السماء ٠٠ وصارت الســيارة الحديدية هى الحى الوحيد المتحرك فى ذلك السكون كله ٠

ورأى نيكولا أن هنـــاك قرابة خفية بين كل الكائنـــات ٠٠ الشمس المسلطة على مشرق الجبل ٠٠ الجبل الرابض تحت الشمس ممتدا بجذوره الصخرية العتيقة فى حافة الوادى الذى خلفوه وراءهم منذ ساعات ٠٠ الارض الرملية والارض الصخرية فى البقعة المحيطة بفوهة البئر الشاكنة ٠٠ بل البئر ذاتها ٠٠ وصور أخرى لصـــخور مفعمة بالنباتات الخريفية اللون الحادة التكوين ٠٠ الشبيهة بشظايا الصخور ٠

كل ما على الارض ممتد فى الارض ·· وهو خارج منها وعائد اليها لامحالة ·

كل ما على الارض دائم التحول والتبدل والتغيير ·

هل أنت يانيكولا من كنت من قبل ؟

تحت أقدام الجبل المرحوم علبة ، وقفتما خاشعين أنت وايسا أمام جده المقدس الصخرة ·· وقدمك له كصديق ·· وكنت خائفا والشمس تلهب ظهريكما بينما أنت معلق العينين بالوهج المرتد عن حواف المغارة العليا حيث يوجد كوكالوانكا ·· لكن خوفك كان ينزاح كلما احتواك ايسا بابتسامته البدوية الصافية ·· وحين دلفت الكباش البيضاء الى اشجارها الكثيفة فى الوديان العليا المزهرة فوق الجبل المرحوم ·· وبدأ وهج الشمس يسقط بعيدا متراخى الاطراف خلف الافق ·· اعطاك ايسا من زاده ، وقادك من يدك الى صخرة مشرفة على السماء التى بدأت صفحتها تكتسى بالرمادى والفضى احتفاء بالنجوم ·· وأخذ يعطيك من عقله أيضا ، فأخبرك أن القيظ عندهم هو الصيف ، والخريف سجيج ، أما الشتاء فهوالخمة ·· قعود لا عمل فيه لأن السيول تهدر الماركات وتغير معالم الوديان وتحرك الصخور وتهيلها ·

ورفع عينيك الى السماء وأخذ يعلمك اسرار نجومها ·· تلك الاسرار التى اقتنصها هو وأجداده من تأملهم الطويل فى تلك النجوم ومراقبتها آلاف الاعوام ·· وبصوته الخافت والمهموس قال ان الثريا تطلع أول الصيف قبل الفجر ، وبعد ذلك بأربع عشرة ليلة ، تطلع البربارة ·· وبعدها بخمس وعشرين ليلة يطلع السماكان والمرزم · وتطلع كلها فى صف من الشرق ·· واحدا وراء الآخر ·· وبعد طلوع البربارة بأربع عشرة ليلة أيضا ، يطلع النجم سهيل من الجنوب ايذانا ببدء السجيج ·· وتدوم هذه الانجم فى الفلك عشرة أشهر قمرية ، وعشرين يوما ، الى أن ينتهى الربيع ثم تبدأ فى الغياب الواحد بعد الآخر ·· فتغيب أربعين يوما ، ثم تعود للظهور من جديد والثريا فى المقدمة ·· وهكذا يمكنك أن تعرف الفصول وتتوقع الاجواء وتقدر الحول بعد الحول ·

أخبرك بذلك النظام الدقيق لظهور النجوم واختفائها ، لكنه لم يخبرك بشىء عن ظهور البشر واختفائهم ·

لقد ظلت نفسك وديعة آمنة فى رحاب حفاوته ، وكنت عاطفيا

كطفل . لم تصقلك صولاتك وجولاتك كمهاجر أمضى صباه فى الترحال .. فظللت محتفظا بقدرتك على الاندهاش لكن هاهو يختفى من جوارك فجأة .. اختفاء لاعودة منه .. فما بالك ساكنا لاتنبض بالدهشة وكأنما قد انكسر بداخلك شيء ؟!

لقد أطل نيكولا على باحة المنجم حين وصلوه ذلك اليوم دون بهجة .. وكان جديرا به أن يقيم الافراح داخل نفسه بالمكان الجديد .. لكن روحه كانت مهيأة لدخول المكان الجديد فى صحبة ايسا .. لقد كان ايسا بديلا لماريو .. كما كان ماريو بديلا لأمرأتيه الصديقتين التى تسمى كل منهما ايليا .
والآن هاهو قد أضاع الجميع وصار وحيدا .

وكان رجال الشيخ على قد نصبوا الخيام فى الباحة .. خيمة كبيرة للعمال فى المؤخرة بجوار خيمة الفضلات .. وخيمة المخزن والمطبخ .. وثلاث خيام صغيرة فى المقدمة ، لنيكولا المدير ولصاحب السعادة انطون بك ، وللحاج بهاء مع الشيخ على الذى لم يكن ينوى البقاء كثيرا .. وكان الحاج بهاء قد اشترى فى الطريق ثلاثة حملان من راع عابر ، اهداه فوقها كيسا للماء من جلد الشاه .. فأمر الرجال أن يقودوا الحملان الى فتحة المنجم لذبحها طلبا للبركة ، فوقف الرجال على باب المغارة يبسملون ويكبرون ويقرأون الفاتحة ، طالبين لأنفسهم من الله اصلاح الاحوال ، وطالبين لصاحب السعادة الخواجة انطون والحاج بهاء دوام العز والجاه .. أما نيكولا فلم يطلبوا له شيئا .

كان قد بدا كأنما قد تلبسته فجأة شياطين العمل ، بينما كانت دماء الحملان الوديعة القانية ، تسيل غزيرة على صخور الفوهة الجانبية الفاغرة التى تؤدى الى أحشاء الجبل الداخلية .. كان نيكولا قد جمع ثلاثة رجال وأمرهم بتنظيف الباحة ، فانحنوا على الارض ينتقون منها الفضلات القديمة .. فأزالوا الصخور الصغيرة وأزاحوا الكبيرة على الحواف فى شبه دائرة .. ونيكولا فوق رءوسهم المنحنية يشير هنا وهناك .. ثم سار بهم بعد أن انتهوا من الباحة الدائرية ، فمهدوا الطريق الى فتحة المغارة وكانت الخراف قد اسالت كل دمائها على الصخور فداء وبركة .. فحملها الرجال خلف الخيام وانهمكوا فى شقها وتقطيعها وغسلها بالقليل من الماء .. ثم اشعلوا تحتها النار ، وبينما كان الخواجة انطون والحاج بهاء يستريحان حتى ينضج

الطعام .. أشعل نيكولا مصباحي كربون ، وطلب من الشيخ علي أن يرافقه ليهبطوا داخل المغارة .

كانت الفتحة ممتدة نوعا كأنهما يدخلان كهفا ، وكان المدخل وعرا ، فأمر نيكولا رجال الشيخ علي بتسويته وواصلا الدخول بينما مشاعل الكربون في يد كل منهما تعكس ظليهما على جدران المغارة ، كأشباح طويلة لها ذؤابات تتقوس حسب الضوء على الجدران الصخرية المقوسة .. وانتهى بهما السير الى فجوة عميقة هابطة ، فمال الشيخ علي وتحسس حافتها ثم أعلن ان السلم الحديدي مايزال موجودا .

لم يكن المنجم بكرا .. فاختبر نيكولا ذلك المعبر القديم الذي خلفه وراءهم أسلافه من المعدنين القدامى ومد قدمه رافضا أن يسبقه الشيخ علي في النزول .

مائة متر أو مائة وخمسين ظل السلم يهبط في شبه بئر .. حتى استوى بهما علي أرض ممهدة اشبه بفناء بيت ، تمتد منه على الجانبين أنفاق قديمة وممرات .. ورفع نيكولا مصباح الكربون الى جدران الانفاق باحثا عن الخامة ، ومشى مضيئا الحوائط من ناحية يتبعه الشيخ علي من الناحية الاخرى ، فلم يريا من خامة التلك سوى آثارها .. فضلات الاسلاف القدامى .. وانتهت بهم الطبقة الاولى الى لا شيء .. وواجهما فجوة اخرى عميقة ، ماتزال تحتوى سلمها الحديدي أيضا .. فواصلا الهبوط الى ثلاثمائة متر استطاع الشيخ علي أن يحسبها وهو يحصى مقابض السلم الحديدي أثناء الهبوط .. ووقفا امام الطبقة الثانية من الانفاق والممرات .. ورفعا مصباحي الكربون الى الحوائط ، كل في ناحيته .. بحثا عن الخامة .

نسى نيكولا نفسه .. ونسى الشيخ علي الذي يصاحبه ، وكان قد نسى الخواجه انطون والحاج بهاء والحملان التي تدور فوق النار خلف الخيام .. وانغمر بكل حواسه في اكتشاف هذا العالم الجديد الذي سيكون عالمه .. كان يتحسس الجدران بشغف لم يحدث له أبدا حينما كان يتحسس بأنامله وجنتي ايليا ، ابنته ، الموردتين .

كانت ايليا الكبرى تقول أنه متوحش فردي لا يحب الاطفال وكان هو واثقا أن الامر ليس كذلك ، وأنه هو شخصيا يحب الاطفال أكثر مما تحبهم هي .

وكانت ايليا الكبرى تقول أنه جاف القلب ، جامد الشعور ، وربما غير قادر على أن يعطي الحب أصلا .. ناسية هي انها اخذته

على غرة ٠٠ فاعطته جسدها وأعطته أحلامها وطموحها ٠٠ بل أعطته أيضا زوجة وابنة ٠٠ دون أن تترك له الفرصة ليختار بنفسه شيئا ٠٠ بينما لم يكن يطلب وقتها سوى عمل يعيش منه !

ألم تقع فى حب ايسا يانيكولا ؟ ٠٠ ألم يحدث لك ذلك عبر هذه الصحراء المترامية وانت تخوض وتكتشف الصحراء فى نفس الوقت ؟

لقد كان ايســـا بديلا لماريو ٠٠ وكان ماريو بديلا لامرأتيك الصديقتين ٠٠ فهل يكون حزنك الكظيم هذا ، حزنا على الجميع ؟ ٠

أفلا يؤكد هذا قدرتك على عطاء الحب والشعور به ؟

لقد أخذت منك الطبيعة ايسا غدرا ٠٠

كشفت لك عن وجهها القبيح فأصبحت وحيدا ٠٠ واصبحت مطالبا بأن تكون قويا على مستوى تلك الوحدة ٠

بل انك ها هنا مسئول ايضا ٠٠

تلك أنفاق لا نهاية لها تمتد فى قلب هذا الجبـــل كالشرايين عليك أن تقود الرجال القابعين الآن حول الشواء على سطح الجبل ، خلالها ٠٠ وتعلمهم كيف يزيحونها من طريقهم بما تحويه من خير وشر ، مثلها مثل الطبيعة الام ٠٠ فينحون الشر جانبا ، ويقبضون على الخير ٠٠ بينكم وبين الخير مشقة واهوال يا نيكولا ٠٠ فلم يبق أسلافك فى هذه الانفاق ســـوى صخور حادة وأتربة متخلفة عن الانهيارات وسنادات خشبية قديمة يجب تغييرها وعليك منذ الآن أن ترتب نفسك على اقتحام هذا كله والغــوص وراءه ٠٠ بحثا عن الخامة الحقيقية واستخراجها ٠

كان يتحسس صخور السرداب بشغف لم يحدث له أبدا حينما كان يتحسس بأنامله وجنتى ايليا ٠٠ بينما كان مشعل الكربون فى يد الشيخ على يلقى بضوئه المهتز على جسده المشـــوق والمنحنى ، ويعكس منه على الحواف الدائريه للسرداب ظلالا طويلة ومقوسة ٠

وربت الشيخ بأصابعه النحيلة المعروقة على كتفه واقتــــرح أن يكتفيا بهذا القدر ليصعدا للطعام ٠٠ وكانا قد أدركا نهاية الممرات فى الطبقة الثانيـــة ولم يجدا أثرا للخام ٠٠ وقال نيكولا وهمـــا يصعدان السلالم القديمة الى سطح الجبل ، ان عليهم أن ينشـــئوا طبقة ثالثة ، بعمق مائة وخمســـين مترا أخرى ، وربما مائتين ٠٠ فالتلك مايزال موجودا داخل الجبل ، لكنه ممتد جانبيا فى الاعمـــاق

السفلى ٠٠ وقال الشيخ على ان الاسلاف القدامى توقفوا عن الاستمرار حينما عجزوا عن الوصول الى تلك الاعماق ٠٠ فأكد نيكولا للشيخ أنه يتحتم عليهم أن يصلوا الى مالم يصل اليه هؤلاء الاسلاف ٠٠ فتلك شريعة التقدم ٠٠ وكان الرجال قد أقاموا على سفح الباحة أمام الخيام سماطا دائريا جلس الجميع حوله ٠٠ ينتظرون انضمام نيكولا والشيخ اليهم ٠

صعد نيكولا من المغارة وانضم الى السماط الممدود مقتصدا فى ابتساماته ، يغلب عليه الوجوم ٠٠ ذلك الوجوم الذى غطى محياه على مدى السنوات الطويلة التى تلت ذلك ٠

ورأى أنطون بك يجلس متربعا على الوبر المفروش فى الارض أمام السماط بجوار الحاج بهاء ، يحاول أن يكون ظريفا ومقبولا لهؤلاء الذين سيعملون معه ٠٠ هل تطمع يا نيكولا أن يكون مختلفا فى كثير أو قليل عن ذلك الباشا المصرى خليل ؟ ٠٠ الديك شك فى أنه الآن يتلمظ من الداخل ماضغا احلامه المحمومة على تلال التلك الشاهقة البياض ٠٠ التى ستحملها الجمال من المغارة الى البحر ، وتحملها المراكب من البحر الى مصنعه الصغير فى مدينة القاهرة ٠٠ فيكبر المصنع ويتضخم ٠٠ ويكبر بالتالى ويتضخم ذلك الخواجة أنطون بك ؟

وذلك الاخير ٠٠ العبادى الاصل ، الحاج بهاء ٠٠ اليس مضموما هو الآخر على أطماعه الخاصة فى الكسب المادى أولا ، وفى التضخم المعنوى بين أقاربه هؤلاء الذين غادرهم جده القديم مهاجرا الى الحضر ، ففقد احترامه البدوى كما فقد انتماءه للاصل والجذور ، أليس راغبا ذلك الحفيد أن يعود الى قبيلته السابقة غازيا ؟

ومن منهم سيبقى هنا ؟

سيرحل أنطون بك الى القاهرة ٠٠ تلك العاصمة المشهورة التى وعدك بأن يدعوك لزيارتها مع أول شحنة من التلك يخرجها المنجم ٠

وسيرحل الحاج بهاء الى تجارته وزراعته فى ادفو وكوم امبو ٠

حتى الشيخ على سيواصل الترحال بين جبال الصحراء ٠

وستبقى وحدك ٠٠ مع هؤلاء الرجال الذين سيقع على كاهلهم عبء استخراج التلك من المغارات ٠

هؤلاء الرجال الذين كان المرحوم ايسا يرى دماءهم القانية تطفح على سفوح الجبال ساعة الغروب ، فتظللها باللون الدموى ٠

الفصـــل السابع

للشيخ على حكمة بالغة يلقى بها بروية على حصى الصـــحراء كلما عبر برجل عارى المؤخرة ملتو على نفسه يعصرها لاخراج فضلاته .. يقول ناصحا .. اضبط نفسك .. يازول اضبط نفســك .. مهد الارض واحفر ثقبا تصوب اليه واضبط نفسك !

ذلك العجوز الضامر ، كشجرة صحراوية جافة وشـــامخة يعرف كيف يخلط المزاح بالجد ، ويشـق طريقه مارقا بوضـوح بين الدروب .

سيكون ايقونتك يا نيقولا ، ذلك الشيخ على ، بعينه الواحدة التى يستطيع أن يكشف بها من خفايا الصـــحراء آلاف الاشـياء والعلاقات التى تخفى على عينيك الاثنتين .. فها هو عبر هـذا الزمن الحافل الذى عاشه منذ كان طفلا يحبو خلف الحملان الصـغيرة وراء الخيش فى ظلال الجبال مع الرعاة .. الى أن غدا شابا يروح ويجىء مع قوافل الجمال المرسلة للبيع فى سوق كردفان .. ما يزال ضابطا نفسه .. أليس حزنه أكثر جدارة من حزنك .. وايسـا ابن اخيه زوج ابنته .. وابشر اليتيم حفيده .

لقد استطاع هذا العجوز على كبر حصيف وعقل مجرب ثاقب أن يكون جسرا ومعبرا بين الحضر والبدو ٠

أليس هو أكبر الادلاء واقدمهم خبرة ، ذلك الذى تخطى خيام الجيش الى ابواب الصحراء ومداخلها ليستقبل المغامرين الافرنج وشركاءهم من اصحاب المال المصريين ، ويقود خطاهم عبر هذه الجبال ، ويضع اصابعهم الحمراء على خاماتها واحدة بعد الاخرى ٠٠ مغمضا عينه الواحدة عن رجفة الطمع فى عيون الاجانب ٠

هل كان ساذجا وهو يفعل ذلك ، أم كان أكثر الجميع حكمة ؟

لقد أدرك العجوز أن الجبال على حالها منذ القدم ، وأقاربه على حالهم منذ القدم ، ولن تفتح الكنوز على ايديهم ابدا ٠٠ فلابد لمن يحمل التميمة ان يجىء ويفك رموز الطلسم ويفض الاختام ٠٠ ويقتل الوحش ، ويفتح ابواب الكنز للجميع ٠٠ سيكون له نصيب الاسد فى البدء أى نعم ٠٠ وبعدها يبدأ الفيض يعم ٠

هؤلاء الاجانب يملكون المعرفة ، والخبرة ، ويملكون من السلطات ما يجعلهم يشيرون بأصابعهم تجاه الحضر فتجىء السفن وتجىء اللوريات محملة بما لم تره فى الصحراء عين ، أو تسمع به اذن ٠٠ ادوات وآلات ومشاريب وأطعمة وكساوى ٠٠ فيض غامر يتحرك الى الصحراء ويتسرب على جبالها حيث يقيم هؤلاء الاجانب ، ويسيل على الحواف حيث يقيم البدو فيتعلمون منه أو يعلمون به ٠٠ ان لم يزد عن ذلك النصيب ٠

لقد رفض البشاريون هؤلاء الغرباء رفضا رومانتيكيا أقرب لرفض النعام ٠٠ فيدير البشارى رأسه تجاه الفضاء اذا رأى واحدا منهم ، حتى لا يراه ٠٠ مما جعل هؤلاء الغرباء يستقدمون العمال من ريف الجنوب ٠

أما ايسا فكان ثائرا غضا ٠٠ مالت نفسه الجامحة الى مقاومة هؤلاء الغرباء لأول وهلة وكان ذلك خطأ ثانيا ٠٠ فلو انصرف الغرباء عن الجبل نتيجة مقاومة البدو لهم ومناوأتهم لمشروعاتهم ٠٠ فسيبقى الجبل على حاله وسيبقى البدو على حالهم ، مئات السنين الاخرى ، فلن تعلمهم الرحلة من وادى الجمال الى سوق كردفان شيئا يذكر ٠

وهكذا قرر الشيخ على أن يغرس فى صخور الدرهيب شتلة كاملة للتقدم ٠٠ لقد حاول فى مناجم النخيرة والفواخير وحماطة أن

يغرس بذرة ٠٠ فوضع مع الغرباء في كل منجم منها بشـــاريا أو عباديا ، جمعه بالحيلة مرة ، وبالوعد أو الوعيد مرات أخرى ٠٠ حتى خلصه من أسر العرف والعادة ، والقى به فى خيام الصـــفيح التى كانت تؤرق ايسا فى منامه وتشعل رؤاه ، ليتعلموا عن صنعة التعدين شيئا ٠

فبدون تعلم الصنعة ، لايمكن أن تكون لهذه الجبال قيمة ٠

وهاهو العجوز الماكر يجمع هذا النبت الاخضر النامى فى تلك المناجم الاولى ليكون منه شتلة واحدة يغرســـها فى الدرهيب لتنبت الشجرة ٠

هل يحلم الرجل بأن يمتلك معارف هؤلاء الاجانب قطرة قطرة مهما طال الزمن ، خلال تلك البذور التى يلقى بها بينهم فى المناجم ؟

لقد أخذ نيكولا يحدق من خلال وجومه الى سماط العمال القائم غير قريب من سماطهم ٠٠ سبعة رجال مختلفين تماما عن رجال الريف الذين جاء بهم الباشا المصرى خليل للعمل فى السكرى ٠٠ يبدون كهؤلاء الذين اعتاد العبور بهم فى رحلاته القصيرة حول جبل السكرى أو كهؤلاء الشامخى الانوف المترفعين بأسمالهم وفقر اجســـــامهم ، المتلئين بالشعور بالغنى الفاحش لاندماجهم فى الطبيعة ٠٠ كأنهم آلهة قديمة غير مدربة ٠٠ تبدو فجة وجاهلة ، ولكن تفوح منها عظمة الآلهة ٠٠ بينما جلس الشيخ الى سماطهم ، يدس لهم مع الطعـام أوامره ونصائحه ، العم اوشيك العجوز نوعا ، ســـيقيم على المدخل السفلى للدرب المؤدى الى الباحة ، خصا من الصفائح والاخشـــاب ويبقى فيه للحراسة ٠٠ سيكون غفيرا ٠٠ وعبدربه كريشاب سيعمل فى التحميل والوزن لأن عمله الاســـاسى ســـيكون تموين المنجم بالاسماك ٠٠ ثلاث مرات فى الاسبوع عليه أن يغادر المنجم ليلا حين يأوى الجميع للنوم ، حاملا حرابه وشباكه ، فيأخذ جملا يفضى به بعد ساعتين أو ثلاث الى أطراف خليج بناس الشهير ٠٠ يحط رحاله جوار الماء قبل الفجر ، فيجهز حرابه ويتسلل بقدميه العاريتين فى الماء دون حس ٠٠ متربصا للاسماك الكبيرة التى يغريها الظلام المضىء بالتسرب الى الحواف الرمليـــة القليلة العمق لتلتهم فرائســـها من الاسماك المتوسطة والصغيرة ٠

هاك عبد ربه يا نيكولا ٠٠ حاملا بذور المأساة فى دخيلة نفسه،

سليل قبيلة الكريشاب القديمة ، حاملة تقاليد الفراعنة فى صيد الاسماك بالقضبان والحراب القصيرة ، يعيشون على حواف الصحراء البحرية ، يأكلون من رزق البحر .. يشقون الاسماك ويجففونها على شمس الصحراء وهوائها ، ثم يرحلون بها الى الاخصاص بين الجبال لمبادلتها بالشعير .. حتى جمالهم دربت بطول الزمان على هضم الاسماك الصغيرة الجافة والتغذى بها .

هاك عبد ربه كريشاب يا نيكولا يتطلع كأنما ينتخبك من بين الموجودين جميعا ليخصك بعواطفه ومأساته .. ألم يبدأ فى ذلك اليوم بوعده أن يأتى لك بكومة هائلة من الاستاكوزا التى سمعت عنها فى الصحراء كثيرا ، ولم تتذوقها بعد ! .

والباقون .. خمسة .. سيعملون معك فى الانفاق .. هاهو الشيخ على يوصيهم بك .. يعدهم ليكونوا الورثة الشرعيين لهذه الجبال وكنوزها بعد أن يأخذ الغرباء نصيبهم ويرحلوا .

لقد استهوتك يا نيكولا قدرة هذا العجوز على الصبر ، وايمانه بأن الزمن فى صفه .

ولعلك منذ تلك اللحظة على سماط الحملان المشوية قررت أن تأخذ جانبه .. فما الخواجه انطون بك غير طارىء عابر ، ينتمى لمصنعه الصغير فى المدينة ولأملاكه وعلاقاته بها .. وما الحاج بهاء بأقل منه اخلاصا لثروته فى ادفو وكوم أمبو .. أما انت فلا تنتمى لشىء .

ولن يفيدك أبدا أن تظل واقفا بين بين .. فاضبط نفسك .

على حد قول الشيخ على .. مهد الارض واحفر ثقبا تصوب اليه ، واضبط نفسك .

ولتكن مغارة هذا الجبل مجال تصويبك .

وليكن موقفك الى جوار هؤلاء الورثة الشرعيين .. هو انضباطك .

ولتبدأ بالحلم .. فكل الاعمال العظيمة فى تاريخ البشرية بدأت بالاحلام .

وليكن حلمك على مستوى تلك الطاقة الهائلة المختزنة فى قلبك .. والمختزنة فى قلب هذا الجبل .. والمختزنة فى سواعد هؤلاء البدو وقلوبهم .. رجال الشيخ على ، ورجالك بعد أن ينصرف الجميع .

ستكون القائد توجههم للعزف فى هذا المجال الوحشى ، بين الصـــخور ٠
أمامكم أغنيه تنشدونها ٠٠ تتجاوب اصداؤها فى هذا الخواء البكر ، ليتحول الخواء البكر الى مدينة تحفل بالحركة والحيـــاة على أحدث مستوياتها الآلية ٠
انشاد مدينة ٠

ما أجدرك بهذا الحلم يا نيكولا ٠٠ وما أجـــدر هؤلاء الرجال الغامقى السمرة به ٠
وهكذا رأى نيكولا أن اكتفاءهم بنبش الصخور يحصرهم فى دائرة صغيرة لن تزيد ابدا عما يسمح به فى مناجم النخيرة والفواخير ونكرات ، وغيرها من مناجم الصحراء ٠
فقال نيكولا ، ان القـــدامى قد هبطوا فى جوف الجبل طبقتين على عمق ثلاثمائة متر تقريبا ٠٠ ولابد أنهم فعلوا ذلك خـلال عدد كبير من السنين ، وقد اخذوا من سراديب هذآ العمق وممراته ، كل ما يمكن أن تجود به الصخور من الخام ٠

وقد رأى عرق التلك الشـــاهق البياض ، يطل بذؤابته من السرداب الواقع فى قلب الجبل تماما ، فى نهاية الطبقة الثانية ٠٠ ولابد ان القدامى قد وقفوا عنده ترددوا فى متابعتـــه لان ذلك كان يعنى أن يحفروا فى عمق الجبـــل طبقة ثالثة ، ينطلقون منها خلف الخام ٠٠ ولابد لهذه الطبقة الثالثة من بئر للتهوية ٠٠ ثقب عمودى يتصاعد من تلك الاعماق حتى ينفتح على السماء فى قمة الجبل فيحمل للعمـــال داخل السرداب هواء نقيا ٠٠ فلن تكفى تلك الفتحة التى فتحها القدامى لتمد الاعماق الثلاثة بأنفاس الحياة ٠

قال نيكولا ٠٠ لابد من التفجير ، ان كنـــا راغبين فى عمـل جاد ٠٠ فلنستخدم البارود ٠٠ ولنستخدم مدربا يدرب العمال عـلى تخريم الصخور وحشوها بالمتفجرات ، ولنستخدم أخصـــائيا فى التفجير ٠٠ سيكلفنا هذا مالا ٠٠ أى نعم ٠٠ لكنه سيوفر لنا وقتا كثيرا ٠٠ فلنواجه هذا الجبل بكل شجاعتنا وكل قوتنا ان كنا راغبين أن نفوز عليه ٠٠ ونبقى فيه ٠
فهذا الخام المبعثر يمكن لهؤلاء العمال السبعة أن يجمعوه خلال شـــــهرين ٠٠ وشهران آخران يكفيان لجمع الفتات المتبقى داخل

السراديب والانفاق ٠٠ وبعدها سنواجه عرق التلك الشاهق البياض يطل علينا بذؤابته الثلجية في ذلك السرداب الاخير ، ضاربا بجذوره السخية والكثيفة فى اعماق الصخور ٠٠ عند قلب الجبل تماما ٠٠ وسيكون علينا أن ننكص على اعقابنا ونرحل كما فعل القدامى ، أو نلقى حتفنا بطول الزمن ونحن نحبو فى عمق الجبل بالفأس والازميل ٠

مال الحاج بهاء للمغامرة ، بينما تردد الخـــواجه انطون فترة مضى خـــلالها يقلب الامر على مختلف الوجوه ٠٠ فأكد عليه نيكولا متحمسا ٠٠ لابد من التفجير ٠٠ واحضر أوراقا مضى يخطط فيهـا راسما للخواجة انطون مسارب الجبل ودهاليزه مبينا مجرى الخامة خلال تلك المســارب والدهاليز ٠٠ مؤكدا حاجتهم لوسيلة سريعة تقتحم لهم تلك الصـــخور فاتحة فيها مسارب ودهاليز جديدة ٠٠ ومضى فحسب له حســاب البارود وفتايل الاشعال ، وتكاليف التدريب ٠٠ وحين رآه مازال مسربلا بتردده طلب أن يصحبه داخل المغارة ليريه ذؤابة الخامة المطلة من جدار السرادب الاخير ٠٠ فانتبه الخواجة انطون ومال للاقتناع ٠٠ كان واضحا أنه مستعد لكل شيء الا أن يغوص بجسده النحيل الانيق بين تلك الصخور ٠

وسافر الخواجة أنطون بك الى مصر ٠٠ وبجيبه قائمة جديدة بمـا يحتاجه هـذا التوسع الذى لم يكن متوقعا مـن آلات وأدوات لشرائها وشحنها من هناك ٠

وسافر الحاج بهاء الى ادفو ومعه قائمة بالتموين المطلوب للمنجم كل أسبوع ٠

بينما دخل الشيخ على الصحراء ، ليجمع عددا آخر من شباب العبابدة للعمل فى الدرهيب ٠

وكان الصيف قد بدأ يا نيكولا ٠٠ حينما جاءت ايليا الكبرى مصطحبة معها ايليا الصغرى بحثا عنك ٠

كان منحنيا أمام برميل الماء ، بينما ابشر يصب الماء بين يديه ليزيل من وجهه وذراعيه تراب اليوم ، اذ عاد السائق بعربة الجيب قادما من ادفو ٠٠ محملا بتموين الاسبوع كله ٠ فاقترب من نيكولا وقدم له قائمة التموين ، وقدم له برقية ارسلها الخواجه انطون على عنوان الحاج بهاء يخبره بأن زوجته وابنته فى القاهرة ، وأن حضوره للقائهما ضرورى ، فليس ممكنا ارسالهما الى الصحراء ٠

ولم يكن ممكنا أن يرحل نيكولا في الليل ، فدس البرقية في جيبه وخلا لنفسه في الباحة بعد أن وزع التموين والماء ·· ومضى يرقب أواني الطعام التي نصبها العمال على نيران الصخور في جوانب الباحة ·· مستغرقا في ذلك الشعور المفاجيء الذي دهمه واستولى عليه ·· ولقد فكر أن ايليا الكبرى تسعى خلفه بالحاح نابع من عنادها الموروث وشخصيتها الامتلاكية ·· فما نيكولا سوى الجانب الاجتماعي المتمم لمشروعاتها الناجحة ·· وهكذا سافر في الفجر بالسيارة الجيب الى ادفو ·· ومن ادفو اخذ القطار الى القاهرة ·· وفي القاهرة ما كاد يرى امرأتيه الصديقتين ·· زوجته وابنته ·· حتى ذابت هواجسه في دوامة من المشاعر الزوجية والابوية المرهفة ·

كانت ايليا الكبرى قد جاءت مسلحة بكل فتنتها العارمة التي اعتادت أن تدير بها رءوس الرجال على شواطيء ايطاليا ·· قبل أن يعرفها نيكولا ، وتتزوجه ·· وقد أعدت العدة لتقضي مع نيكولا فترة تعيد اليه صوابه ·· وتذكره بما نسيه من مآثرها الزوجية ·· أعدت العدة لتغويه ·· وتعود به الى ايطاليا ·· فحجزت في افخر فنادق المدينة جناحا استقبلته فيه بحفاوة تليق بزوج غائب ، عائد الى زوجته المنتظرة والمشتاقة ·· وقد امضيا معا أسبوعين عاشهما نيكولا ببساطة وصدق ، كرجل سعيد مستقر النفس يقوم بسياحة ممتعة في عاصمة مصر مع زوجته وابنته ·

ومن خلال العناق الحار ، والقبلات المهموسة والخافتة طلب نيكولا من ايليا أن تبقى معه ·· لتكون ملكة في مدينته التي يعتزم انشاءها في تلك الصحراء التي وهبها قلبه وجسده ·

وطلبت منه ايليا أن يعود معها ليكون ملكا على كل مشروعاتها الناجحة ·

وأدرك انهما قطبا صراع لا يلتقيان ، ولم يكن الصراع لائقا بمشاعرهما التي يبذلها كل منهما للآخر بعد هذا الفراق الطويل ·

ولم تكن بعد قد استنفدت كل اسلحتها ·· لقد خصصت لهذه الرحلة قدرا كبيرا من مالها ، وكان في تقديرها أن سعيها لن يخيب ·· وأن هذه السنوات الماضية قد تكفي لتملأ الشعور المجوف داخل نيكولا ، الذي يدفعه للهجرة ·· فيهدأ ويعود ·

حدثها نيكولا عن احلامه العريضة في الدرهيب العظيم ·· وعن

الصحراء والجبال والبدو والاشجار المزينه بقطع النقود القديمة ..
وعن الحفر والتفجير والسراديب العميقة التى تخرج الخامة التى تصنع
منها مساحيق النساء .. قال لها أنه يقوم بما يجب على الرجال أن
يقوموا به .. وانه ينوى أن ينشىء فى تلك الصـــحراء مدينة تليق
بملك حقيقى .

لكن أحلامه كانت مغايرة لاحلامها .. وهكذا اتفقا على أن يبقى
كل شىء مؤقتا كما هو سنة اخرى أو سنتين .. فربما يغير أحدهما
موقفــه .

وكانت ايليا الصغرى قد تعلقت بأبيها نيكولا وأبدت رغبتها
فى البقاء معه .. وحين حاولت ايليا الكبرى أن تعتــرض . فوجىء
نيكولا بأن ايليا قد تكررت فعلا .

فلم يكن عناد الابنة بأقل صلابة ومقدرة .. من عناد امها .
وهكذا عادت ايليا الكبرى الى ايطاليا وحدها .
وعاد نيكولا مع ايليا الصغرى الى الدرهيب .
حيث مدينته المتوقعة والمشتهاة .. والتى يجسدها له حلمه
لائقة بملك .



الفصل الثامن

ايليا شهوة جامحه ٠٠ كما أن الجبل شهوة جامحة ، كمـا أن تلك الصحراء من حوله بسكونها الصوفى ، شهوة كبرى أشـد جموحا ٠٠ فما الغريب فى أن تتكرر داخل جسده رجفة النشـوة التى تهز الروح وتسرقها لحظة انتقال سائل الحياة المخصب من جسد الى جسـد ٠

ما الغريب فى أن تتكرر داخل جسده تلك الرجفة حين يقف فى قلب الـدرهيب العظيم ٠٠ فى السراديب الحـارة والسراديب الباردة ٠٠ يتحسـس الجدران البكر مختبرا طراوتها ٠٠ محددا بالطباشير الابيض علامات لعماله ليثقبوها بآلاتهم ٠٠ ويحشرون فى بكارتها أصابع متفجراتهم ٠

كأنه فعل جنسى من أفعال الاخصاب ٠

ألست تخصب الآن هذا الجبل فعلا يا نيكولا ؟

وما انزلاقك الدؤوب فى رحم هذا الجبل ٠٠ سوى سـعى لزرعه وايلاده ؟

لقد أولدتك ايليا الكبرى ، ايليا الصغرى بارادتها ·· أما أنت فتولد الآن هذا الجبل بارادتك واختيارك ·

وينتبه نيكولا ، بينما يغطيه تراب التفجيرات الداخلية التي تهتك بكارة الصخور الى أن الدرهيب قد أصبح بديلا لايليا ·· زوجته ·

لقد كان ماريو بديلا لايليا في البدء وجاء ايسا فأصبح بديلا لماريو . ولايليا في نفس الوقت ·· وعاش نيكولا تلك السنوات في الصحراء لم يرتجف جسده خلالها بشهوة الجنس ·· ما أعقل أن يختار الرهبان في جبال تلك الصحراء صوامع عبادتهم ·· فلقد ساعده سكونها الصوفي المشحون بالتوتر الباعث للنشوة على التخفف التلقائي من أحمال الجسد الداخلية ·· ولم يشعر أبدا بحاجته الى امرأة ·· فقد كانت الطبيعة من حوله امرأة عظمى احتوته واستأثرت بجموحه وحيويته ·

حتى تلك المرة الوحيدة التي التحم فيها جسده الرجولي بجسد امرأة ·· حتى تلك المرة كانت مسلوبة منه ·· حين جاءت اقبال هانم زوجه الباشا المصري خليل تزور منجم الذهب في السكري كعادتها ، وألحت ساعة خروج العمال من المغارة للغداء والراحة أن يهبط بها نيكولا داخل هذه المغارة لتتفرج ·· فلم يدرك نيكولا وقتها أنها قد بدأت تنفض جسدها من ماريو ·

حتى وهو يسبقها على سلالم المغارة ويستدير رافعا قمع الكربون مضيئا لساقيها مكان الهبوط مستوعبا بعينيه الفضوليتين جسدها اللدن المعطاء كله ·· لم يتذكر نيكولا أو يتداعى الى عقله صورة هذا الجسد ممددا عاريا على رمال مرسى علم الذهبية ، بينما ماريو يزينه بيديه الشهوانيتين ، بحبات البشبش المتحركة . ذات القواقع اللؤلؤية ·

بل أنه لم يشعر برجفة الترقب الداخلية التي تصاحب الشهوة ، وذراعه تحت ذراعها يقودها في تلك السراديب والممرات بينما الظلام يحوطهما ·

وحين احتوته اقبال هانم في صدرها المتباهي وانحنت الى الخلف هابطة به على الصخور ·· كان ذلك بالنسبة له بديهيا ومتوقعا ·

لقد استجاب لها ، كأنما كان من واجبه أن يستجيب لها ··

ثم أصلح ملابسه ورفع مصباح الكربون فأضاء لها حتى أصلحت ملابسها ·· وتقدمها عائدا ·

لقد القى هذا الحادث العابر بظله الجنسى على نفسيته اياما ثلاثة وربما اربعة ، وبعدها عاد الى طبيعته الجديدة المكتسبة من المكان ·· ونسى كل شيء عن هذه المسألة ·· فلم يشعر برجفة الشهوة بعدها حتى فقد ايسا ·

وفى تلك الليلة الاولى التى واجه فيها الدرهيب مطأطىء الرأس كأنما قد انكسر بداخله شيء ·· كانت وليمة الثعابين حول الفوهة التى احتوت ايسا ورفاقه ، هى الصورة الوحيدة التى تملأ رأسه حين أغلق عليه باب خيمته ·· وكان ايسا يشاركه فراشه الصغير الضيق طول الوقت قبل أن يغلق عينيه ·· يتصوره رافعا سيفه وهو راكع على اعتاب مغارة جده القديم الصخرة ويتصوره مارقا كالسهم على بعيره بين الجبال مبشرا تعساءها بالرحمة وفقراءها بالعدل ·· صاخبا بحماسه المثالى فى الوديان ·· ويتصوره مشيرا للنجوم يعلمه مواعيد طلوعها واختفائها ·· ويتصوره مشمرا عن ساقيه المعروقتين الغامقتى السمرة ، ماشيا على الاخشاب المشتعلة بقدميه الحافيتين جيئة وذهابا ثلاث مرات ·· مادا هاتين القدمين فى وجوه الجميع كأنه يشهدهم على براءته ·

وحين أغلق عينيه ودخل فى النوم اختفى ايسا وظهرت ايليا الكبرى زوجته ·· ظهرت عارية كما اعتادت أن تظهر فى لياليهما القديمة بجوار فراشه الجانبى بمخزن الادوات فى مطعم والدها الساحلى ·· وادخلت تحت غطائه الخشن فى تلك الخيمة كل مفاتنها القديمة التى خبرها وعرفها ·· ولم يشبع منها تلك الليلة ولم تشبع منه ·· حتى صعد الفجر من الوديان الخلفية وزحف بضوئه على صخور الدرهيب ودخل خيمته ، فاستيقظ مترعا بالنشوة ليجد ايليا قد اختفت ايضا ·

وعاد اليه وعيه بأن ايسا قد مات فعلا ·

فى ذلك الوقت شعر نيكولا بحاجته الى ايليا ·

وجد نفسه وحيدا ، ووجد نفسه مطالبا بأن يكون قويا على مستوى تلك الوحدة ·· وأمكنه أن يتغلب على ذلك الضعف الذى يجره لمسارب الشهوة ·· وحشد طاقته كلها لينسج حلمه بأن ينشىء فى هذا الجبل مدينة عامرة بالخصوبة والحركة ·

حتى جاءت ايليا .

هل كان ممكنا ان تكتفي بالحلم يا نيكولا والى جوارك ايليا بمفاتنها الأخاذة التى كانت تدير بها أعناق الرجال ورؤوسهم فى شواطىء ايطاليا ؟

هل كان ممكنا لجسدك الذى اختبر هنا الظمأ كله أن يمتنع عن الارتواء من تلك الينابيع التى فجرتها ايليا ؟

هل كان ممكنا لكل هذه الرغائب الملتهبة التى استيقظت فى دمائك يا نيكولا ان تهدأ وتهجع ، بعد رحيل ايليا ؟

فما الغريب اذن فى أن تتكرر داخل جسدك رجفة النشوة التى تهز الروح وتسرقها كأنما سائل الحياة المخصب ينتقل من جسد الى جسد بينما انت تنزلق قائدا لعمالك فى قنوات الدرهيب باحثا عن كنوزه الخفية ؟

لقد كان طبيعيا أن يصبح الدرهيب بديلا لايليا .. وأن يصبح اقتحامك لدخيلته على هذا المستوى الشهوانى .. كأنه امرأة ترغب فى الاتحاد بها لامتلاكها .

وما هذه الصخور العاتية التى تواجهك بين الحين والحين كأنها تتحداك وتطالبك بمغالبتها والتغلب عليها .. غير ذلك النفور والصد الطبيعيين فى المرأة ، متممين لفتنتها وغوايتها .

كان الشتاء قد بدأ يبذر بوادره فى سماء الخريف ، فسعى صاحب السعادة انطون بك لدى بعض معارفه حتى التحقت ايليا الصغرى بالمدرسة الايطالية بالقاهرة .. فى القسم الداخلى .. وفى اجازات نهاية الاسبوع كانت تذهب الى بيت الخواجه أنطون فى جاردن سيتى محملة بكتبها وملابسها .. فتلقى بما تحمله هنا وهناك كأن البيت بيتها .

حورية لم تبلغ عامها العاشر بعد ، فى بيت محروم من الحوريات .. فقد كانت السيدة زوجة انطون بك مصابة بمرض أقعدها عن الحمل والانجاب .. بل انه فى سنواتها الاخيرة تلك قد أقعدها عن السير فى جنبات بيتها .

وكان فى البيت عدد لا بأس به من الخدم جاءت بهم تلك الاسرة المسيحية من ريف مصر حيث توجد اطيانها وممتلكاتها .. فكرس هؤلاء الخدم انفسهم لهذه الحورية الصغيرة المتوحدة .. التى كان

يبدو أن سيدهم انطون بك المحروم من الحوريات سعيد بوجودها .
كان قد تخطى الخامسة والاربعين من عمره دون ولد ..
وما كان قادرا على الخروج عن تقاليد العرف والعادة والمعتقدات السالفة لينقذ حياته الجدباء الحانية .. فكرس نفسه للعمل .. واغرقها في معمل مصنعه لادوات التجميل بين التراكيب الكيماوية المعقدة .. حتى استطاع في معرض صناعي عام أن يفوز بالجائزة عن عطر استخلصه .

وبطريقة جانبية تبدأ من حفلات الطبقة الراقية وتتدرج بين محافل الجمعيات الخيرية وحفلاتها الصاخبة للتبرع والاحسان استطاع الخواجة أنطون أن يصل الى قصر الملك .. وأن يحصل على الباكوية بالطريقة التي كانت متبعة في ذلك الزمن .. شهادة مذهبة مزينة بالتاج الذهبي علقها في برواز خطير مذهب في حائط الصالون الامامي لتواجه بتألقها كل من يدخل بيته للعمل أو للضيافة .. لم تكلفه سوى هدايا لم تزد قيمتها عن ثمن فدانين أو ثلاثة .

وهاهو نيكولا الغريب الذى لا وطن له يفتح أمامه أبواب التوسع .. ويحطم حواجز خوفه الغريزى وتردده فيزرع له جزءا من ثروته في جبل بالصحراء ، ويعفيه من الجهد والمشقة والفكر ، ويقف هناك بين الصخور بديلا عنه وعن شريكه الآخر الحاج بهاء .. يهز لهما الجبل لتتساقط عليهم ثماره في أدفو والقاهرة .
فما الذى يمنعه أن يكون سعيدا بايليا الصغرى ضيفة في بيته .. وحين يجيء الصيف ، تأخذ أجازتها من المدرسة فتذهب الى والدها في الجبل محملة بمرحها الطفولي النزق ، فلا يستغرب في الصحراء وجودها .. كأنها زهرة برية متفردة من تلك الزهور النادرة التي تنبت دون قاعدة بين حنايا صخور الجبال ، فتتهدهد بجمالها وحشيه الجبل .. وتضفى عليه من جمالها وحنانها .

وفي الفجر تهبط وردية الصباح داخل المغارة لتواصل ثقب الصخور في مكان العلامات الطباشيرية التي خططها نيكولا ، وتحشوها بالمتفجرات .. وقبل الظهر بقليل يبدأ التفجير .. يجمع العمال أدواتهم من السراديب وينسحبون متراجعين خارج المنجم .. يحصيهم نيكولا واحدا وراء الآخر خلال انسحابهم حتى يتأكد انهم جميعا قد غادروا المنجم .. فيشعل فتيلة التفجير وينسحب ساعة

الخطر ٠٠ ويهتز الجبل هزة لا تكاد ترى ، ويسمع من الخارج صـوت الانفجار المكتوم ٠٠ سـلسلة من الانفجارات المكتومة يدرك نيكـولا جيدا وهو يحصيها بأذنه المرهفة بينما يتناول غذاءه البسيط المكون من ثريد اللحم ، انها تفتح الطريق الى الطبقة الثالثة ٠٠ وسراديبها ٠

وبعد ساعتين تكون سلسلة الانفجارات الداخليـة المتتابعة قد توقفت تماما ، ويكون تراب الانهيارات الصخرية قد بدأ يسـكن أيضا ويرتاح على أكوام الصخور التى فجرتها شـحنات البارود من الجدران وأهالتهـا فى قيعان السراديب والممرات ٠٠ فتبدأ الوردية الثانية فى الهبوط الى المنجم لاخراج تلك الاكوام ٠

كالنمل يصعد الرجال ويهبطون من المغارة واليها ، حاملين على اكتافهم وظهورهم ماجادت به السراديب من صـخور وأتربة بعد التفجير ٠٠ ثم ينحدرون بها فى طابور متلاحق على حصى السـطح المنحدر أسفل المغارة ، حتى يصلوا بها الى السـاحة ٠٠ فيكومونها تلالا فى الخلفية ٠٠ ليتلقاها رجال الوردية الاولى الذين يكـونون قد انتهوا من الغداء والراحة ٠٠ فيتنـاولونها بالفحص والترتيب ٠٠ يسـتخلصون منها خامة التلك الشمعية التكوين الشاهقة البياض ، فيرتبونها فى درجاتها المختلفـة ٠٠ أكواما ممهدة لنقلها الى الميزان ساعة التحميل ٠

هاهو الجبل يعطيهم ثماره بجدارة واسـتحقاق ٠٠ فيجلس نيكولا متوسطا الباحة ٠٠ مزهوا بادراكه الذى هداه الى أن يفتـح فى قلب الجبل طبقة ثالثة متتبعا عرق التلك المطل عليهم بذؤابته ٠٠ هاهى الطبقة الثالثة قد فتحت وتشـعبت السراديب من باحتهـا المربعة ، وتعددت الممرات ، وأرتفعت من سقفها بئر صاعدة لتسحب الهواء النقى من السماء الى قلب الجبل وشرايينه ٠

يجلس نيكولا مسترخيا يرقب طابور العمـال المنحنى الظهر تحت ثقل خامة التلك الشـمعية مزهوا بنجاحه ٠٠ كم من الاطنان يا نيكولا حملها هؤلاء الرجال من داخل المغارة الى خلفية الباحة ٠٠ خلال هذه السنوات ٠٠ ليحملوا بها ظهور الجمال فتعبر بها الصحراء الى ميناء الدرهيب ٠

لقد أمكنك يا نيكولا أن تقيم على البحر ميناء ترسو به السفن

قادمه الى هذا الجبل الضائع فى متاهة الصـــحراء مغمور الاسم ·· وعائدة منه ·

يجلس نيكولا فى الباحة مزهوا يدير عينيه فيرى البـاحة قد نسقت ورصفت ، واقيمت على جوانبها ثلاثة بيوت خشبـــية ·· وعنبر للمخازن ·· وللطعام ، ودورات خشبية للمياه ، وورشـــة لاصلاح الآلات والادوات ·· وأصبح لهم مولد للكهرباء وخزان كبـير لحفظ المياه ·

هل كنت تحلم بأكثر من هذا يا نيكولا ؟

لقد جعلت من الدرهيب زوجتك وأولادك وبيتـك ·· واقمت فيه حياة عائلية جديدة على المستوى الرجولى ·· عائلة كبيرة كلها من الرجال ·· حياة جديدة خشنة جافة وقاسية لكنك تعودتها شهرا بعد شهر ، حتى صـــارت حياتك التى كانت لك قبل ذلك نوعا من الوهم الغامض والخيالات ·

كانت ايليا الكبرى هى الشهوة ·

وأصبح الدرهيب هو الشهوة ·

شهوة مقلقة توقفك ساهرا أمام المائدة الهندسية فى خيمتـك على مصباح البترول ، تراجع ما تم حفره وترســـم لما يجب أن يتم حفره ·· ثم تغفو قبل الفجر ساعتين وتهبط قبل العمال الى المغارة تختبر الصخور ·

وحدك كنت تدخل يا نيكولا ·· تدق جدران السراديب بعصاك الحديدية تختبر صلابتها ، وتزحف بمقياســـك اللولبى على أبعادها تتسمع بالذبذبة تنفسها الداخلى وتنصت لضـــميرها ، لتتلافى أن تفاجئك فى الصباح بانهيار غادر غير محســـوب ، يختطـــف من مجموعتك عاملا أو اثنين ·

وحين تستدير عائدا مطمئنا تفاجأ بأنك لم تكن وحدك ·

أنسيت أبشر ؟

ذلك الصبي الأبنوسى الجذاب العينين ·· ولد ايسا ·

جليسك وانيسك فى ساعات الاسترخاء والراحة على حافة الجبل الغربية تشرف على الشمس الهابطة بضوئها الدموى على الوديان ٠٠ الاحمر المشوب بالصفرة الشاحبة فى تلك السماء اللامتناهية ، تظلل جبلك كأن ليس فى الكون غيره !

وتابعك كظلك خلال العمل ليكون ذراعين صغيرتين وذكيتين ، اضافيتين لك ٠

♦

حامل صورتك وأوامرك فى الممرات المظلمة الى العمال ٠٠ وطاهى طعامك ٠٠ ثم سائق سيارتك ٠

ينتبه من منامته الارضية وينهض جالسا يفرك عينيه بمجرد ما تفتح عينيك ٠٠ ليقرب الى يديك كل ما يبعد عليك من أشياء ٠

فما الغريب أن تجده خلفك فى السرداب حين تعود مطمئنا بعد اختبار الصخور ؟

ثم جاءت ايليا الصغرى فأصبحت ثالثتكما ٠

الصيف بأكمله تقضيه ايليا الصغيرة معك قطعة منك ، مختلفة تمام الاختلاف عنك ٠٠ تبهرك وتذهلك فتغيب فى تأملها ساعات طويلة كأنك تحاول أن تتغلب على واحد من ألغاز الكون ٠

فى وجودها فكرت فى البيوت الخشبية وشرعت فى انشائها ٠

وهذا الخزان الكبير للمياه لتتمكن تلك البيوت الخشبية من توصيل الماء لساكنها فى المواسير ٠٠ كعادة المياه فى المدينة ٠٠ ألم يكن ذلك أيضا بسبب ايليا ؟ ٠٠ تلك الحورية النزقة لم تكن تتورع حين يجىء ميعاد حمامها أن تجرى الى براميل الماء عارية وتقفز فيها ٠٠ أو تطلب من ابشر أن يصب الماء على جسدها الانثوى الصغير النامى ٠

لقد جاءت ايليا الصغيرة واضفت على حياتك الخشنة من جمالها وحنانها ٠٠ فأصبحت ربة بيتك ٠٠ وزهرة مدينتك الخشبية الجديدة ٠٠ تشرف على الطعام وتنثر مرحها وبهجتها بالمكان على الجميع ٠٠ وتبتكر الافكار فيسرع الجميع لتلبيتها ٠

وهكذا نسقت الباحة ورصفت ٠٠ وزرع جانب منها بالشجيرات ٠

وكان العمل ينمو ، بينما المدينة الصغيرة على الجبل تنمو ٠٠ وايليا الصغيرة تنمو ٠٠ وابشر ينمو ٠٠ وأنت أيضا تنمو يا نيكولا٠

يتصاعد الخام بوفرة الى ظهور العمال ، فتنقله الجمال عبر الصحراء الى أدفو على النيل ٠٠ وتنقله مراكب النيل الى مصنع الخواجه انطون فى القاهرة ٠٠ الذى كان أيضا ينمو ويتسع ٠٠ وفكرت أن تختصر طريق النقل يا نيكولا ٠

كانت قد أصبحت للمدينة الخشبية على الجبل نظمها وتقاليدها ٠٠ وامكنك أن تأخذ عائلتك الرجولية التى اصبحت تزينها ايليا ابنتك كل صيف ٠٠ مرة فى الشهر ٠٠ تجوبون فيها الوديان المجاورة للدرهيب لصيد الغزال ، أو ترحلون لزيارة الشاذلى فى ضريحه المتواضع فى عين عيذاب ، على مشارف مكة يفصلهما البحر الاحمر الكبير ٠٠ فتذبحون لفقرائه الذبائح وتتناولون طعامكم الجبلى مع الصقور البنية الريش الصفراء المناقير ٠

أو تذهبون الى البحر على ساحل برانيس ٠٠ الى يمينكم على مسيرة ساعة يبدأ خليج رأس بناس الشهير ينبسط ويتمدد ، ذهبى الرمال ، ماؤه شاهق الزرقة ، ليكشف عن جزر المرجان بأسماكها المنوعة الملونة للعين المجردة ٠٠ ووراءكم تهجع أنقاض تلك المدينة القديمه التى بناها القيصر بطليموس الزمار لابنته الاميرة برانيس ذات الاصل الزنجى ٠٠ وأمامكم داخل البحر ، فى عمقه البعيد ٠٠ تبدو ظلال جزيرة الزبرجد ٠

لقد استهواك هذا الساحل يانيكولا وأسر لبك ٠٠ فبينما انت مستلق على الرمال الناعمة عاريا ، تأخذ حماما من اليود والشمس ، وايليا تشق الماء الشاهق الزرقة داخل الشاطىء امامك ٠٠ تلهو جيئة وذهابا كسمكة أو كحورية ، ولدت فى رأسك فكرة اختصار طريق النقل ٠

لماذا لا تجىء الجمال بخام التلك من الدرهيب الى هنا ٠٠ وتجىء السفن البخارية بديلة عن سفن الشراع ، عبر البحر الاحمر ،

لتنقله من هنا الى السويس ·· فتختصر نصف الوقت وتضاعف كمية الخام المنقول ·

وفكرت فى تجهيز الساحل ليكون ميناء ·· وسرعان ما امتدت من الرمال داخل الماء سقالة عريضة وطيدة لرسو السفن ، واقيمت على الشاطىء ، كبائن خشبية للراحة وللاقامة ·· وبدأ الضيوف يجيئون لمشاهدتك وأنت تنشىء على ذلك الشاطىء القديم المغمور ميناء شبه متحضر ، ليكون ملحقا لمدينتك الخشبية ؟

لقد فتحت فى الصحراء منجما كان مهملا ومهجورا ·· وأقمت حول المنجم مدينة سكنية من الخشب مجهزة بنظام يكفل انتظام العمل ونموه ·· وأقمت للمدينة ميناء على البحر يرفع عنها سحابة العزلة وفكرتها ·· ويربطها بالمدينة الكبرى ·

وأصبح ما أقمته فى الصحراء يا نيكولا مثالا أخذ يطمح اليه أصحاب المناجم الاخرى ·· وتناقل الرواة اخباره فرغب فى زيارته ذوات العاصمة ، وسراتها ، فبدأ الضيوف يجيئون ·

فهل كنت ترى أو حتى تكاد تشعر ، أنك تبذر بذور المأساة التى سيحصد الجميع ثمارها حين يجىء الضيوف ؟



الفصل التاسع

يجىء العجوز الطيب العم أوشيك الى الكابينة التى يرتاح فيها نيكولا بالميناء ٠٠ ويدخل مترددا تسبقه لحيته الرقطاء وشاربه الكثيف غير المنتظم وعمامته البيضاء المدلاة ٠٠ ويغمغم أمام نيكولا فى صوته الخفيض : أبشر ياولدى الخير جه ٠٠ !

عادته ، أن يقبع صامتا على رمال الساحل دءوبا صبورا ، يرقب الافق حتى يلمح على البعد تلك البقعة البيضاء الصغيرة الطافية فوق التماع الماء البعيد ، والتى غالبا ما تكون واحدة من « السكاين » تلك المراكب الكبيرة نوعا التى تدور بالموتور ٠٠ تجىء فى موعدها متجهة اليهم تحمل التموين والماء ٠٠ فما يكاد يراها حتى يهرول بقدميه العجوزتين الهزيلتين الى كابينة نيكولا ليبشره ٠

ـ الخير فيه ان شاء الله ياولدى ٠٠ السكونر وصل ٠
ـ وين دى يا أوشيك ؟
فيشير أوشيك باصبعه الى البحر البعيد قائلا :
ـ تراها ياولدى ٠٠ جريبة !

ويحدق نيكولا ليرى أن كانت البقعة البيضاء هي سفينتهم فعلا ، أم واحدة من مراكب الصيد المسماة بالقطاير ، خدعت أوشيك. فيتأكد من صواب العجوز ، فيداعبه :

ـ لكن دى قطيرة يا أوشيك ..

فيرد أوشيك واقفا ينوى الانسحاب :

ـ الله يعلم يا ولدى .. لكن دى ما قطيرة .

حين اتسع العمل فى المنجم واقيمت المدينة الخشبية على الدرهيب لم يعد أوشيك لائقا بأن يكون خفيرها وحارس بوابتها ، فنقله نيكولا الى الميناء ليرعى الكبائن في غيابهم بالمنجم ، ويشرف على العمال الذين يشونون الخام فى الباحة الى جوار السقالة ، تمهيدا لنقله الى السكونر حين تجىء .

وقبل أن تجىء السكونر يجىء نيكولا ليكون فى انتظارها فيتهلل وجه أوشيك المجهد ويبتهج ويهلل مرحبا به : شوب .. شوب .. شوب .

عادتهم فى التحية .. يظل الواحد منهم وحيدا .. جالسا أو ماشيا وراء الماء والاخبار اياما طويلة ، حتى يلقى رفيقا يستقى منه أخبار المطر أو أخبار الرفاق ، فيهلل كل منهما فى وجه الآخر : شوب ، شوب ، شوب .

ثم يقعيان على الأرض متواجهين :

ـ كيف الحال ؟

ـ رايجين ..

ـ لعل ما فى عوجه ؟

ـ ما فى عوجه .. وأنتو ؟

ـ رايجين ..

ـ ما فى عوجه .. ؟

ـ ما فى عوجه .

يبتهج العجوز أوشيك ويسعد ، حين يكلمه نيكولا بلغته .

ـ السكاناب شنو ؟

فيشكو أوشيك فراغ التموين .

ـ أنا تموينى .. كو .

فيبتسم نيكولا ويخبره بأنه سيوزع التموين فور وصول السكونر ٠

فيفرك العجوز كفيه الذابلتين ، ويبدأ فى اعداد القهوة على طريقة الجبنة ، ثم يقدمها لنيكولا فنجالا بعد فنجال ٠ فلا يمكنه أن يرفضها قبل الفنجال الرابع ٠

ويسأله أوشيك :

ـ كيف الجبنة هسا ؟

ـ مغشوشة يا أوشيك ٠ !

ـ كيف مغشوشة يا أخى ٠٠

ويتصنع العجوز الغضب :

ـ ها وصلت السكونر يا أوشيك ؟

ـ الله فراج يا أخى ٠

وينصرف ليرقبها عند الافق ٠

تلك المرة كان نيكولا يعلم أن السكونر قادمة وعليها متاع الضيوف ٠

ها أنت ذا يانيكولا قد حملت العالم الخارجى على أن يجىء اليك فى تلك البقعة النائية ٠٠ يكونون جالسين حول الويسكى فى كلوب محمد على ، أو نادى السيارات ، ونادى الصيد ٠٠ مجموعة تضم وزيرا سابقا ٠٠ باشا أو اثنين ٠٠ وثلاثا أو أربعا من حسان تلك الطبقة العالية المحلاة باللؤلؤ المضمخة بالعطور الاجنبية ٠٠ وبعض البكوات ٠٠ !

وتجىء سيرة الصحراء فينبرى صاحب السعادة الخواجة انطون بك للحديث عن منجمه فى الدرهيب ، وشاطئه الساحر فى برانيس، فيتحمسون للرؤية ، ويتحمس الخواجه أنطون فيوجه الدعوة ، ويبدأ فى عمل الترتيب ٠

يوائم بين موعدهم وموعد السكونر التى تروح وتجىء بالطعام والخام بين برانيس والسويس ، فيحملها بمعدات الرحلة وطعام الضيوف الخاص ومشروباتهم ، ثم يركب الجميع سياراتهم الى الغردقة ، ومن الغردقة يركبون لنشات البحر الى برانيس ٠٠ فيهبطون فى ذلك الشاطىء الساحر المنعزل ، فيمزقون ستائر عزلته ٠٠ ويملأون الكبائن الخشنة فى الميناء بملابسهم الثمينة

وأدواتهم الناعمة وعطورهم ·· وينتشرون على الرمال حول المرساة ، حفاة نصف عراة ، تاركين أنفسهم للطبيعة البكر حولهم ·

كم من الوجوه رأيتها يا نيكولا على حقيقتها الفعلية خـــلال تلك الرحلات ؟

كأنهم يسقطون أقنعتهم المستخدمة هناك فى مكانهم على قمـة المجتمع المصرى وفوق ســـطحه ·· بمجرد أن تلامس أقدامهم رمال شاطئك ·· ويضـــعون مهابتهم وعظمتهم المشـــكوك فيها جانبا ، ويصبحون أطفالا على ذلك الشاطىء البكر ·· يلهون فى الماء بنزق يشبه البراءة ·· يسبحون ويلعبون الورق ويقبلون بعضهم البعض ويتضاجعون · ثم يتكدسون فى قطيرة يقودها عبد ربه كريشـــاب داخل البحر ، ليصيدوا الاسماك ·

عبد ربه كريشاب الذى يهيم الآن بين جبال الصـــحراء فاقدا عقله ، بسبب واحدة من نزواتهم · !

لقد جاء فى خطاب أنطون أن الضيوف هذه المرة اكثر أهميـــة وأن شخصية كبرى ستلحق بهم على يختها الخاص ·

شخصية كبرى يانيكولا ·

هل كان فى مصر شخصية كبرى ·· غير الملك · ؟

وجاءت ايليا على عربة الجيب من المنجم يقودها ابشر الصغير لنسهم فى تزيين المكان وترتيبه ·· فأمرت الرجال بحمـــل الرمل يفرشونه حول الكبائن يغطون به بقع الزيت ، وأخذت تطمئن على تموين الخزانات بالماء ·· فهاهى السكونر تلوح فى افق برانيس تحمل متاع الضيوف الذين يتناولون الآن غذاءهم المبكر فى الغردقة ·

ما أسعدها ايليا الحبيبه بمجىء الضيوف لتزهو بجمالها البرى الذى انضجته شمس الصحراء وهواؤها على حسان الطبقة الراقيـة الذين يجيئون من سطح المجتمع المصرى هناك ، فرصتها لتكون محط انظار رجال مختلفين يملكون الجاه والســـلطان ، ومحل مجاملتهم واستحسانهم ·

هاهى امرأة تكاد تكون كاملة ، لم تصل بعد الى السادسة عشرة يتأملها نيكولا مزهوا ، لكنه يشعر بزهوه مشوبا بالالم ·

ثم ينادى عبد ربه كريشاب ويأمره أن يأخذ معه فى القطيرة رجلين ، ويذهبان فى البحر لاحضار كمية مضاعفة من الاستاكوزا · لتكون جاهزة فى انتظار الضيوف !

كان عبد ربه متوسط الطول ممتلئ العظام ، ساذج المكر وقد ولد فى بطن من بطون الكريشاب الذين نسلوا من عبابدة الصحراء · وانحدروا الى الحواف الساحلية لهذا البحر العجيب الاحمر ، الذى بهرهم بغرائب مخلوقاته ·· فعاشوا على حافته الممتدة على رمال مصر والسودان ·· يصيدون الاســـماك بالحراب الطويلة ويجمعون الماء القليل العذوبة عند مصبات الوديان على البحر ، ينشلونه ويحفظونه للشرب والطعام ·

وحين بلغ العاشرة خرج الى البحر مع الرجال ، على قواربهم المجوفة المصنوعة من نخيل الدوم ·

وبينما يكتمل نموه ليصير شابا ، ثم يصير رجلا ، تتكرر فى عائلته تلك الفاجعة المعتادة بين الكريشاب ·· أن يخرج الرجل مع الرجال الى البحر ، فيعـــود الرجال ولا يعود ·· أو يعود ولا يعود الرجال ·· تأخذهم عروس البحر ، نصفها امرأة ونصفها سمكة ·· تلك الجنية المسحورة التى لا تشـــبع أبدا ·· تغويهم أو تختطفهم ، وتأخذهم الى عالمها العجيب تحت الماء حيث لم يستطع قط انســـان أن يدخله ويعود ·

يحكى النـــاجون الحكاية فكان عبد ربه يرهف اذنيه للراوى ويعلق بصره بلسانه وشفتيه · ! يكون البحر منبسطا كمرآة صـماء شديدة السكون فى هذا المحيط الشامل من الصمت المضاء بالنجوم · ويكون الرجال واقفين على قاربهم المنزلق على الماء الساكن يحفظون توازنه بأقدامهم الصلبة ·· وفى ايديهم حرابهم ·· وعيونهم الجريئة الحادة مسددة الى الصفحة الساكنة لتلتقط أقل حركة غير معتـــادة تعكر صـــــفو الماء ·· وبمثل البرق تندفع احدى الحراب فى مكان الحركة ·· ثم يجذب الرجل حربته من حبلها ، فتعود من الماء بصيدها الحى الذى يقاوم للافلات بينما يواصل القـارب انزلاقه على الماء ·· وهكذا تستغرق الرجال لذة الصيد ·· وفجأة تبهر عيونهم عـــلى صفحة الماء اضاءات قوية مفاجئة ·· واذا بشعر عروس البحر طافيا يلتمع ، يتموج فى السكون كنغمة فطرية رائعة !

لا يحدث ذلك دائما ·· لكنه يحدث بين الحين والحين ، حينمـا يسكب القمر فضته الذائبة على ظلمة المياه فيضيئها ·

تحت هذه الاشعة المنسكبة تستطيع تلك الجنية المســـحورة أن تلعب لعبتها ، وحيثما يروغ الرجال بقاربهم يجدونها امامهم ··

يعرفون مطلبها فترتجف دخيلة كل منهم لما يعرفه ، ويحدق فى بقعة الضوء المتموجة على الماء لا مهرب منها ، تجـذبه اليها من عينيـه ، فيقاوم ٠٠ ويستجمع صلابته ٠٠ وتتشبث قدماه المفلطحتان بسطح قاربه ٠٠ لكن ذلك لا يجديه نفعا ، فحيثما تظهر العروس ، لابد أن تأخذ طلبتها ٠

لعل هذا الشعور اليقينى الناتج من التجربة هو الذى يسـوق واحدا من الرجال الى التخاذل ، فيلقى بنفسـه فى بقعة الضـوء الغاوية ٠٠ فيلتف حول جسده البشرى شعر العروس المصنوع من أسلاك الذهب ، ويحتويه ، وينتفض الماء انتفاضة قوية ويمور بينما تستدير العروس لتغوص به الى عالمها ٠٠ ويعود الرجال ولا يعـود هو أبدا ٠

وحينما تتكافأ صـلابة الجميع ، فلا يتخاذل منهم أحد ويلقى بنفسه الى أحضان العروس راغبا ٠٠ فحركة واحدة من ذيلها القوى كافية لتجعل أعلى قاربهم اسفله ٠٠ فيسقط الرجال جميعا ، فى أحضانها الشرهه ٠ !

لقد فقد عبد ربه بهذه الطريقة ثلاثة من عائلته ٠٠ ولد عمـه وولد خاله وأخاه ٠٠ وسمع فى مجالس النساء وهو طفل ، ومجالس الرجال وهو صبى ، حكاياتهم ٠٠ فادرك ان له عند العروس ثأرا ٠٠ وفى المرة الاخيرة حينما فقد شقيقه ٠٠ أقسم بين الرجال أن يأخـذ بثأره وتوعد تلك الجنية المسحورة بأن يغويها ويسـحبها الى عالمه الارضى ٠٠ !

لكن الجنية لم تظهر لعبد ربه أبدا ٠٠

لقد كبر ونما وأصبح بين الرجال رجلا ٠٠ وصعد فى البحر شرقا وغربا بقاربه وحده ، أو بين الرجال بقاربهم ٠٠ دون أن تظهر له العروس ٠٠ يقولون انها تحب فى الرجال وسامتهم ، ولقد كان كل من ولد عمه وولد خاله وأخيه وسيما ٠٠ أما عبد ربه فملامحه مفلطحة نوعا ٠٠ بعيدة عن القبح ، كما انها أيضا بعيدة عن الوسامة ٠٠ فما الذى يغريها تلك العروس لتظهر له ؟

لكن عبد ربه كريشاب لم يفقد الامل فى أن يلقاها يوما وهو ينزلق بقاربه على الفضة الذائبة فوق الماء ٠٠ وساعتها سيبذل جهدا جنونيـا ليغويها بملامحه المعلقة بين الجمال والقبح ، ويجذبهـا من

شعرها الذهبى الذى تجذب به الرجال ٠٠ ويأخذها سبية فى عالمه ٠
لقد صار قسم عبد ربه وتوعده ، فكاهة للكريشـــاب ومثار تندرهم ٠٠ فحينما يخرج الى البحر ، تتوه عيناه كأنهما مكرستان للبحث عن شعر العروس ٠٠ فتغيب عنهما بقية الاسماك ٠٠ ويعود من الصيد خائبا ، أو على شفا الخيبة ٠

حتى مد الشيخ على يده اليه في ذلك الخور النائي وانتشـله ووضعه فى الدرهيب ليصيد السمك للعاملين نصف الوقت ، ويتعلم صناعة جديدة فى نصفه الباقى ٠٠ فتغيرت حياته ٠
شرب الماء العذب ٠٠ وعاشر أقواما مختلفين ، ودخل بطنـــه طعام ما كان يســـمع به قط ، وجرت النقود فى يده فتزوج ، وجاء بزوجته فأقام لها خصا على الساحل على مبعدة من الميناء ، وأصبح قسمه وتوعده مثار تندر وفكاهة فى الدرهيب أيضا ٠٠ لكنه كان قد نسى القســـم ٠٠ وكان حزنه وغضـــبه على ولد العم وولد الخال والشقيق ، قد هدأ أواره ، واستكن فى قاع النفس للنسيان أيضـا ٠٠ ولم تعد عيناه مكرستين للبحث عن شعر الجنية المسحورة عـــلى صفحة الماء ٠٠ وانهمك عبد ربه فى تغذية المنجم بالاسماك ٠٠ وتعلم فى وقته الباقى فرز خامة التلك وتصنيفها ٠٠ وأصبحت هوايته حين يجيء الضيوف أن يأخذ قطيرة الميناء ويدخل بها البحر فتختصر له الطريق الى جزيرة الزبرجد فيصلها فى ساعتين ، يصيد الاستاكوزا من كهوف النباتات على حواف الجزيرة ٠ بعد أن ينسحب المد ، ويعود بها طعاما مميزا على مائدتهم الصحراوية ، ثم يصحبهم فى الامسيات داخل البحر ، يعلمهم صيد البياض والكوشر والبراكودا وأســماك المرجان المتوحشة ، ويرجع بهم الى الميناء تفيض السعادة من جوانبهم ٠٠ وتفيض نقودهم من جيبه ٠٠ بل انه لم يعـــد يجد حرجا حـين يسألونه متندرين ومتفكهين ، عن عروس البحر التى توعد أن يجيء بها لعالمه الارضى ٠

خبزت له زوجته على الرمال رغيفين لعشائه ، حملهما مع أدواته الى الميناء ، ومضى يجهز قاربه ٠٠ ثم طلب من أبشر أن يصطحبه ٠
وقبل العصر بقليل كان عبد ربه يرفع حبال المرساة ٠٠ وأدار ابشر الموتور ، وتحرك القارب مبتعدا عن الشاطيء ســـاحبا خلفه دوامة مثلثة الاستطالة من الزبد الابيض ، جاعلا من جزيرة الزبرجد وجهته ٠

وجهز عبد ربه سنارته الكبيرة وحشاها بسمكة متوسطة ، ثم دلاها خلف القارب المندفع على مبعدة ·· فأخذت السمكة الكبيرة نوعا المعلقة بالسنارة من طرفها ، تتقافز نصف غاطسة فى الماء تابعة القارب وكأنها تسابقه وتوشك أن تلحق به ·· تخدع الاسماك الضخمة وتغريها فتتبع تلك الفريسة المعلقة ثم تنقض عليها من الخلف فتحتويها فى فمها الكبير الواسع ، فتمسك بها السنارة المختفيه من داخل حلقومها ·

وقبل أن يصلا بقاربهما الى حواف جزيرة الزبرجد ، كان عبد ربه قد صاد قطعتين كبيرتين من سمك التونة بهذه الطريقة ، تزن الواحدة خمسين رطلا ·· قدر فى نفسه أن نيكولا سيكون مزهوا حين يشكهما فى سيخ النار ويشويهما للضيوف على طريقة الحملان ·

وأخذت جزيرة الزبرجد تدنو من القارب المندفع اليها بينما تحولت صفحة الماء الى اللون الدموى خلال الغروب · ولاحت لهما الهضبة الجيرية المغطاة بالقواقع وطفح البحر ، بينما كان جبل الزبرجد مشرئبا من وسط الجزيرة تلمع صخوره الغامقة الزرقة مشعة بلونها البنفسجى المشرب بدماء الشمس فبدأ ابشر يهدىء من سرعة القارب حتى زحفت مقدمته على الحافة الرملية فأوقفه ·· وقفز عبدربه وبيده حبال المرساة فغرسها فى الرمال ·· وانحنى ابشر فأشعل مصباح القارب وعلقه ليكون دليلهما مهما ابتعدا عن الشاطىء وراء حبات الاستاكوزا ·· ومد عبد ربه ذراعه القوى الى القارب فحمل الزكائب ومصابيح الكربون ومضى يتفقد المكان حوله حتى قفز ابشر من القارب الى جواره ·

كان المد المائى قد بدأ فى الانسحاب عن ساحل الجزيرة كعادته تلك الساعة بعد الغروب ، فأصبح عمقه اقل من ركبة رجل ·· فى مثل هذا العمق تبدأ الشعب المرجانية المتطرفة فى الظهور · حيث تجىء الاستاكوزا لتلعق غذاءها من تلك الشعب ·

تشبه الجنبرى لكنها متوحشة الحجم ، كبيرة الرأس لكن لحمها المكون من تلك النباتات الفسفورية التى تلعقها موجود فى ذيلها ·· وفى هذا الذيل أيضا تكمن قوتها وأسلحة دفاعها ، حيوان له شهرة يعرفها عبد ربه جيدا ·· وشهرته تكمن فى هذا الذيل المكون من خلاصة فسفورية تضاعف القدرة على الشهوة ، لطالما سمع عبد ربه

الضيوف يتندرون بما تفعله الاستاكوزا فى أجسادهم الرجولية ٠ فيزداد حماسه لصيدها وارضائهم ٠

سار فى الحافة المائية يتبعه أبشر ، وقد صوب كل منهم مصباحه الكربونى ليضيء له الماء أمامه ، فيتبين الشعب وما تحتويه ٠٠ الضوء هو أداة الصيد ٠٠ فالاستاكوزا سريعة وقوية ، لكن الضوء يربكها ويشل حركتها فما يكاد يسقط على جهدها الفسفورى حتى يفعل الاشعاع فعله فترتبك خلاياها ، وتتشبث فى القاع الرملى باطرافها المتعددة المحيطة بذيلها ٠٠ وتنصب أشواكها كحراب تحمى جسدها العاجز من الحيوانات الاخرى الملتهمة ٠٠ تكون فى تلك الحالة عمياء غشى الضوء منافذ ابصارها ٠٠ فينقض عليها عبد ربه بيده الخشنة من أعلى ، ويتخلل اطرافها بأصابعه ، ثم يجذبها من الماء محاذرا ذيلها القوى الذى يضرب الهواء فى محاولة الخلاص ٠٠ ولا تهدأ الاستاكوزا حتى يلقى بها عبدربه فى ظلام الزكيبة المحمولة على ظهره ، ثم يسدد مصباحه ويتابع سيره فى الماء وراء واحدة غيرها ٠

وقد اكتمل القمر فى سماء البحر ٠٠ وكسا جزيرة الزبرجد الصخور الخالية بضوئه الموشى بالبلاتين ، وبدت الصخور الشامخة فى الظلال كآلهة قديمة منسية فى تلك الجزيرة الغنية بالكنوز ٠٠ وكان ابشر قد خاض بحذاء البحر ممتدا فى الخلجان الصغيرة وراء حبيبات الاستاكوزا ، وسرقه الوقت وهو يملأ زكيبته بالحيوان الفسفورى ، حتى لم يعد بالزكيبة مكان ٠٠ فاستدار وأدار شعلة الكربون فيما حوله فلم ير لعبد ربه كريشاب أثرا ٠٠ كما لم ير لضوء قاربهم اثرا ٠٠ فعدل من حمله على ظهره وقفل عائدا وأخذ يفكر وهو يخوض فى الماء ، فى هذا العالم العجيب الواسع الممتد ، كأنما لا نهاية له حيث تقيم أعداد لا حصر لها من المخلوقات لم يتعرف عليها بعد ٠٠ ففى دخيلته كان فخورا بصيده من حبات الاستاكوزا ، كما كان فخورا بقدرته على تعلم ادارة وابور القارب وقيادته ٠٠ كعادته فى الزهو والفخر ، كلما أثار فضوله شيء جديد فى ذلك العالم فيتعلمه ٠٠ لقد كان يخرج فى الامسيات التى يهجع فيها الجميع بمعسكر الدرهيب ويناموا فيجلس أمام السيارة الجيب كأنه عاشق يملأ قلبه من محاسن محبوبته وملامحها وكثيرا ما تسلل اليها خلسة ، يتأمل تفاصيلها ويتكشفها متتبعا ذلك الشريط المسجل

فى ذاكرته من الصور المختلسة للاسطى على وهو يدير بيده الساحرة هذه التفاصيل ويحركها فتدب الحياة فى السيارة ·· وخلال نومه القلق والمتقطع كان يحلم لاصابعه بتلك القدرة التى يملكها الاسطى على فى أصابعه ، ولم يكتف بالتأمل والحلم ، فبدأ يلاحق الاسطى على ويتابعه ، حتى علمه ·

هو يعرف جيدا أن تلك الطاقة الشرهة للمعرفة فى داخله هى مصدر زهوه وفخره ·· وكان يؤكد له جدارته بها ، كما كان يسمعه من نيكولا عن والده ايسا ·· فما أحق ايسا بولد يكون مختلفا عن الجميع ·

وبدأت برودة الماء المشوبة بدفء مختزن حول قدميه وساقيه تنعشه وتبعث فى جسده تدفقا نشطا رغم اجهاده وقد نما اسمه الى اذنيه مطوفا فى الفضاء عبر السكون البحرى حول الجزيرة مصطدما بالصخور الناتئة ، فانتبه الى أن عبد ربه يناديه ·

كان كل منهما قد اعطى ظهره للآخر وسار خلف الاستاكوزا فى اتجاه تاركين القارب بينهما ·· متفقين على أن ينادى زميله من يعود أولا الى القارب ·· ·· فلابد أن عبد ربه قد عاد الآن ·

رفع ابشر شعلة الكربون محاولا أن يضىء أمامه على مبعدة ·· فلم ير أثرا لعبد ربه أو ضوء القارب ·· فعرف أنه كان قد أوغل فى البعد عنهما ·· فأخذ يغذ السير داخل الماء وهو يصيح مرددا اسم عبد ربه فى الفضاء ·

كان عبد ربه كريشاب قد ملأ زكيبته بحبات الاستاكوزا واستدار عائدا يخوض فى الماء متجها الى القارب ، حتى وصله ، فألقى فى قاعه بزكيبته ·· ومضى يرتب الصيد فى القاع المزدحم مفسحا مكانا لما سيحضره أبشر معه ، ثم جلس على مقدمة القارب متقوقعا على ركبتيه منتظرا عودته واخرج من عب جلبابه علبة الدخان ومضى يبرم لنفسه سيجارة ·· وبينما هو يحدق فى الماء الملتمع داخل البحر بمواجهته توقفت أنظاره فجأة على بقعة متألقة ، فرجف قلبه ·· كان شعر العروس الذهبى يتألق تحت الضوء متموجا ·· يظهر ويختفى ·· فانتصب واقفا على سطح القارب وقد امتلأ كيانه بالخوف ·· كل الحكايات القديمة التى تروى غزوات الجنية الساحرة قفزت الى رأسه فلم يهدأ روعه حتى أدرك أنه على القارب وأن القارب مربوط فى الشاطىء ·· وانه بمنجاة من العروس وكيدها ·· فأخذ

يحملق فى البقعة الملتمعة ويتأملها فى ظلال هذا الامان ٠٠ ولدهشته وجدها تتجه ناحيته ٠

أخذ عقله الفطرى يعمل بسرعة غير معتادة ٠٠ وتذكر بخوف قسمه القديم ووعيده ٠٠ وتساءل فى لحظة ان كان قد حدث ما انتظره طويلا ٠٠ واستطاعت ملامحه المعلقة بين الجمال والقبح أن تغوى تلك الجنية وتخرجها له ٠

كانت البقعة الملتمعة تدنو منحرفة من داخل البحر ناحيته ، وأمكنه أن يرى جلدها البنى خلال اقترابها فوجد نفسه يرتعد ، وانحنى فقبض حربته بتردد من القارب وسددها تجاه البقعة المضيئة المتحركة ووقف ساكنا واجف القلب مثبتا قدميه المفلطحتين على سطح القارب الخشبى ، وكان المد المائى قد بدأ يفيض فيغمر ماكشفه الجزر خلال الغروب ، واختفت شعب المرجان حول القارب ، بل ان القارب نفسه ، الذى كان مغموسا فى رمال الشاطئ قد أخذ يعلو ويعوم ٠٠ وكلما زاد المد زاد حجم ما يظهر من جلد العروس البنى ، يتقدم تجاه الشط تسبقه بقعة الشعر الذهبية الملتمعة ، فيزداد خوف عبد ربه ويرجف قلبه ، ويصيح صارخا مناديا أبشر ٠

هل جاء دورك يا عبد ربه ليلتف حولك ذلك الشعر الذهبى يسحبك الى زفاف هذه العروس النهمة فتنضم الى ولد عمك وولد خالك وشقيقك ٠٠ وتذهب الى تلك الاعماق البحرية فلا تعود ؟

هل جاءت ساعتك ياعبد ربه وحانت ٠٠ أم تصمد وتكون رجلا فتحقق ما وعدت وتوعدت وانت الآن خارج الماء فى أمان نوعا من سحر تلك الجنية وغوايتها ؟

ودفع المد جسم الجنية دفعة زائدة فطفرت ، ولاح لعبد ربه استدارة جسدها البنى الضخم وطراوته ٠٠ ولم يعد يفصلها عنه غير أمتار عشرة أو تزيد قليلا ٠٠ ورابه انها ساكنة الجسد رغم انها تواصل التقدم تجاهه ٠٠ فرفع ذراعه بحربته ثم تردد لحظة ٠٠ لعله خشى أن يكون سهلا عليها أن تجذبه من حبل حربته وهو فى موقفه فوق القارب ، فقفز من القارب الى الرمال وتوقف محتميا بجوار صخرة وبدأ يسدد حربته من جديد ٠٠ لكن العروس بدت طافية وكأنها قد تركت جسدها للمد المائى يقوده دون مقاومة ، فيدفع بها

نحو الشاطيء دفعا حثيثا حتى قطعت المسافة الفاصلة بينها وبين القارب واصطدمت به ، حتى اجتازته ·· ثم انقلبت بدفعة من المد فأصبح نصفها على الشاطيء ·

تراجع عبد ربه مرتجفا من حجمها الهائل ، وصوب حربته ولم يجرؤ أن يقذف بها ، وبعد حين مدها ومس العروس مسا رفيقا حذرا فى رقبتها ·· فلم تتحرك ولم تختلج ·

فأدرك عبد ربه كريشاب أن بغيته قد جاءت الى قدميه زاحفة وميتة ·

كان طوال النهار الماضى يستمع الى فرقعة المتفجرات تدوى فى عمق البحر فترتفع مكانها نافورة ضخمة من الماء ما تلبث أن تنهال الى البحر من جديد ، فيسوده السكون حتى يدوى انفجار جديد ·· تلك المفجرات يلقى بها داخل البحر هؤلاء الذين يبحثون عن البترول فى قاعه العجيب ·· قد أصابت تلك العروس فاختنقت وطفت ، وجاءته زاحفه ؟

جرب عبد ربه أن يحرك الوحش الجاثم على الرمال مرة واثنتين، فلم يجد به للحياة أثرا فاقترب وأخذ يتأملها دون خوف ·

كان شعرها الذهبى قصيرا خشنا ، ولابد أن الماء هو الذى يطيله ويموجه ، والضوء يعطيه التماعته ·· وذراعاها قصيرتين جدا ، وصدرها ضامرا لكن حلمتيه بارزتان ·· وبطنها اللحمية مستديرة وناصعة ·· وكان وجهها منكفئا على الرمال ، وبدا له عند نهايتها السفلى ذيلها السمكى مغمورا بالماء ·

قال لنفسه : ما بالها قبيحة تلك العروس فى هزيمتها على الرمل · أتراها تكتسب قوتها وسحرها من الماء والقمر ؟

وحمد حظه انها لم تظهر له وهى حية ، ثم خطر له خاطر شيطانى اندفع الى تنفيذه فأخرج الحبال من القارب ومضى يربط العروس من رقبتها وكتفيها ووسطها ·· وبينما هو يفعل ، أخذ يصيح مناديا أبشر ·· فكلما سمع أبشر النداء يغذ السير داخل الماء متجها الى القارب حتى وصله ·· فراعه الجسد الضخم ممددا على الرمل بجوار القارب بينما عبد ربه يحكم وثاقها بحباله ·

وأبهجه أن يوفى عبد ربه دينه للناس ويأخذ بثأر ولد خاله

وولد عمه وأخيه ، ويرفع عن حيـاته تندر الناس وفكاهاتهم ٠٠ قال عبد ربه انه رآها على حافة المد بينما كان يتتبع الاســـتاكوزا فألقى عليها بحباله ثم ضربها خلف أذنها بكعب حربته فأفقـــدها الوعى ، وبدأ يجذبها الى الشاطىء ٠٠ لكن أبشر قد اســـتراب فى أن تكون الضربة من القوة أكثر مما قدر عبد ربه ، وتكون قد قتلتهـا ، فأكد عبد ربه اغماءها ، قال له جرب أن تدفعها الآن الى الماء ٠٠ استراها تفور وتمور كبركان حى ثم تغوص ضاربة تلك الصـــخور بذيلها المخيف وليس علينا غير أن نبعدها عن الماء فلنصـــعد بها الى ذيل القارب ونحكم وثاقها به ٠

وهكذا تعاونا على جذب مؤخرة القارب وأمالتها الى الخلف بعد أن حفر أبشر أسفلها حفرة متوسطة ٠٠ وأخذا يدفعان بالعروس حتى رفعاها على المؤخرة ، ومضيا يحكمان وثاقها الى القارب من أعلى ومن أسفل ، ومن الامام والخلف ٠٠ حتى استقرت ممددة بجسدها الضخم الطويل عليه ٠٠ ثم مضيا يدفعان بالقارب الى الماء لكن مؤخرته ظلت غاطســـة تحت ثقل العروس الوحشى ، وأبدى أبشر تخوفه من تلك المؤخرة الغاطسة وحمل سمكتى التونة ٠٠ وزكيبتى الاســتاكوزا ، وأحكم وثاقهما على مقدمة القارب ، فارتفع الجزء الغاطس عن الماء بقدر مطمئن ، وأكد عبد ربه أن القارب فى سرعته المندفعة داخل البحـــر ، سيســـاعد تلك الحافة الغاطسة على تجنب الماء ٠٠ فبدأ أبشر يدير الموتور ٠

ولم يلبث القارب أن أندفع داخل البحر ، مخلفا جزيرة الزبرجد وراءه وقد قبع عبد ربه فى المؤخرة بجوار سبيته ، ممســـكا حربته مشددا قبضته عليها ٠٠ مترقبا اسماك القرش المتوحشة ، التى لابد سوف تجذبها رائحة العروس ٠٠ فتتبع القارب متحينة الفرصـــة ، لتهبش ذيلها الضخم الذى ينغمس فى البحر ، كلما مال القارب بين الحين والحين خلال اندفاعه ٠

حتى لاح لهما شاطىء برانيس على البعد ، ولدهشـــتهما كان الشاطىء يلتمع بالنور ٠ نور كثير غير معتاد لم يره عبد ربه فى الميناء من قبل ٠



الفصل العاشر

ما بالك تغرق نفسك يا نيكولا فى تلك التفصيلات الهزيلة التى لا جدوى منها ، بينما أنت تحوم بذاكرتك حول بذرة العلقم التى ألقيت بأهمال فى رمال مدينتك فأثمرت شجرة ضخمة مستفحلة ، أظلت تلك المدينة بالخراب والحزن ؟

لم لا تخوض مباشرة فى اللحم المبلور لبداية المأساة وقد مضت على ذلك الان سنوات كثيرة تتزايد يوما بعد يوم ولا تنقص ٠٠ وقد أصبحت الان بمنجاة من فظاعة التوقع ، وفظاعة الوقوع ، بعد أن وقعت الفاجعة فعلا وكان ما كان ؟

ألم يخامرك الشعور بالخطر فى لحظة بينما يسطع فجأة على ساحة الميناء ذلك الضوء الباهر المنبعث من كشافات عربات الجيب الست المحيطة بسيارة صاحب الجلالة ٠٠ فيكشف الضوء عن ضيوفك عراة أو اشباه عراة ، رجالهم ونساؤهم داخل ماء البحر الدافىء على حافة مينائك الذى لم يخلص بعد من حرارة الشمس الغاربة ٠٠ ويكشف أيضا عن ذلك السماط البدوى الممدود بطول الباحة أمام

الكبائن ، حافلا بالطعام الذى صنعه طهاة الضيوف القادمون معهم من مصر بينما تلتمع الخراف على النار يديرها أبناء الشيخ على ليدفئوها حتى ينتهى الضيوف من حمامهم المسائى الغريب هذا ·

ثم تزايد هذا الشعور بالخطر ومضى يدق داخلك بالحاح وانت ترى اشباح الحرس الملكى بشاراتهم النحاسية واسـلحتهم الملتمعة تحت ضوء الكشافات ، وهم يطأون بأحذيتهم الثقيلة رمال الباحة ، ويصطفون فى مجرى الكشافات التى بقيت مضاءة صانعين بأسلحتهم قوسا ليعبر صاحب الجلالة فى ظله وحمايته ·

ثم ضـاع منك الانتباه لذلك الشعور الداخلى بالخطر وانت تنهض مبهورا بالجلال والعظمة التى صنعها الجند والاضواء فى المكان فجأة ، حول هبوط ذلك الرجل السمين المنصب ملكا ، من سيارته ، ليزور مدينتك ·· وقد وقف تحت قوس السـلاح الابيض تحجبه ظلال الجند عن ضوء الكشافات ، يرقب ذلك القطيع الصغير من رعاياه يخرجون من البحر والماء يتساقط من أجسـامهم اللامعة ، يظللون أعينهم بأيديهم فى مواجهة ذلك الضـوء المسـدد مباشرة تجاههم ، تتقدمهم أقبال هانم دون أن تبذل جهدا لترى ، بل ركزت جهدها فى شد قامتها وأبراز صدرها ، واثقة ان صاحب الجلالة فى بؤرة هـذا الضوء سيراها هى ·· فعليها ان تحسن تقديم نفسها ··

ولكم أسـعدها أنها تكاد تكون عارية ·· بينما كان صاحب الجلالة يضغط بكفه السمينة على أصابعها التى مدتها مسلمة ·

واستأذنت للسيدات فى بضع دقائق للزينة بينما اخذ الخواجه أنطون بك يتقافز فى الضوء أمام الركب معبرا عن سـعادته بهذا الشرف الذى تفضل جلالته وغمره به ··

كانوا يتوقعون جلالته فى الغد ، حين يتحرك مبكرا من معسكره الذى نصبه الحرس على حافة رأس بناس الرملية ، ليواصـل رحلته لصيد الغزال فى وديان جبل علبة ··

فى تلك اللحظات المزدحمة بالمفاجآت والبهجة والحرج ·· وكل مخلوق فى تلك المجموعة مشغول بالتنقيب داخل نفسـه عن شئ يقدمه لصاحب الجلالة ويستميل به انتباهه ، وصل عبد ربه كريشاب بقاربه الى الشط ووقف مبهورا فى دائرة الضـوء يتطلع الى أبشر وأبشر يتطلع اليه ·· فى وجهيهما البدوي سذاجة طاهرة لا حـدود

لها ٠٠ وفى خلفيتهم القارب مغموسا فى الشاطىء الرملى ، تتأرجح على مؤخرته مع المد ، تلك الجنية المسحورة على صفة الاسماك ٠٠
كأنهم بكتلتهم هذه التى برزت على الشـــاطىء فجأة وأحتلت اهتمام الضوء ٠٠ بذرة الفجيعة الاولى تولد فى بطن المكان ٠

وجاء الخبر الى السماط بأن عبد ربه كريشاب قد وصل لثأره وأغوى عروس البحر فأخرجها وجاء بها الى البر ٠٠ فوجدها أحدهم فرصة لتسلية صاحب الجلالة ، فأنطلق يحكى عن عبد ربه كريشاب وثأره ٠٠ وقسمه ووعيده ٠٠ وحين لاحظ احدهم ان الحكاية تستهوى الملك تساءل بمكر ان كان مايزال كريشاب جادا فى قسمه ، فلسوف يسعدهم ان يحضروا زفافه لعروس البحر الليلة ٠٠ فأنفجرت الفكرة على السماط البدوى أمام صاحب الجلالة براقة حافلة بالتشـــوق والغرابة ٠٠ ان يضاجع الرجل سمكة ، حدث لم يشهده جلالته من قبل ، فتحمس الجميع ونهضوا مشـحونين بالمرح الوحشى وتدافعوا تجاه الشاطىء مهللين كأنما يستقبلون بطلا ٠٠ بينما عيونهم الملتمعة بشهـوة الفضول مسددة الى عبـد ربه تكاد تنفب هلاهيله وجسـده وتنفذ منه الى البحر العريض وراءه ٠٠ والى الوحش ٠٠ والى المشهد الخرافى للزفاف المنتظر ٠٠ حتى ملأوا المكان حـول القارب يتأملون العروس المسحورة ويطنبون فى محاسنها ويشدون على يد عبد ربه كريشـــاب وعلى كتفيه ويبالغون فى أطناب بطولته كأنهم يغبطونه عليها ٠

لقد وقف عبد ربه كريشاب بينهم مذهولا فى البدء كأنه أرنب جبلى وقع فى شـــباك مربكة ، ثم بدأت نفسه الفطرية تتلقى التهنئة بزهو وتسعد بها ، وأنطلق على ســـجيته يحكى كيف رأى العروس وتفادى غوايتهـــا وأغـواها حتى اقتربت من البر فضربها وأفقدها وعيها ، ثم تعاون مع أبشر على أحضارها ٠٠

وجاء ذكر القسم القـديم والوعيـد خـلال الحديث ، فلم ينتبه عبد ربه الى الفخ الذى يستدرجونه اليه ٠٠ بفطرته البريئة استجاب لحماســهم ، وقد ظنها فرصة للتحرر من هذا القسم القديم الذى عفا عليه الزمن ، وأنشغل فى دخيلته بمعالجة ضـــميره من تلك الكذبة الصغيرة التى كذبها ٠٠ ان العروس حية وهى ميتة ٠٠ ولاحساســه بالذنب بدأت الشهامة تغلب عليه ويخجله احتفاؤهم الذى يوشك أن

يشعره بأنه لا يستحقه وحينما أدرك أنهم يمهدون للزفاف ويعدون له أسقط في يده ·· ولم يعد بأمكانه التراجع أو المقاومة ! ·

كانت المقاعد قد صفت وتصدر صاحب الجلالة الدائرة ، وسلطت أضواء سيارة على الرمال حيث كان الرجال يمهدون المكان للعروس القادمة التي يشترك عمال الميناء في جرها ·· وحينما توسدت البؤرة تحت الضوء كان جسدها الاحمر قد غطى بالرمل فحمل الرجال دلاء الماء من البحر وأخذوا يصبونها فوقها فأنزاح الرمل تحت دفعات الماء وظهر صدرها الضامر وبطنها العريض اللحمي المشقوق من أسفله ، فتعالت صيحات الاستحسان والتشجيع ، ووجد عبد ربه كريشاب نفسه أسير الضوء الكاشف أمام ملك وحاشيته يحيطونه بحماسهم كأنه بطلهم ، لا يبدو عليهم أن الشك يداخلهم لحظة في أنه سيخذلهم وأنه لن يكون رجلهم ·· فكيف يخذلهم ·· وكيف لا يكون رجلهم ؟ ·

ومضى ينقل بصره المتردد ·· والمرتجف بين السمكة الممددة بظهرها على الرمل ·· وبين البشر المحيطين بها ·· وبدت له المسألة قدرا لا مفر منه فهي لحظة يجتازها رجلا ، ويمضي بعدها بين الرجال متوجا بالصدق والشهامة وبقية المناقب الاخرى ، أو يسقط في براثنها ويعجز ، فلاتقوم له بعد ذلك بينهم قائمة ولا يقدم له أحدهم قدحا في مجلسه ·

وأحرجه السكون والصمت حين سادا في محيط الدائرة كأنهم يعلنون فراغ صبرهم ، وألتقطت عيناه نظرة ملكية من عيني صاحب الجلالة اللتين ظل طوال الوقت يتجنبهما أجلالا وخشية ، فزاد حرجه وبدأ العرق الغزير ينبثق من جسده المرتجف داخل هلاهيله ، فتقدم منه صاحب السعادة الخواجه أنطون بك حاملا كأسا ممتلئا بالويسكي ، وطلب منه أن يجرعه فجرع من الكأس جرعتين ألتهبت بعدهما احشاؤه ، وصعد الدم الى رأسه وأصاب عقله بصمم وقتي ، فمد يده الى تكة سرواله وجذبها وأخذ يخلص منه ساقيه العضليتين ، فأتاح للجميع فرصة قصيرة لاستباحة مراكز رجولته ، ومضى منكس الوجه فأنحنى وألقى بنفسه دفعة واحدة منبطحا فوق الجرم اللحمي للعروس الراقدة ·

شعر بقشعريرة حينما التحم جسده العاري بلحمها الخشن

المبلل ٠٠ فدفن وجهه فى صـدرها الضـامر وأخذ يبكى ٠٠ دون أن يسمعه أحد ٠

وجلس نيكولا صامتا على الطرف المقابل للسيدة أقبال هانم من السماط الممدود ٠٠ وعلى مرمى حجر منهما كان ضوء السيارة المسدد يكشف الدائرة البشرية التى تضم ملكا وباشا وثلاثة بكوات مشكوك فى أصـلهم وخواجه أكيد ، ومجموعة لا بأس بها من رجال الارض والمال يملكون تقريبا ربع الاقتصاد المصرى ٠٠ يزدردون لعابهم مع أكواب الويسكى التى يحملونها طول الوقت بينما يحملقون بشـبق وحشى فى الجسد الاسـود العارى لذلك البدوى المغمور الذى أوقعه المكان فى فخاخ مرحهم المستهين ، وقبل بخلق فطرى أن يلتحم جسده البشرى هذا الالتحام الحميم بذلك الجرم المؤنث المخيف الحجم ، لمخلوق من عالم آخر ٠٠ رخو ولزج ومثير للنفور والاشمئزاز ٠

وقد أخرجت أقبال هانم نظارتها المقربة والمكبرة التى لا تفارق حقيبتها كتحفة فنية أنيقة ودقيقة ، وسددتها الى بؤرة المشـهد ، ومضت تضبط عدسـاتها حتى أمكنها أن ترى العرق الغزير يتدفق من مسام الجسد الاسود لذلك البدوى العارى ٠٠ وان ترى نبض قلبه البدوى يدفع صدره ويملأ عضـلاته النافرة بالدماء ، حتى كادت تسـمع على هذا البعد لهاث أنفاسه ٠٠ وحركت نظارتها الى وجوه الرجال المحملقين بشغف ، وكانت للوهلة الاولى قد تقززت ، فعجبت كيف يثير شهيتهم هذا الالتحام الشـاذ والمقزز ٠٠ ومضت تدقق النظر فى تلك الاعضاء الخاصة للمخلوقين الملتحمين فى بؤرة الضوء ، ولدهشتها وجدت آن ذلك قد بدأ يثيرها أيضا ٠٠

ومن الشرفة المواجهة للسماط ٠٠ أطلت النسـاء بفضولهن النزق ، وسألت أحداهن أقبال هانم عما يحدث فضحكت السـيدة أقبال وأجابتهـا بجملة فاحشـة ٠٠ وبدأت تصف لهن ما يحـدث بالفرنسية بطريقة ماجنة حافلة بالاثارة والتشويق ٠٠ وكأنها تذيع عليهن مباراة هامة ، بين فريقين فى الكرة ٠

ورأى نيكولا أيليا واقفة فى نافذة منفردة فلم يعرفها فى البدء وقد موجت شعرها الذهبى وأدارته حول رأسها وتركت خصـلاته تغطى جانبا من وجهها فبدت أكبر من عمرها ، وكانت مسـتغرقة تتأمل السيدة أقبال هانم ، وتنصت بشغف لوصفها وترمى ببصرها

الى بؤرة الضوء ، حيث كان من الصعب عليها أن ترى بوضـــوح ما يحــدث فيها ٠٠ لكن نيكــولا يدرك جيــدا أن كلمات أقبال هانم ستساعدها على تصوره وضايقه انها تترك نفسها لفضولها ، فنظر في ساعته وأدار ظهره للكبائن ومضى مبتعــدا تجــاه دائرة الرجــال المحيطة بعبد ربه كريشاب ٠٠ وبينما كان يقترب لمح على الســاحل ذلك القارب الذى حمل العروس الوحشية من داخل الماء الى مينائهم يكاد نصــــفه المغموس فى الرمل يدخل فى دائرة الضوء الملقاة حول الحفل الوحشى الماجن ، بينما نصفه الآخر المؤرجح على الماء غارق فى الظلمة ٠٠ ورأى ابشر ٠٠ قابعا فى مؤخرة القارب محتضنا ركبتيه بذراعيه ٠٠ دافسا ذقنه بينهما ٠٠ بينما عيناه الواسعتان الشديدتا الحدة ٠٠ عينا ايسا ٠٠ مسددتان الى وســـط الدائرة ، حيث يلهث عبد ربه كريشاب فوق بطن الوحش منتهيا من واجبه الشـــــاذ ٠٠ فانقبض قلب نيكولا ومال مبتعدا وهو يلوك فى نفسه فى ذلك الشعور بالقلق الذى أخذ ينمو ويتزايد منذ توقعه للضيوف حتى مجيئهم ٠

كان ما يحدث فى مكانه الآن شيئا فوق التصور والعقل ، ورغم بهجته الداخلية بوجود صـــاحب تلك البلاد كلها فى زيارة تشرفه وتميزه ٠٠ الا أن ذلك لم يمنع الضيق أن يستولى على مشـــاعره لاستباحة هؤلاء الرجال مكانه الخاص بنزقهم ٠

وكان عبد ربه كريشـــاب يلهث مايزال عاجزا عن النهوض ، كأنما كان غائبا عن وعيه خلال فعلته وبعد أن انتهى عاد الوعى وأدرك كم هى مشينة ومخجلة ٠٠ فعجز عن رفع رأسه لمواجهـــة كل هؤلاء البشر المحيطين به ، وارتاح لثقل جسده الملقى بتراخ غيرمسئول على جسد عروس البحر ، كأنما هذا الجسم الوحشى كان أرحم به من تلك العيون التى تحملق فيه وتلتهمه بفضولها وتطلعها !

كان فى البداية قد بكى ، وشد البكاء من أزره كأنما قد غسل له نفسيته من الذنب ٠٠ لكنه بعد أن انتهى احس بالفراغ والضياع وعجز عن اتخاذ الخطوة التالية ٠٠ أن ينهض ، فبقى فى مكانه عاريا على بطن السمكة العارية حتى استغرب صـــاحب الجلالة بقاءه فأومأ مستفسرا ، فأسرع الخواجه انطون بك الى وسط الدائرة يســـتطلع الامر وانحنى على عبد ربه كريشاب ثم نهض مندهشـــــا ٠٠ وأعلن أنه مستغرق فى النوم ٠

ونهض الملك فنهض الجميع ، وسرعان ما دار موتور السيارة التى كانت تسدد كشافها على بؤرة الحفل التى كان عبدربه وعروسته هما مركزها ٠
وبدأ ضوؤها ينسحب تاركا عبد ربه وسمكته فى الظلام وأخذ يزحف على الرمال مضيئا لصاحب الجلالة طريقه الى السماط ٠٠ وقد أثار ماحدث شهية الجميع ٠

وجاءت النساء فاتخذ المكان طابعه المفتقد ، وأسبغ عليهن الرجال من الشراب والغزل ما يعوضهن عن غيابهن ٠٠ فأظهرن داريتهن الكاملة بتفاصيل الزفاف الشاذ كأنما هن بذلك يصدمن الرجال فى غرورهم ٠٠ وشاعت بين المجموعة اذاعة اقبال هانم للتفاصيل خلال نظارتها المكبرة ، فابتسم لها الملك مشجعا وادناها منه ٠٠ فوصل الحفل الى حافة لم يعد ممكنا التراجع بعدها ٠
ولعل واحدا من قادة الحرس قد أصدر أوامره فاطفأت السيارات كشافاتها ، فساد المكان ظلام مفاجىء أتاح للرغبات الحبيسة داخل الملابس الفاخرة المحبوكة أن تتحرر وتنطلق وأصبح مسموعا بوضوح فى ذلك الظلام المضاء بالنجوم الشديدة البعد ، صوت السيدة اقبال هانم وهى تتأوه بين الحين والحين بينما تتأود متمنعة مستعذبة تحت تأثير ما يمكن تخيله من أفعال صاحب الجلالة والمهابة ٠
وانفلتت فى الظلام امرأة مارقة من السماط وهى تضحك بخلاعة ، فطاردها رجلها ، وانبثق صوتهما على البعد وهو يلحق بها ويسقطان معا على الرمال ٠٠ ثم اختلطت الاصوات وتلاحمت كأنما هى نغم متسق ذلك الذى كانت المجموعة تعزفه فى ذلك الظلام الخلوى ٠
وقد شذ عن النغم صوت نيكولا ، فتصاعد فى الظلام هامسا مناديا ايليا ٠٠ كان الموقف قد استغرقه لحظة فمضى يتسمع للاصوات فى الظلمة ويسلى نفسه بالتعرف على أصحابها ، وفجأة تذكر إيليا ٠٠ فناداها بصوته المهموس أولا ليتبين مكانها فى تلك المعمعة ولما لم تأته اجابتها تصاعد صوته رويدا ، ثم نهض ملهوفا فجأة ومضى يتلمس طريقه بحذر بين الاجساد باحثا عنها ٠٠ تعثر فى فخذين لزجين واصطدمت ذراعه بصدر عار ٠٠ ولعله لمس عضوا من أعضاء رجل ٠٠ وكان يلهج بالاعتذار فلا يعبأ به أحد ٠

وجرى الى الكبائن ملهوفا فلم يجدها فى غرفتها ٠٠ فأخذ يقفز

بين الغرف باحثا عنها .. وهبط السلم يمني النفس بأن تكون قد نأت بنفسها عن كل هذا الشبق الجنونى .. فمضى الى الشاطىء وهو يناديها .. وخـــلال اسراعه وهرولته تعثر بشىء طرى فانقلب على الرمال بجواره ، وحين رفع رأسه وجد نفسه ملقى بجـوار عروس البحر .. ومايزال عبد ربه جاثما بجسده العارى فوقها .

وكانت ايليا .. وأبشر .. جالســـين على الرمل قبالتــه ، ساكنين فى ذلك الظلام الساكن ، يحملقان فى صديقهما كريشاب وعروسته .

كطفلين ملائكيين جالسين على الرمال المنداة ، وقد الصق كل منهما كتفه بالآخر ، ومضى يحملق فى الجســدين المتناقضى الحجـم والنوع ، الساكنين امامهما على بعد خطوات ، ســـكون الموت .. وهمست ايليا فى اذن ابشر بتوجسها من أن تكون العـــروس قد قضمت رقبة عبد ربه كريشاب ، وأماتته ؟ .

فهز أبشر رأسه الصغير الاسود ، وضيق عينيه الواســـعتين فى وجه ايليا الابيض ، وغمغم بأن السمكة ميتة .. ولابد أن عبدربه كريشاب كان يعرف ذلك ؟

دهشت ايليا ومضت تستفظع ماحدث باسئلة فضولية دفعت بابشر لان يحكي ماكتمه حتى عن عبد ربه كريشاب نفســـه .. هو قد لاحظ منذ البداية أن العروس ميتة وكتمها عن كريشـــاب حتى ينصره أمام نفسه وأمام الآخرين .. وهاهو كريشـــاب الآن يدفع ثمن كذبته .

وسقط نيكولا أمامهما فانتبها ونهضا متلاصـــقين .. فأمرها وهو ينفض الرمال الرطبة عن بنطلونه أن تذهب لفراشها فمضـت تحملق فيه كأنما تواصل اندهاشها مما حدث بأجمعه . هل يعـرف هو مثلما تعرف هى أن عبد ربه كريشاب قد زف نفسه الى سـمكة ميته ؟ .

ولاحظ نيكولا جمودها فدنا منها مبتســـما وربت على خدها الرقيق ، وغمغم بانها ماتزال صغيرة بعد ، لترى كل ما حدث فأبعدت ايليا خدها عن كف نيكولا الممتدة وشـمخت بأنفها ، كعادة أمها ايليا الكبرى حين كانت تحتفظ ببراءتها .. واستدارت مبتعدة دون أن تنبس بحرف .. كعادة أمها ايليا الكبرى حين تضـــبط مخطئة ، فتشمخ بانفها مبتعدة لتلقى بوزر الخطأ على نفسية من يضبطه .

فهز نيكولا رأسه معجبا ، وتابعها لحظة ببصره ثم جذب ابشر من دراعه وانحنى على عبد ربه ومضى يهزه من كتفيه ، ثم قلب وجهه ومضى يصيح فى آذنيه .. دون أن يتحرك عبد ربه من غشيته .

كان يتنفس بهدوء كأنه غارق فى نوم طبيـعى تمـلأه أحـلام بهيجة ، وعلى شفتيه كانت مرتسمة ابتسامة زهو وبراءة فاستولى على نيكولا قلق داخلى .. لعله قد أدرك أن اللعبة قد مست عقل الرجل .. فأمر ابشر أن يمـلأ الدلو من البحر ويحضره .. ومضى يبلل وجه عبد ربه ورأسه ورقبته ، ويدلك بالماء البارد صدغيه وجبهته .

بينما خلعت ايليا حذاءها ومشت متباطئة تشق الرمل بقدميها الصغيرتين وقد نكست رأسها تتابع بعينيها حركة قدميها وتفكر فى كلمات والدها .. أصغيرة هى حقا ، أم هو فى قرارته يفضل أن تظل صغيرة ليستأثر بها ؟! .

ألم تتسرب الى اذنيها فى مدرسـة الجالية بالقاهرة حكايات زميلاتها الكبار عن ليلة السبت والاحد فى قاعة الموسيقى بالمدرسـة وفى حدائق البيوت ؟ .. الم تقرأ مع زميلاتها كتبا ويشاهدن صورا ويتبادلن الفكاهات الخليعة والنكت ؟ فما الذى يظن بابا نيكـولا العبيط هذا أننى سأتعلمه من حفلته ؟

ليست خلاعة السيدة اقبال هانم وزميلاتها ، ولا غزال الرجال ومجونهم هو الذى كان يستهويها .. ولا حتى التحامهم فى الظلام وصراخهم الشبق ! .

انما كان يستهويها منذ البدء وجود الملك .

أن ترى عن قرب ملكا وتتأمله .. وهاهى حتى امالها فى الملك تخيب .. فلا فرق بينه وبين أى رجل من الحاشية ، سوى تلك الهالة من التبجيل والتفضيل التى يتطوع الجميع بتقديمها له . لاتدرى لم .. ربما خشية وخوفا من أن يأمر بقطع رءوسهم كما قرأت مرة فى اسطورة ملك ! .

كانت مستغرقة فى خواطرها تسـتمتع فى دخيلتها برجفة البرد اللذيذة تتسرب الى جسـدها بينما قدماها تشـقان الرمل وتغوصان فيه حتى تصلا الى الدفء المستكن فى جوفه ثم تصـعدان الى السطح البارد وتشقانه من جديد .. حينما رآها ذلك الوصيف الخاص للملك .

كان واقفا فى الظلام يلمع منه سيجاره المعلق بالفلتر الطويل الانيق ، يتطلع بزهو الى السماط الذى ســادته الفوضى وانقلبت مقاعده بالجالسين عليها على الرمال حوله ، يصــخبون ويلهثون ، ثم يمد بصره ليصل الى البقعة التى يشع منها ضوء مولاه ٠٠ فيرى هــذا المولى مسترخيا بهيكله المهيب على الرمل بينما قد تعلقت اقبال هانم بأطرافه كأنما قد سمرت به ٠٠ فلا يدهشه مايحدث أو يثير شهيته ، انما يدفعه لتقدير ما بقى من الوقت لينتهى مولاه مما يشغله الآن ٠ ليبدأ فى الاعداد لما يشغله بعدها ٠٠ ففى الفجر ســتتحرك القافلة بصاحب الجلالة مخترقة وديان الصحراء وجبالها الصخرية الموحشة الى وديان علبة المزهرة ، فيطارد جلالته غزالة أو غزالتين تعود بهمـا القافلة مزهوة مظفرة ! ٠

ورأى ايليا قادمة من تجاه الشاطىء تضىء البقعة المظلمة حولها بوجهها الابيض وشعرها الذهبى فانتبه ٠٠ تلك نبتة برية طالعــة عليه من ظلمة الشاطىء تفوح منها بوادر نضج شهى ، استجابت له خبرته الدفينة واهتزت كما يهتز بالشهوة قلب رجل ٠٠ لكن قلبه الخاص كان يهتز بالشهوة لرجل آخر ٠٠ كان لعابه الداخلى يســيل على ضحيته بينما عقله يتصورها مبسوطة كقربان بين ذراعى مولاه وولى نعمته ٠٠ كأنما هو يلتذ بلذته ؟ ٠

رآها مقبلة ٠٠ كشجرة شــهوة فواحة لم تخرج بعد ثمارها فجرى عقله المدرب المأجور مجراه المتوقع والمعتاد ٠٠ وتصورها وجبة الحلوى على مائدة صاحب الجلالة ، فى خيمة الصــيد بوادى علبه ، الحافلة بأطباق لحم الغزال المنقوع فى النبيذ قبل أن يشــوى ٠ ذلك الغزال الذى صــاده ذلك المولى ، أو صاده له الصــحاب وأوهموه بصــيده ٠٠ ليعلقوا جلده على طرف المائدة الى جواره علامة ايثار وتفــاخر ٠

وبينما كان يجرى بعينيه متفحصا ايليا المقبلة مفكرة مستغرقة ٠٠ أمكنه أن يرى بذاكرته شارب صاحب الجلالة الانيق والمدبب ، تهتز ذؤابته وتتراقص حول ابتسامة الرضا والطمع ، التى سيغدق منها جلالته على ايليا ٠

واقترب منها مغمغما : ألست ايليا ؟ ٠٠ ســمعتهم ينادونك بذلك ٠٠ ها ٠ ٠ ابنــة نيــكولانت ؟ ٠ ٠ ما أجملك ٠٠ فلأقــدم

مشروبا يمنحنى فرصة التطلع اليك ·

وقادها من يدها التى تحمل حذاءها ، الى جانب السماط مقتربا بها ، بمكر ناعم ولبق ، من بقعة الالتحام المثير على الرمال ، وهو يغمز بعينه متوددا فخفضت عينيها الى الرمال بخجل ·· لكنها لم تغلق اذنيها عن تلك الهمسات الصاخبة ، والصرخات الخافتة المختلسة من الصمت بين المقاعد المقلوبة حولها ·

وناولها كأسا من خمر مخففة ·· وشربا فى نخبها ، بينما يستدرجها للحديث عن مدرستها فى القاهرة ، وحياتها الصيفية فى الصحراء ، وطموحها ، وأحلامها ·· وببراءة طفلية وصراحة تكاد تكون مغرورة ومتكبرة انطلقت ايليا تحكى عن نفسها وعن الآخرين بمرح ·· فزاد اقتناعا بفراسته ·· فتحت هذا القناع الباهر للجمال الطفولى الطازج النضج ، الذى تظهر به تلك الايليا الصغيرة ، توجد امرأة شديدة المراس لم تكتشف بعد ·· فقرر أن يقودها من غرورها ·

لقد قدم لمولاه مئات العذارى من قبل كهدايا مفاجئة أو متوقعة على شواطىء اخرى كثيرة فى العلمين ورأس الحكمة والمنتزه وغيرها ·· وفى الكبائن الصحرواية فى حلوان والمقطم والاسماعيلية وتحت سفح الهرم ·· وكن جميعا اقرب للاستسلام من طول التوقع ، منهن للمقاومة التى يأخذها مولاه مأخذ الفواتح لشهيته ·· وقدر ان الامر تلك المرة سيكون مختلفا مع ايليا هذه ·· فبدأ يحدثها عن رحلة الصيد التى سيقومون بها فجرا ·· فقالت ايليا ، انها ذهبت مرة مع والدها نيكولا والخواجة انطون بك فى رحلة صيد بوديان علبه هذه وصادوا غزالة صغيرة أطلقوا عليها اسمها ·· وأهدياها لها ·· كانت ترتجف دائما وتبدو مذعورة فبنت لها قفصا كبيرا من الخشب الرفيع بلون الرمال ، فى جانب من الباحة فى الدرهيب خلف الكبائن ·· لكنها ماتت ·· فقال لها أن مولاه صاحب الجلالة سوف يهديها غزالته التى سيصيدها لو ذهبت معه ·· فلن يجد مولاه فى الركب سواها يستحق غزالته ·· ووعدها أن يعمل على اصطحابها فى حاشية الملك ·· فلم تظهر اهتمامها ·· ورجحت أن بابا نيكولا لن يوافق على ذهابها ·· فأكد لها أن بابا نيكولا اكثر ذكاء ولباقة من أن يعترض على رغبة الملك ·

واومأ لها ناصحا بالذهاب للنوم فورا ، لتحتفظ بنشاطها حتى يوقظها عندما يتهيأ الركب لرحلة الفجر المبكرة ·



الفصل الحادى عشر

فى الفجر دق الخواجة انطون بك ، باب الكابينة على نيكولا وأخبره أن صاحب الجلالة يطلب ايليا لترافقه فى رحلته ، فبهت نيكولا وشحب .. فأشار أنطون لما يعنيه مصاحبتها لصاحب الجلالة من رعاية وشرف .

ولم يكن نيكولا قد نام اكثر من ساعة فوقف بالباب مؤرجحا بين النوم واليقظة ، يواجه هذا الموقف المفاجىء ، المزدحم بآلاف المحظورات .. وبالرغم من السمة الحضارية التى اتسمت بها الدعوة الموجهة لايليا .. ورغم الزهو والحماس الذى جاء بهما الخواجة أنطون بك ، ليطلب ايليا ويتعجلها . ورغم البساطة والبراءة والتلقائية التى أطلت بها أيليا من مخدعها فى هذا الوقت الشديد التبكير ، لتلبية دعوة صاحب الجلالة .. الا أن شيئا فى داخل نيكولا أخذ يتقلص وينقبض، ويتقلص وينقبض .. وتمالك متحاملا على ارادته ليواجه الموقف بما يليق برجل يتلقى شرفا من ملك .. شرفا لا يجرؤ أن يظنه مشوبا بالتوجس أو الريبة !

وكانت السيارات قد هيئت يتقدمها الحرس ، وركب صاحب الجلالة مفسحا لايليا مكانا في سيارته فخرجت مزدهرة مشرقة طفلة ماتزال ٠٠ لكنها طفلة ناضجة ٠٠ لبست رداءها الصحراوى المعتاد وقفزت سلالم الكابينة الى الرمال بمرح ، ودلفت دون تردد أو وجل فى سيارة الملك ٠٠ ولوحت لبابا نيكولا بأصابعها النحيلة الجذابة ، ولم يكن فى رأسها أى خاطر من تلك الخواطر التى تزاحمت فى رءوس المحيطين بها ٠

وسار انطون بك مبتعدا عن نيكولا وهو يفرك كفيه ويقول لنفسه : « أنت سعيد الحظ يا أنطون ، لقد ولدتك أمك سعيدا » !

لقد غمز له الوصيف بعينيه محييا وهو ينطلق بسيارته وراء سيارة صاحب الجلالة التى تحمل ايليا ٠٠ آه ٠٠ ما أشهاك يا أيليا ٠٠! واستطاع أن يقرأ فى تلك التحية المشوبة بالخلاعة اسمه مكتوبا فى قائمة مقدمة للملك ٠٠ مسبوقا بلقب باشا ٠٠ ألم يأخذ على عاتقه اقناع نيكولا ببراءة المسألة ليوافق على رحيلها ؟

ذلك هو العصفور الاول : انطون باشا ٠

وتصبح صاحب السعادة التى يستخدمها الناس مجاملة له،من حقه فعلا ٠

أما العصفور الثانى ، فكان أيليا نفسها ٠٠ !

هاهى ايليا الشهية ثمرة للقطف على شجرتك ، قال ذلك وهو يجتاز البلوك الخشبى للمخازن والورش ، ويصعد فى الرمال وراءها ٠٠ كان راغبا أن يخلو لنفسه فمضى يخوض العشب الشوكى المتشابك فى تلك الهضبة المهجورة خلف الميناء حتى وصل الى الشاطئ البكر ٠٠ وكان يقفز أحيانا بحيوية ومرح للتعبير عن سعادته ، وبعدها يقعى على الرمال محتضنا صدره بركبتيه النحيلتين ليلتقط أنفاسه ٠

أنت سعيد الحظ يا أنطون يا ابن مليكه ، لقد ولدتك امك سعيدا ، فأعطاك الرب نيكولا ، وأعطاك نيكولا منجما وأعطاك ميناء ٠٠ وجاءك بأيليا ٠٠ وها هى ايليا تجيئك بالباشوية فى رحلة واحدة ٠٠ رحلة واحدة فقط لن تتكرر فمولانا ملول وسريع السأم ٠٠! وبعدها تعود ايليا خالصة لك ٠٠ آه ٠٠ ماأشهاك يا ايليا !

لقد مضت سنوات خمس وانطون يشتهى ايليا ، وينتظرها ٠ سنوات خمس ، منذ كانت أيليا جنية ساحرة لم تتخط العاشرة بعد ،

فى بيته العتيق بجاردن سيتى المحروم من الجنيات ‥ ورغم هـــذه السنوات الخمس فما يزال عبق جسمها الصغير الشهى يملأ حواسه ، مدخرا من تلك الامسيات التى كانت تنحنى فيها عليه لتعطيه قبلتها البنوية قبل نومها ، تحت سمع وبصر زوجته ، التى لايمكنها أبدا ان تقرا خواطره وأفكاره ·

أمسية بعد أمسية وسنة بعد سنة فى ليالى الشتاء والربيـــع المدرسية ‥ والخواجة انطون يرى بجسارة وجرأة نمو تلك الابنـــة الضـــيفة ويرقب اكتمال جسدها طفرة بعد طفرة تحت غـــلالة نومها الملائكية !

خلال تلك الامسيات المختلسة من زوجتـــــه التى لايمكنها أن تمسك بخواطره وأفكاره ، اشتهى الخواجة أنطون ايليا الصـــغيرة ، ضيفته ‥ وابنة نيكولا ، ذراعـــه ‥ وحـــلاله مايختلســـه من زوجته القعيدة العاجزة عن الحركة ‥ فركب جواد خياله فى تلك الامسيات وداعب جسد ايليا واخذ يكتشفه ومضى به جواد الخيال بعيـــدا فى كثير من الاحيان وغازلها ‥ لكن النهار كان يطلع على خيالاته دائمـــا فاذا هى أيليا التى يعرفها ‥ طفلة نيكولا التى لايجرؤ أبدا على تلويث طهرها ·

وكثيرا ما جفل به الخيال أكثر من مرة حينما حاول أن يقـــدم فى وضح النهار ، على اشتهاء ايليا ‥ خارج نطاق تلك القبلة البنوية التى تعطيها له قبل نومها ‥ وعجز دائما عن اقتحام تلك الهوة المكونة من العمر والبراءة ، التى تفصل بينهما !

سنوات خمس وهو يحسب المسألة على هذا الشكل : حين تبلغ ايليا الخامسة عشرة تكون انت قد بلغت الخمسين يا أنطون ‥ فماذا يتبقى أمامك ‥ ؟ زوجتك القعيدة ستكون قد احتملتها عشرين سنة ، دون أن تنجب لك ‥ قد تموت قبل ان تبلغ ايليا الخامسة عشرة ، وقد تبقى فلا عليك ‥ لقد اخذت منك ما يكفى ‥ وما بقى فهو لك ، فلتتزوج ايليا ‥ نيكولا صديقك وشريكك وذراعك أيضـــــا ‥ فلتتوسل اليه أن يزوجك ايليا حين تبلغ الخامسة عشرة ·

خمس سنوات أخرى أو عشر يا أنطون تعيشها مع ايليـــا · وبعدها تبلغ انت الستين وتبلغ هى الخامسة والعشرين ‥ وتبدأ هى من حيث تنتهى انت ، لايهم ، الا تكفيك السنوات العشر ؟!

ومضى يرقص طربا على الرمال المبللة ، فانزلقت قدمه وخاضت فى مياه الشاطىء ٠٠ ودهمت موجة حنون ساقه المكسوة بحـــذائه وبنطلونه وجواربه ، فزاده ذلك طربا على طرب ٠٠ انت سعيد الحظ يا أنطون ، لقد ولدتك امك سعيدا فأعطاك الرب نيكولا ، وأعطـــاك نيكولا ايليا ٠

وها انت يا أنطون الســـعيد تضرب عصفورين بحجر واحد فتشترك فى تدبير ذهاب ايليا مع صاحب الجلالة ، فتحصل بذلك على لقب باشا ٠٠ وفى نفس الوقت يتفضل صاحب الجلالة ويكسر ذلك الحاجز المكون من العمر والبراءة الذى يفصلك عنها ؟

ولن تكون بحاجة لان تتوسل الى نيكولا ذراعك وصديقك فلربما ساعتئذ يتوسل هو اليك ٠

وجرى صاحب الســـعادة ، على الرمال عائدا وهو يجمع فى طريقه حبات البشبش الملتمعة المبللة ، تســـكن حركتها كلما دب بجوارها ، وتعود للحركة كلما سكن ٠٠ كان يقفز بنحوله الملحـــوظ قفزات غير مدربة ٠٠ فيهتز كأنما ينفض وقاره واناقته عنه ٠٠ ثم يعود لنفسه لاهثا ، ليعاود الكرة من جديد ٠٠ وحينما لاحظ خروج العمال من بلوكات الورش ، يقودهم الريس حفناوى لشحن ما بقى من خامة التلك على الشاطىء لملم نفسه نهائيـــا ٠٠ والتحف بتحفظه الرتيب البارد ٠ وحياهم مشجعا وهو يدلف الى سلم الكابينة متجها لغرفته ٠

ونام أنطون بك حتى الظهيرة ، حـــين أيقظه الدق ٠٠ فنهض متحاملا ليجد الريس حفناوى يطلبه على عجل ٠٠ وقاده حفناوى الى غرفة نيكولا ودفع الباب فرأى رأس نيكولا مدلاة من حافة سريره ٠٠ تسيل على رقبته خيوط دافقة من العرق وتنحدر على ذقنه وأذنيه ٠!

كان الخواجة أنطون قد غادره ، فبقى وحيدا على سلم الكابينة وقد صعدت معدته الى حلقومه ، وركبتيه ترتجفان ٠٠ يجذبه للانهيار شىء فى داخله ، على عتبة هذا الفجر الدامى المعلق فى الأفـق فـوق سطح البحر مباشرة ٠ فوق هذه الرمال المنداة ، التى ما تزال تحمل آثار قدمى ايليا الصغيرتين اللتين سارت بهما الى سيارة الملك وقفزت فيها ٠

ومال برأسه على حاجز السلم ، وبدأ يفرغ جوفه ، وحين انتهى

شعر برأسه يدخل فى الدوار ، فتحامل على الجدران · متخبطا حتى وصل الى فراشه فارتمى عليه ·

لعل ماأخذ يعبه من خمر طيلة الليل وحده ، يسحبه الآن الى الغيبوبة ·· لكن ما باله يرتعد كأنه درويش لبسه الوصول والاتصال ؟ ·

ومضى نيكولا يواصل زحفه على جدران الغرفة الخشبية مصطدما بالارفف والمقاعد ، حتى وصل الى الدولاب ، وأخرج منه غطاءين اضافيين ·· ضمهما الى غطائه ·· ودخل تماما فى الغيبوبة ·

رأى نفسه عاريا مع أبيه فى حمام تركى ·· وبدأ الحوض الكبير المليء بالماء الساخن وكأنه وعاء كبير جدا من الفضة يغلى على نار جهنمية لا ترى ، فيتصاعد البخار ويتكاثف ، وتتلاحم مجموعاته فتلد أباه عاريا وتلده هو ايضا عاريا ، وتلد كل هؤلاء النساء والرجال والاطفال الذين يراهم فى الحمام التركى معه · · يصنعون اختلاطا حميما وتلاحما بين الاجساد العارية المكسوة بالبخار الكثيف ، يموه عريها ويضفى عليه الغموض والسحر ·· وشعر بنفسه خفيفا كفقاعة محمولة على هذا البخار الكثيف الذى يتحول الى سحب ·· ثم تختفى جدران الحمام المكسوة بالرخام النقى ، لتنطلق تلك السحب فى سماء زرقاء لا متناهية ، فيشعر نيكولا بنفسه متطايرا ومتجاوزا الى ابعاد يعجز الوعى عن حصرها حتى تسقطه السحابة التى تحمله عاريا فوق جبل ، بينما عرق الحمام التركى وماؤه لايزالان يقطران من جسده الهلامى !

كان الوقت ربيعا ، وكان الجبل مزهرا مطلا على البحر · يترامى عند سفحه واد لا قدرة على وصف اتساعه ·· ملء بالجمال ·· جمال عارية بيضاء فى لون اللبن ، وصفراء فى لون زهرة الحنظل الصخرية وسمراء تميل الى الحمرة ، عجب الوانها على تلك الرمال الذهبية المفرطة فى النقاء · وأعجب منها عناقها ·· تلك الرقاب الطويلة تمتد وتتمايل وتتبادل الغزل برءوسها الصغيرة ويلف كل منها عنقه على عنق الآخر ثم يتلاصقان ويتجاذبان وكأنما كل منها يدلك للآخر رقبته ·· ويبث رأسه الصغير مشاعره ونجواه ·· وراى أيسا وهو يحكى له عن البناجير* والهجين وبقية سلالات الجمال الاخرى المتفوقة ·· وكيف يطلقونها فى هذا الوادى ربيع كل عام ·· عارية على الرمل بجوار البحر ·· تتعارف وتتجاذب وتتبادل العناق والحب ·· ويقضى كل جمل وطرا من ناقته ·

وقد يأخذ احد الجمال امه ٠٠ أو تأخذ ناقة شقيقها !

ثم رأى نيكولا نفسه يغادر هذا الجبل الذى القت به السحابة فوقه ، مرتديا ثياب ملك أشورى قديم ٠٠ يرفل فى أبهة الملك وعظمته متصدرا كوكبة من عظماء المملكة يحتفلون ببدء موسم سيريس الهة الزرع والخصب ٠

ورأى عجوزا تتسلل اليه بين المحتفلين ، تحدثه عن فتاة فى سن ابنته أخذت تمتدح صباها ونضارة جمالها ٠٠ وتزين له الامر قائلة أن زوجته الملكة ستظل غائبة عن فراشه أيام الموسم العشرة ٠٠ فما الذى يمنعها ان تقود الى هذا الفراش تلك الصغيرة التى شغفت به حبا حتى أوشك أن يهلكها الحب ؟

وراى نيكولا الغائب نيكولا الملك يتلمظ شهوة ، فمن اين له وقد قارب الشيخوخة ، أن تعشقه جارية فى سن ابنته ٠ ورأى نفسه فى خيمة الديباج الاحمر الوفيرة الدفء وحورية مختبئة الملامح فى حريرها الدمشقى ٠ تنضو عنه ثيابه بأصابع بهجتها ولهفتها ، وتحمله على أجنحة عطائها فيغمض عينيه هياما ونشوة ٠٠ مستسلما بأكمله لها ، مستسلمة بأكملها له حتى تتوحد نشوتهما وتتقد فتأخذهما الغيبوبة السحرية معا ٠

قال حفناوى انهم انتهوا من نقل الخامة الى السكونر دون أن يظهر نيكولا ، على غير عادته ٠٠ وحين تهيأت السكونر للرحيل ولم يظهر نيكولا أيضا ذهب اليه فى غرفته وحاول أن يوقظه ٠٠ يهزه من هنا فيميل معه ، ويهزه من هنا فيميل معه ، دون أن يتحرك له جفن ، أو حتى يصدر عنه نفس ٠٠ فأقترب الخواجة انطون من نيكولا حتى لحظ تنفسه ٠ فأطمأن وطمأن حفناوى ، وتعاون الرجلان على تعديل نومته ، فلاحظا أن جسده شديد البرودة ، رغم العرق الغزير الذى يتصبب منه ٠

وغمغم الخواجة انطون لنفسه بمكر انه كان يظن الايطاليين أكثر تساهلا لكن يبدو أن نيكولا فعلا قوقازى ٠ ولا بد تؤرقه الآن رحلة ابنته مع الملك ٠٠ ثم عدل من وضع الاغطية حوله وهو يخبر حفناوى بأنه أجهد نفسه فى اليومين السابقين ، وظل فى الليلة الماضية صاحيا الى الفجر ٠٠ واقترح أن يتركاه نائما ٠

وجذبا الباب خلفهما على نيكولا الغائب فى اللحظة المشبوبة التى كانت ابنته تعريه فيها بأصابع لهفتها وبهجتها من ردائه الملكي لتلتحم به ٠

الفصل الثانى عشر

دخلت ايليا عالم المحظورات دون توقع أو شـــغف ، فلم يتح لروحها الطفلة ان تترقب أو تتوقع ، فحتى دنيا المراهقة التى تصنعها زميلاتها الأكبر عمرا فى المدرسة ، أخذت منها موقفا محايدا ٠٠ فـلم يشغفها يوما شيء ، قدر شغفها بانتهاء الدراسة ، للقفز فوق زميلاتها وفوق المدرسة ، وفوق بيت العم انطوان فى جاردن‌سيتى ٠ للقفز فوق هذا جميعه ، وعبر المدينة العاصمة كلها ٠٠ الى الصـــحراء ٠٠ الى الدرهيب ٠٠ حيث يقيم بابا نيكولا ، وحيث يتاح لجسدها الطفولى وروحها البريئة ، أن تتحرر وتنطلق ، كنبتة أنثوية شـــديدة النقاء والنعومـــة ، على الرمال ، عند أعتاب مياه البحـــر الشـــفافة ، بين تلك الصخور الفائقة الخشونة ٠

وهكـــذا عبر جسر مما تحبه ايليا وتهواه ٠٠ فى ذلك المناخ الصحراوى الذى كانت تزهو بطفولتها على الضيوف فيه لخبرتها به ٠٠ انزلقت الى عالم المحظورات خطوة بخطوة دون أن تشعر بالخطر حين امتدت كف صاحب الجلالة تربت على خدها وهو يسألها عن اسمها وعمرها ٠

لم تنتبه ايليا للرجل المجاور لها ، هذا المسمى بالملك ٠ وكان انتباهها لكل الجلال والمهابة التى تحيط بالسيارة التى تجلس فيها الى جانبه ٠٠ وراودها الشعور بأن هذا الجلال وهذه المهابة انما هى فى الحقيقة لها ٠ واحتوتها تلك النشوة المنبعثة من خيالها ، وغذى عطف الملك ورعايته لها طوال الرحلة هذا الخيال فأستغرقها ٠٠ ولم تشعر بمشقة الرحلة ٠٠ كما لم تشعر بما استغرقته من وقت ٠٠ وفى وديان علبة رفع الحرس ذلك الغطاء الجلدى عن سيارتهما فوقفت الى جوار الملك وهو يبدا مطاردة الغزال بسيارته ٠٠ ممثلئة بذلك الشعور بالتميز الذى يغذى دائما غرورها البرىء الطفلى ٠٠ كأنما هى ملكة حقيقية تطل على شعبها ، كما شاهدت فى صور المجلات والكتب المرسومة الملونة ٠

بل انها حتى فى تلك اللحظة الخطيرة والحاسمة بعد الصيد بساعات ، حينما احاط الملك خصرها الدقيق بذراعه السمينة وسار بها الى خيمته المنفردة المضروب حولها نطاق من الحرس كانت مستغرقة فى وهمها ٠٠ فأستسلمت لذراعه الملكية بأناقة تليق بملكة ، ودخلت شامخة وهى تومىء برأسها لرجال الحاشية الذين وقفوا على مبعدة ، متظاهرين بالانشغال فى كئوسهم وطعامهم ٠

كانت مسحورة بالرحلة ٠٠ مسحورة بالصفوة من حاشية العصر المحيطة بها ٠٠ مسحورة برعاية الملك واهتمامه بها ، مسحورة بالخمر التى كرر الجميع رشفها فى نخبها ٠

وصنع رجال الحرس ضجة مهيبة ، وهم ينتبهون بأسلحتهم تحية لعبور الملك وعبورها معه ، وأقاموا بأجسادهم المكسوة بثيابهم البيضاء والزرقاء وأشرطتهم الملونة حاجزا بين الخيمة والحاشية ٠٠ وحينما حملها صاحب الجلالة بذراعيه الضخمتين من باب الخيمة الى الى الفراش الوثير المنصوب فى صدرها وهو يداعب بشفتيه وجهها الدافىء الملتهب بالانفعال ، أدركت ذلك المحظور الذى انتهت اليه ، وبدأ عقلها يعمل بسرعة ، طاردا الخوف من نفسها ٠

لقد ألبسوها منذ البدء ذلك الجو النفسى الخاص بملكة فعاشته ببراءتها ٠٠ وعليها الآن أن تدرك أنهم خدعوها به ، ليساعدها الوهم على تكريس جسدها الصغير لفعل لم يتهيأ له ٠ !

ولم يعد أمامها غير أن تصبح وتصرخ ، وتتصرف فعلا بما

يلائمها كطفلة ·· حيث لن يستجيب أحد خارج تلك الخيمة لصياحها وصراخها ·· أو تستجمع شجاعة أكبر من طاقتها وقدرتها ، لترتدى دورها الوهمى الى نهايته ·· وتقبل ذلك الفعل كما يمكن ان تقبله تلك الملكة التى أوهموها بها ·

وهكذا تشبثت ايليا الصغرى بعنادها الموروث من نيكولا ومن ايليا الكبرى ·· وحركت ذاكرتها الى دنيا المراهقة التى اتخذت منها موقفا محايدا فى المدرسة ·· والى تعليقات اقبال هانم على زفاف عبد ربه كريشاب وسمكته ·· بل واستعادت أيضا صورة ذلك الالتحام الغريب الذى كانت تتأمله بجوار ابشر لكريشاب وسمكته الميتة التى يعرف انها ميتة ، ومضت تقارن بين جسدها الصغير الدقيق ، وبين جسد صاحب الجلالة الضخم ·· وحين تعرى من ملابسه الملكية ، أخذت تقارن بين جسده الكثيف الشعر وبين جسد السمكة ·

ومضت فى تمثيل دورها بشجاعة نادرة تفضل صاحب الجلالة واثنى عليها بعد ذلك بين خلصائه فى مناسبة مشابهة الى أن هاجمها الألم فجأة فاختلطت في رأسها الصور ، وعضت نواجذها على طرف ثوبها ·· لكن الالم أخذ يستمر ويتزايد حتى أفقدها الوعى ·

لم تدر ايليا كم بقيت غائبة ، وعندما انتبهت وجدت نفسها مطروحة على الفراش الذى يتصدر الخيمة ، غير مغطاة أمام عينى صاحب الجلالة الجالس بجوارها يدخن سيجارا فظيع الرائحة ·· وعند اقدامهما وقف الوصيف منهمكا فى حديث بدأه مولاه حينما استدعاه وهى نائمة ·· ففزعت وحاولت أن تلملم ساقيها فعاودها الألم ·· فانحنت على نفسها وتدفقت الدموع من عينيها حارة وغزيرة واخرج الوصيف من جبيبة قلادة من البلاتين يتوسطها فص من العقيق ، دلاها بين أصابعه بعناية ورقة ودنا بها من ايليا ، فما كاد يقترب بوجهه منها حتى انتفضت فجأة كقطة متوحشة وخمشت وجهه بأظافرها فنزعت عنه ابتسامته الجليدية ·· وأسالت خيوطا من الدم القانى مكانها ·· فتراجع مفزوعا وكفاه على وجهه المجروح ، بينما انطلق صاحب الجلالة مقهقها ·

وقفزت واقفة ومضت ترتدى ثيابها بصلابة وهى تتجشم

عناء لامساك دموعها ، وحينما انتهت واجهت صاحب الجلالة بعينين تفيضان بغضا ٠٠ وطلبت منه أن يأمر باعادتها الى والدها ، فكف صاحب الجلالة عن ضحكه ، ومضى يؤنب الوصيف لازعاجه ايليا بقلادته السخيفة حتى دفعها لأن تطلب مغادرتهم ٠٠ وأمره أن يكلف ضابطا من الحرس بتجهيز سيارة تعود بها على الفور ٠

ونظرت ايليا من السيارة وهى تدخل الميناء ، تتمنى لو يخلو من الجميع فتتسلل دون أن يراها أحد الى فراشها ، لكن نظرتها الى الميناء كشفت فشل أمنيتها ٠ وهكذا اضطرت أن تهبط بتعبها وهمومها بين هذه العيون المتعددة التى وقفت لها ٠٠ تحدق فى وجهها الشاحب وساقيها المتهالكتين ٠ ٠ فلم تميز بينهم سوى صاحب السعادة الخواجة أنطون بك ، والدها الشتوى خلال فترة الدراسة بالعاصمة ، وداخلها قدر من الطمأنينة فأباحت لدموعها أن تعود وتتفجر من عينيها الساخنتين ٠

كان الضابط المفرط الحياء والادب ، قد أعلن أن الآنسة اصابتها وعكة مفاجئة اضطرتها للعودة وقطع الرحلة فأومأ له أنطون بك شاكرا وتناولها منه ٠ ٠ ولم يزد فى سؤالها ٠٠ بدا كأنه قد فهم ماحدث وكأنه أيضا يلتمس لها العذر فيه ، فأراحها ذلك أيضا ٠

كانت متهالكة الساقين فعلا ، تتعثر فى سيرها وكأن السير يصيبها بألم ٠٠ فاحتواها انطون بك بذراعيه احتواء كاملا ، ومضى بها الى فراشها المجاور لفراش نيكولا فى غرفته ٠ وكانت ايليا قد تنازلت للضيوف عن غرفتها طوال بقائهم ٠٠ ثم رفعها قليلا الى الفراش ، وساعدها حتى تمددت ، بينما قلبه يلهث انفعالا ورغبة ، وألقى نظرة على نيكولا الغارق فى الغيبوبة على السرير المقابل ، وتوقف لحظة يحدث نفسه ويمنيها بأن فرصته الآن قد أصبحت كاملة ٠٠ سيستيقظ نيكولا ويفاجأ بما وقع لايليا ، وستربكه المفاجأة ويعجز لقصور ثورته وغضبه عن الوصول الى سلطان صاحب الجلالة وسطوته ٠ وخلال عجزه سيمتلىء عارا وخزيا وعليك يا أنطون أن تتسلل بشهامة خلال هذا الخزى لتنقذ صديقك ، وتحصل على ايليا ما بقى لك من عمر ٠٠ !

ومضى ينقل عينيه الماكرتين بين السريرين حيث ترقد الأبنة المشتهاة ، والأب الصديق والشريك ٠ ٠ بينما كانت ايليا قد

استسلمت لطمأنينة المكان الاليف بعد الرحلة الأليمة ، فغلبها النعاس واستغرقت فيه ٠

وحين انتبه نيكولا من غيبوبته رأى ايليا مطروحة ومغتصبة ومنهكة ، على السرير المجاور له ٠

لقد استيقظ فوجد رأسه مصابا بصداع شديد ٠٠ ثم أحس بجسده كله متصدعا يشوب تصدعه شيء من رخاوة النشوة ولذتها ٠٠ وكشف أغطيته فلاحظ انها مبللة بعرقه الغزير الذى بلل ثيابه جميعها ٠٠ وفاحت فى أنفه من تحت الأغطية رائحة الشهوة التى أفرزها جسده خلال غيبوبته فانبثقت فى عقله على الفور كضوء ساطع صورته وهو يضاجع ابنته ، فارتجف وهزت القشعريرة جسده كله فى نفس اللحظة التى انتبهت فيها عيناه الى تلك الابنة المهدرة على فراشها المجاور له ٠٠ ولم يكن أمامه من فرصة للتملص ٠ كان الحلم ما يزال ساخنا فى نفسه المفعمة ، وبدأت التفاصيل ترد على ذهنه المنتبه متتابعة فأحس بأصابع ايليا على جسده ماتزال حارة وساخنة ، بينما تعريه من ملابسه وتتحسسه ٠٠ فروعت نفسه وعاودته القشعريرة ٠٠ وهاله ما حدث ٠٠ فنفض أغطيته ونهض من فراشه قفزا ووقف منحنيا أمام فراش ايليا ومضى يحدق محاولا أن يتبين الوهم من الحقيقة ٠٠ وكان وهمه حميما وعارما ، لانه قد دخل فيه مخمورا ، ودخل فيه منكسرا تحت وطأة الشعور بالعجز أمام رغبة السلطان الذى لا سبيل لمقاومة رغبته ٠٠ وكانت نفسه مهيأة للهرب من ذلك العجز فعاش مشهدا قديما عاشه من قبل مع والده فى حمام تركى أملا فى البراءة ٠٠ وحملته البراءة على سحب من بخار كثيف الى نصوع الصحراء ووضوحها ، ومداها الفسيح اللامتناهى ، حيث اختلط فى عقله الزمان والمكان ، وطفت على السطح دخيلته المحتوية على ايليا ٠٠ ايليا المرأة الدائمة والابدية ٠ تلك التى ليست أمه ولا زوجته ولا ابنته ٠٠ فذاب فى الوهم وعاشه بحرارة ونشوة ، فأصبح حقيقة ، وسقط الواقع وضاع خلال تلك الساعات التى استغرقتها غيبوبته ٠٠ وهكذا وقف مبهوتا أمام فراش ايليا ابنته ، يحدق فى جسدها المطروح والمنتهك ممتلئا بالشعور بأنه هو الذى انتهكها !

وأخفى وجهه فجأة بكفيه الكبيرتين واستدار شارد اللب وغادر الغرفة مهرولا وهو يلتفت خلفه بفزع وسقط من سلم الكابين

بينما يتراجع بظهره ثم تحامل ونهض ٠٠ وقفز جاريا الى البحر ٠٠ فألقى بنفسه فيه ٠

كان المشـــهد مألوفا ، ان يخرج نيكولا من غرفته جاريا الى البحر ، فيلقى بنفســه فيه ، لكنه تلك المرة كان مرتديا بنطلـونه وقميصه ٠٠ رآه ابشر من مجلسه على السقالة الممتدة للرسو داخل الميناء وقد دلى في البحر خيوط سنانيره متربصا بها فى تلك الساعة قبل الغروب ، لأسماك البياض المتوسطة التى تسعى وراء الاسـماك الصغيرة فى دفء المياه القريبة من الشاطىء ٠

دهش فترك سنانيره ووقف محـدقا وقد تصـورها نزوة من نيكولا بعد نومته الطويلة التى استغرقت نهارا بأكمله ، ان يقفز فى البحر فيغسل عرقه ويغسل ملابسه ٠٠ لكنه رأى نيكولا جادا فى سباحته ٠٠ متوغلا داخل البحر الى تلك المناطق الخطيرة والمحظورة ، حيث تلهو اسماك القرش على اعتاب مســاكنها فى الاعماق فمضى يصرخ مناديا ومحذرا ٠٠ فجاء على صراخه العم أوشيك ، وجاء رجال الورشة ٠٠ وكان الخواجه أنطون مشغولا مع الضيوف الذين بدأوا ينقلون متاعهم الى اللنشات التى عادت من الغردقة لتحملهم اليها، فانتبه على صراخ أبشر ، وأسرع الى الســقالة يبحث بعينيه فى البحـر حيث يشير ٠٠ فرأى نيكولا يسبح باصرار وصلابة ، مقاوما ثقل ملابســه الممتلئة بالماء ، متجها باسراع الى تلك المنطقة الخطيرة والممنوعة ، حيث يوجد فى بطن الماء جبــل عظيم ٠٠ تتوالد فى كهوفه وتلهو حـوله سمكة القرش المتوحشـــة ٠٠ وقد بهت الخـواجه انطون لحظة ، وتزاحمت فى رأسه الصور ٠٠ وأدهشه أن يقدم نيكولا على الانتحار لان الملك قد أخذ براءة ابنته ٠٠ فهو يعـرف عـددا كبـيرا من رجال المجتمع قد أخذ صاحب الجلالة بناتهم ٠٠ فأضفى عليهم ذلك رضاء وسعادة واكتسبوا به شرفا ٠

وخطر له أن يترك المقادير تسوق نيكولا الى حتفه لتصـــبح ايليا وحيدة ٠٠ ويصبح هو ملاذها الوحيد ٠٠ ثم انتبه خارج ذاته على صوت أبشر الملهوف وهو يقفز جاريا على الشاطىء الى حيث يقف بنصفه المؤرجح فوق الماء ، قارب عبد ربه كريشـــاب ، فجرده من حراب الصـــيد وعاد يحملها مسرعا الى القاربين اللذين بدأ رجـال الورشة فى ادارتهما ، بينما أخذ الواقفون على الشاطىء يستحثونهم

وهم يرقبون نيكولا المسترسل بعناد وصلابة فى سباحته تجاه الخطر ، رغم صياحهم عليه ، ومناداتهم له ٠

وقد لحقت القوارب بنيكولا فى ذلك اليوم التعس ، وأحاطت به ٠٠ كل قارب من جانب ، ومد الرجال ايديهم الى البحر يحاولون انتشاله ، لكنه أخذ يستعصى عليهم وينفلت كلما امسكوا به ٠٠ مطبقا عينيه مستغرقا بكل جهده في ذراعيه اللتين تضربان الماء وتضربان أذرع الرجال ، كأنما فى داخله قدر يسوقه ، تجاه البحر الفسيح ليذوب فيه بما يثقل روحه من وزر الاثم ٠

وظهرت تحت الماء بقعة خضراء مستطيلة ملتوية ، فصاح الرجال محذرين من القرش وبدأوا يحيطون نيكولا بحرابهم ، ليمنعوا الوحش من الاقتراب منه ٠٠ لكن الوحش كان حرا وكان مراوغا ، وكان قد خرج بعيدا عن الكهوف مستطلعا رائحةالطعام ، أوفى نزهة فاضطربت حواسه استجابة لذبذبة ذلك الجسم السابح فى الماء على مقربة ٠٠ وتقوس على نفسه ثم اندفع بحمية الصياد تجاه تجاه نيكولا ٠ فريسته الموعودة ، ولم تثبط من همته الحيوانية تلك الحراب التى اصابت جلده السميك اللزج وأسالت الدماء منه ٠٠ بل كان يتلقى الاصابة كأنها خدش ٠٠ وينفلت مبتعدا وهو يجر فى الماء خلفه خطا قانيا من الدماء ، ثم يستدير على نفسه عائدا ، ليهاجم نيكولا من جديد ، فتمنعه الحراب أن يصل اليه ٠٠ وقد هيجت خيوط الدماء فى البحر شهية القروش الاخرى ، فتحركت تسعى نشيطة مقبلة خلف رفيقها الجريح ٠٠ ولمح الرجال فى القاربين أجسامها الخضراء والزرقاء تلمع ملتوية مقتربة تحت الماء الشفاف ، فأدركوا ان نهاية نيكولا تقترب باقترابها ، وأسرعوا الى حبال القوارب فألقوا بها الى الماء ، ومضوا بتعاون فى الحركة بين القاربين ، يحكمون لفها حول جسد نيكولا المندفع المستعصى عليهم حتى أمكنهم أن يوثقوه بها ٠٠ وبدأوا يجذبونها حتى الصقوا نيكولا بالقارب ، وأخذوا يرفعونه من كتفيه وذراعيه الى حافته ٠ ولمح أبشر ذلك القرش الجريح يندفع بحركة يائسة الى ظهر نيكولا فينشب فكه العريض الوحشى ، فسدد حربته ، وأطلقها فى عنق الوحش فغاصت فيه ٠٠ وانفرج الفك عن بنطلون نيكولا وظهره الذى ينزف دما بينما غاص القرش مبتعدا بالحربة المغروسة فى مقتله ٠

وقد أصاب الرجال الذعر اذ وجدوا جرح نيكولا غائرا ٠٠

وكانت المستشفى الوحيدة بالمنطقة فى الغردقة ، فتقــرر أن يسرع الضيوف بالرحيل ليحملوا نيكولا معهم ٠٠ وبقى صاحب الســعادة أنطون بك فى الميناء ليدير أمور العمل ويلحق بهم ٠

وكان الحادث قد القى بظله على العمال والعبابدة فتجمعوا على البراميل الفارغة وفى باحات الورش يثرثرون ويحللون باحثين عن ذلك الدافع الخفى الذى دفع بنيكولا الوقور القوى الذى يعرفونه ، الى تلك السباحة المستهترة فى منطقة القرش التى يعرفها جيــــدا ، ثم أجمعوا على أن نيكولا قد أصابه الحزن واختل توازنه العقلى ، لان الملك قد خرب ايليا ابنته ، فنهرهم الخواجه انطون بك وفض تجمعهم ،وأمر من لا عمل له بالميناء بالرحيل فورا الى الدرهيب لمواصـــــلة العمـــل بالمنجـــم ٠

ثم اتصل بمحطة الاحياء المائية واخبرهم بأن صــاحب الجلالة قد صـــاد انثى عروس البحر وعليهم أن يحضروا لاخذها ٠٠ فجاء الى الميناء قارب مجهز نزل رجاله الى الشط وتحلقوا حول الســـمكة الميتة ٠٠ يزيحونها من هنا حينا ، ومن هناك حينا آخر ، حتى دفعوا بها الى القارب وانطلقـــوا بها ٠٠ بينما الخواجة انطون يتابعهم وهو يتصورها متصدرة متحف الاحياء وقد ألصقت بذيلها لافتـــة مذهبة ، يزينها اسم صاحب الجلالة كصائد لها ، بجوار نوعها وتاريخ صيدها٠

ذلك عمــل اضــافى يقدمه الخواجه أنطون بك لابد وأن جلالته سيضعه أيضا فى اعتباره ٠

ومضى عائدا الى الكابينة ليطل على ايليا !



الفصل الثالث عشر

التأمت جراح نيكولا ، وفكت أربطته ·· وأصبح ممكنا له أن يمشي ويتحرك من غرفته في المستشفى الى الشرفة المطلة على الرمال الصفراء ، والاكشاك الخشبية الملونة الملحقة بالكبائن والشاليهات ·· فيجلس محدقا فى الفراغ داخل مقعد هزاز ، صموتا ، مقتضب النبرات مغلقا شديد الانغلاق ·· فنصحه صاحب السعادة الخواجه أنطون بك بالراحة ·· واقترح له رحلة ·· فى القاهرة ·· أو فى الاسكندرية ·· أو حتى فليذهبوا جميعا الى ايطاليا ·· «نعم حقا ·· الى ايطاليا ما رأيك يا نيكولا ؟ · أنا وانت وايليا واقبال هانم ، ان أرادت أن تذهب معنا ·· فلنذهب جميعا الى ايطاليا أسبوعين » ·

وكان يفكر أن ذلك يكون مناسبا أيضا للحصول على موافقة ايليا الكبرى ·· زوجة نيكولا الغائبة ، يسمع عنها ولا يراها ·

لكن نيكولا لم يكن شغوفا بأحد فى الاسكندرية ، كما لم يكن شغوفا بأحد فى القاهرة ·· وكذلك أيضا لم يكن شغوفا بأحد فى ايطاليا · ولم تستجب نفسه لفكرة الرحيل ، فما فائدة الرحيل يا نيكولا مادمت تحمل داخلك معك أينما حللت ؟ ·

وعاد الى الصحراء منطويا على ذاته ٠٠ وظنت أقبال هانم أن فى قـدرتها اخراجه من تلك الذات خـلال الايام القليلة التى سـتبقاها معهم فى الدرهيب ، فخاب ظنها وخابت غوايتها وما كان أغربه على المكان مشهدها خارجة فى مغرب الشمس قادمة من الكبائن الخشبية المحيطة بباحة المنجم ، بالديكولتيه الواســع يكشف عن صــدرها الابيض المورد وكتفيها العاجيتين فى تلك البيئة الصخرية السمراء ٠٠ أو شــعرها المموج طبقات فوق طبقات تتخلله أمشــاطها الصغيرة المطعمة باللؤلؤ ٠٠ أو فم سيجارتها الذهبى الطويل تقبض طرفه بين أســنانها البيضــاء بينما عيناها الملونتان تحلقان بتعال فوق كل المرئيات ٠٠ غريب مشهدها وغير مألوف ، بالنســبة لهؤلاء البدو العبابدة الذين يكونون فى تلك الســاعه ينفضون غبار التلك عن رؤوسهم المشعثة ووجوههم الكثيفة الشعر ٠٠ ويتهيأون لاشعال نارهم بين الصخور جماعات وفرادى لطهى عجينة الخبز أو شعيرهم المخلوط بالبقول ٠

تكون قد استيقظت من قيلولتها وشربت الشاى فى فراشــها المطـل على الرمال ، وتبـادلت مع أيليـا حوار العصر وهى تتظـاهر بمساعدتها فى الاشراف على تجهيز مائدة المساء ٠٠ ثم تنفلت خارجة باحثة عن نيكولا فتتعرض له ناعمة متمسحة ٠

وما كانت تدرك أن ســعيها الشبق هذا خلف نيكولا يؤجج شعوره فيزداد احساسه بثقل العقاب ووطأته ؟ ٠

لقد ظنوا جميعا أنه قد نجا وعاد من جديد ليملأ الصحراء بناء للحياة وبهجة ، كما ظل يفعل هناك طوال تلك الســنوات ولم يدرك أحد أن نيكولا الذى يعرفونه قد مات !

غرق نيكــولا القــديم فى ذلك اليوم الذى أمالته فيه الخمر على حافة سلم الكباين ليفرغ جوفه ٠

غرق نيكولا القديم فى ذلك اليوم الذى ركبته فيه الحمى ونام فى اليوم يومين ٠

سقط من عقله الحفل والضيوف ورحلة الصيد والملك وأنطون بك ، وكل ماهو مؤلم ومثير للآلام ٠ وعاش فى الحلم عظمة اللامألوف وبهجته الخرافية الساحرة ، التى حطمت كل حواجز الاســتحالة الاخلاقيــة التى صــنعها البشر وهم يبنــون على مراحل التاريخ

مجتمعهم . فأنصهر نيكولا فى الحلم وخرج منه سبيكة جديدة ، متشبثا بكل ما عاشه فى الحلم ورآه .

وأصبحت أيليا خطيئته وعقابه ، لا جنته وثوابه كما كان يقول لها .

وحين فتح عينيه فى المستشفى على الألم لم يكن عقله قادرا على التأمل أو التفكير ، كان يصحو على انشغال الغرفة بالطبيب أو الممرضة .. أو بعض الزوار . لكنه خلال صحوه يكون غائبا .. يحدق فيمن حوله ، فتبدو عيناه فاغرتين كأنما تحتويان المرئيات جميعها ، بينما هو فى الحقيقة لا يرى غير ما يملأ عقله الخاص .. لايرى خارج ذاته ونفسيته .

قال له الطبيب : ستعيش يا نيكولا . ستنجو من ذلك الجرح وتعيش ، لكنه سيخلف لك عجزا يصيب رجولتك .

فلم ينزعج نيكولا .. ولم يندهش .. تلقى الأمر بنوع من الرضا .

ولعل خيطا غير مرئى كان يربط نيكولا بعيدا فى الماضى ، بتربة منبته الدينية المتزمتة ، فاعتبر ذلك عقابا سماويا يحل به .

وهكذا بدا له العقاب طبيعيا ..

أن يخرج على المألوف ويضاجع أبنته ، فتؤخذ رجولته منه !

لقد كانت النوبة القديمة هى أرض كوش .. وكان أمير كوش يحكم الصحراء الشرقية الجنوبية من مصر الى بلاد السودان ، حتى جنوب الخرطوم .

وعندما أراد موسى النبى أن يضع حية على باب خيمة الاجتماع ، استدعى رجلا من أرض كوش ليصنعها من البرونز والبرونز ليس معدنا ولكنه مركب .. مما يقطع بأن أهل كوش كانت لهم خبرة بالمعادن ومركباتها .. فكيف جئت لتعلمهم التعدين يا نيكولا ؟

وحيد أنت وحدة مطلقة ومحاط بظروف قاسية وغريبة .. وكما أنت قادر على أفضل صور الخير فأنت قادر أيضا على أفظع أنواع الشر .. « لقد خلق الرب الآله آدم ترابا من الارض ، ونفخ فى أنفه نسمة حياة فصار نفسا حية وغرس جنة فى عدن شرقا .. وأنبت من الارض كل شجرة شهية للنظر جيدة للاكل .. وشجرة الحياة فى

وسط الجنه . وشجرة معرفة الخير والشر ٠٠ وكان نهر يخرج من عدن ليسقى الجنة ومن هناك ينقسم فيصير أربعة ٠٠ اسم الاول فيشون واسم الثانى جيجون وهو المحيط بكل أرض كوش ٠٠» الخ ٠٠ الخ يوجد ذلك فى سفر التكوين يا نيكولا ٠٠ مازلت تذكره ٠

وكان نهر الجنة الذى يحيط بأرض كوش يجرى من الشرق الى الغرب ، وليس ذلك بغريب ، فمازالت مجارى هذا النهر واضحة آثارها على الصخور ، وفى الوديان الساحلية التى عرفتها جميعا فى الصحراء ٠٠ فى هذا العهد السحيق يا نيكولا كان ممكنا للرجل أن يتزوج أخته أو أمه ٠٠ وقد حدث ذلك ملايين المرات دون أن تهتز له الجبال المقدسة أو تميد الارض ٠٠ لكن آلاف السنين قد مرت عليك من وقتها للآن ولابد أنك قد تعلمت ما هو أخلاقى ، وما هو غير أخلاقى ٠٠ وقد فقأ ذلك الملك الشاب القديم عينه بعدما تزوج أمه ٠

فالسؤال الممنوع هو عن الحياة والموت ٠٠ أما الواجب الاساسى فهو العمل الذى لا مهرب منه ٠٠ وما عدا ذلك فلا توجد أسئلة ٠ !؟

يكون جالسا فى جانب من الباحة يرقب العمال يصعدون ويهبطون فى فتحه المنجم ينقلون خامة التلك الى دائرة التخزين الخلفية ، وأمامه رقعة الشطرنج بلونيها القديمين الاسود والاحمر يحاول الهروب اليها من داخل نفسه بينما يحرك الافيال والفرسان أمامه على مربعاتها الصغيرة ٠٠ فتجىء أقبال هانم تحوم حوله ، وبين الحين والحين تنحنى أمامه لتضع نهديها فى عينيه مع كوبة الشاى أو القهوة ، وبعض البسكويت ، تحاول أن تغويه دون أن تثقل عليه ٠٠ غير مدركة أو متصورة أن هذا الجسد القوى المتكامل الذى خبرته وعرفته ، قد أصبح أصم الى الابد ٠٠ حتى عن الحب والشهوة أصبح السؤال محرما وممنوعا أيضا ٠٠ والواجب الوحيد الباقى يا نيكولا هو العمل ٠٠ هكذا تكون الاجابة على تلك الافكار التى تذهب وتجىء مؤرجحة فى عقلك المضنى العاجز عن التركيز ٠

لقد آن الأوان لنشرع فورا فى شق الجبل عموديا من الداخل الى قمته الخارجية ، لتوسيع بئر التهوية القديمة وأكمال انشائها فتصبح قادرة على تغذية المنجم بكمية أكبر من الهواء النقى ٠٠ ولتصبحوا قادرين على التوسع فى حفر الانفاق والممرات طولا وعرضا فى الطبقة

الثالثة وراء الخامة الشمعية التكوين ، التى تزداد غزارة وكثافة بين الصخور ٠٠ فما تكاد تنهار فى أرض الممرات كتلة هائلة ، ويتم نقلها وأفراغها ، ويهدأ الغبار الشمعى الذى يملأ الممرات بعد سقوطها ٠٠ حتى تظهر فى جدار الجبل كتلة أخرى هائلة ٠

واستطاع نيكولا أن ينسى نفسه فى الرسوم والقياسات حتى انتهى من التصميم النهائى للبئر على الورق ، ثم شرع فورا فى تنفيذ التصميم الورقى على صخور الجبل ٠

ولاحت على ايليا بعض الأعراض التى توحى بحملها فارتبكت ٠

وكان نيكولا معلقا على جوانب البئر العمـــودية ، يشرف على تنفيذ تصميمه الهندسى الذى يحميها من السيول والامطار فلا يدخل من فتحتها النهائية على قمة الجبل ، سوى الهواء النقى ٠٠ وكأن العمل يخدر روحه القلقة ويمتص عذابها ولم يعد يخرج من بطن الجبل قبل أن تهبط الظلمة ، فى الباحة ، وتصبح الوجوه غارقة فى الظلال ٠٠ عســـاه كان يتخفى نيكولا فى تلك الظلمة ، فلا تتكشف للآخرين دخيلته التى تتلوى بفداحة الاثم وجـــلال العقاب ، ومن ثم لم يكن متاحا لايليا أن تقرب من نفسه وتسر له بهمومها ٠٠ ولم تجد أمامها غير أنطون بك ٠٠ هذا المتلهف عليهـــا ، المطوف حولها ، فأسرت له بحملها ولدهشتها وجدته يبتهج ووجدته يهون الامر عليها ويغريهـا بـــه ! ٠٠

كان واضحا أن تلك البذرة القيت فى ذلك اليـــوم التعس فى خيمة صـــاحب الجلالة الشره ، قد أثمرت وأعطت نتائجها ٠ وكأنما تتجسد تلك الحادثة الكئيبة فى اللحم والعظم ، وتجرى فيها الدماء ، لتتحرك فى الحياة على قدمين ، وتذكرها بامتهانها وذلها ٠

وكان هو يعلم يقينا أن تلك فرصته لينجب طفلا يحمل اسمه فما كان له أبدا أن ينجب وقد فشلت حكمـــة الطب وأدويته ، فى اخصاب شجرته العقيم المجدبة ٠٠ وما كان له أن يفـكر فى العـار أويفكر فىالخزى ٠ وزوجتهايليا الجميلة ٠٠ ايليالمحببة والمشتهاة ٠ ستنجب له ولدا طالما تمناه وانتظره ٠٠ من صلب ملك ٠٠ محتويا على خصائص ملك ومميزاته !
ورأى فى ذلك كله مدعاة للتعجيل بالزواج واتمامـه حتى تجىء

الولادة فى ميعاد قريب نوعا من ميعادها الطبيعى !

واحسرتاه على تلك الصغيرة ايليا ٠

وحيدة هى فى بحر الحياة الزاخر بالمنافع المتضاربة ، والشهوات الفاجعة ، والحوادث المضنية التى لا تكون فى الحسبان ٠

تتأمل الرمال المترامية ، من نافذتها المفتوحة وتفكر فى تلك الوقائع المتتالية التى حطت على رأسها الصغير ولم تبلغ السادسة عشرة من عمرها بعد ٠٠ فأين منها الآن ايليا الكبرى ، أمها ايليا الكبرى ، التى تتصدر هناك فى ايطاليا ذلك الملهى المظلل بالاشجار الصناعية فوق الصخور المطلة على البحر ٠ ؟

وأين منها بابا نيكولا نفسه ، يدخل فى الغيبوبة حين يجهده الانتباه ، وحتى لحظات انتباهه يمضيها محدقا فيمن حوله مذهولا كالغائب ، لايدرى أحد ٠٠ ولايمكن لأحد أن يخمن ٠ ٠ أى عراك يدور فى رأسه الذى بدأ يتسرب اليه المشيب ٠

أى هول ذلك الذى يحتويه فى دخيلته ، فيجعله طاعنا فى السن هكذا فجأة ، أبيض الشعر كأنما عمره مائة عام ؟! ٠

هى تعرف أن بابا نيكولا يكن لها حبا مضاعفا أحسته ولاحظته وكان دائما يقول أنها جنته ٠٠ أنها ثوابه وجائزته ، وأنها خير ما أعطته أمها ايليا الكبرى ٠٠ تلك التى أحبها واختلفت مناهجهما فافتقدا الوفاق وافترقا ٠٠ وكان يقول أنها هى ، ايليا الصغرى ، عوضه وثوابه عن ذلك الوفاق المفتقد !

هى تعلم كم يكن لها من الاعزاز والحب بابا نيكولا ، وتعلم مدى زهوه وفخره بها ، فهل أصابه ما حدث لها مع الملك بجرح نافذ أفقده القدرة على التبصر والسيطرة فرغب أن يلقى بنفسه الى التهلكة ٠٠ وكانت تحس بقدر من الذنب بينما هى وحيدة تفكر فى وحدتها لأنها قد تسببت بشكل أو بآخر فى ايذاء والدها ٠٠ وهاهو حملها يزيد الامر سوءا ! ٠

وتلقفت اقبال هانم ذلك الخيط فبدأت تجدل منه حبالا غير مرئية تحيط بها ايليا وتقودها الى ذراعى الخواجه انطون بك المتيم بها ٠

حدثتها عن فكرة الزواج أولا ، فتقبلتها ايليا كفكرة مفاجئة لم تتهيأ لها ، فبدأت تقنعها أن الزواج ضروري كحل يلقي ستارا من

الصمت والنسيان على ما حدث ويفتح فى صـــــدر المجتمع واجهــة جديدة .. ينظر اليها الناس من خلالها بدلا من تلك الواجهة التى سيطلون زمنا منها فلا يرون سوى صورتها ضحية لتلك الحادثة .

وحين اقتنعت بدأت تحدثها عن انطون :
سيكون باشا خلال شهر ، على أكثر تقدير ...
ثقى بما أقول يا ايليا ...

وفوق ذلك فقد صنـــــع له بابا نيكولا من ذلك الجبل فى بطن الصحراء ، ثروة كبيرة يعتد بها .. إنه يملك الآن فى مدينة القاهرة وضواحيها مصنعين كبيرين ، فوق ما يملكه فى هذه الصحراء .
الثلث لأبيك نيكولا ، والثلث للحاج بهاء .. والثلث له ..
فاذا تزوجت به ضمنت الثلثين يا ايليا .

أنت صـــــغيرة الآن ، ولا تدركين ما للمال من قيمة .. لكن تأكدى أن المال قادر على كل شئ .. فان ملكتـــــه ملكت الحيـــــاة بأجمعها .. بل وملكت أيضا عيون الناس التى تطل عليك وأمكنك التأثير حتى فى عقولهم وأفكارهم !

وأغرقها أنطون بك فى تلك الايام بالهدايا ، واستأجر لها لنشا فاخرا تذهب به الى جزر المرجان ، لتتسلى بصيد الاســـماك الملـونة .. واشترى من رجل يعرفه فى القاهرة مجموعة كبيرة من الفكاهات ليرويها على مسامعها فتبهجها وتنسيها أحزانها .

قالت لها اقبال هانم فليكن أكبر منك ، أو فليكن عجوزا . بل فليمت أيضا .. ماذا يهمـــك من ذلك ، فالعمر ملك يديك والزمن ما يزال ممتدا شديد الطول أمامك .. وســـتكون الثروة لك .. وساعتها يمكنك أن تبدئى من جديد على هواك .. تبدئين بالحب ، أو تبدئين بالزواج مرة ثانية .. ستكونين حرة .

ثقى من كلامى ، أؤكد لك .. لا يوجد حولنا ، من هو أصلح منـــــه .. !

واحسرتاه على تلك الصغيرة ايليا .
وحيدة فى بحر الشهوات والمطامع .
صغيرة علي كل ما يواجهها .

فكيف لها أن تتخذ قرارا ، وهى تعلم أنهـــا بالقــرار ترمى مصـــيرها ؟!

لقد علمها بابا نيكولا أن تكون قوية ·· وأن تكون حازمة ·
فأين لها ببابا نيكولا الآن ؟!
قال لها أن عيبه فى ضـــعفه العــاطفى وتردده ، فلتكن هى تكملة له ·

قال لها : انى اعتمد عليــك يا ايليا حين يحط بى الضـــعف وتجرنى عيوبى الى الهزيمة ، فكونى قوية ·
وهاهى تلك السيدة المجربة تخبرها بأن الثروة هى القوة ؟!
فلا تملك غير أن تخبر اقبال هانم بموافقتها ·



الفصل الرابع عشر

اشترى الخواجه أنطون بك حقيبتين ملأهما بالهدايا والملابس ، واشترى الطعام المعلب والمشروبات للمنجم ، وشحنها جميعا من السويس على السكونر الذاهبة الى برانيس بينما أخذ هو القطار الى أدفو ونزل في ضيافة الحاج بهاء وحين جلسا الى العشاء وخلت القاعة الا من ذلك النفر القليل من أتباع الحاج يقفون على مبعدة يناولون الملح أو الماء أو الفاكهة والقهوة ٠٠ مال الخواجه أنطون على الحاج بهاء وسأله أن كان يعرف في الصعيد شيخا ذا حيثية ، يذهبان اليه لاستبدال اسمه من أنطون الى عبد الله ٠٠ وهمس له بتفاصيل المسألة قال أنه يرغب في طلاق زوجته ، والطلاق في ملتهما ممنوع ، فلابد من تغييرها بملة أخرى تسمح بهذا الطلاق وتقره ٠٠ ليتحرر من تلك الزوجة ويتزوج ايليا ٠

فانتشى الحاج بهاء برغبة الخواجة انطون أن يدخل في دينه واعتبر ذلك كله وشائج قرابة ومودة ، سوف تغني شركتهم وتزيد ثمارها ٠

ولم يمهله بعد العشاء للراحة فغادرا البيت معا يسبقهما

التوابع بالكلوب لانارة السكة فى دروب أدفو وشوارعها الضيقة المتطرفة ، حيث يقيم الشيخ .

كان قائما يصلي وخلف ظهره مبخرة تملأ الغرفة الساقط جيرها عن الجدران ، بدخان كثيف الرائحة فأمرهم تابعه أن ينتظروا ساكنين حتى ينتهى من عبادته ، فانتظروا .. فالقوم يجيئون .. عظماؤهم وصعاليكهم من فجاج الارض قاصدين الشيخ ، فيخبرهم بمجرد دخولهم بأسباب مجيئهم دون أن ينطقوا بها .. ويخبرهم برده قبل أن يطلبوه .. ويستطيع أن يخبر عن المريض والسارق ، والغائب له سنين يمكنه أن يطلعهم على مكانه دون أن يعرفه .. وحين انتهى من عبادته نظر الى الحاج بهاء معاتبا وقال ان شغلتهم التى جاءوا لها ليست عنده ، وان لها طقوسا وقواعد يجب أن يتبعوها تبدأ عادة بطلب يقدمه الخواجه انطون الى أية محكمة .

فاعتذر الحاج عن ازعاجه للشيخ ، وقبل يده .. فربت على رأسه وابتسم للخواجة انطون مشجعا .

وفى الصباح ذهبا الى المحكمة فقدم انطون طلبا برغبته فى الخروج من ملته ، فأخبروه أنهم سيرسلون الى البطرخانة يسألونها .. قبل أن يوافقوا .. وان البطرخانة سترسل له واعظا من القسس يتولى اقناعه بالعدول عن رغبته .. فان لم يكن جادا فسوف يخبرهم القسيس بذلك .. وبعدها يوافقون على طلبه .

اجراءات طويلة ، ومعقدة نوعا ، واستغرقت من الزمان أسابيع وشهورا ، مشى فيها الحاج بهاء باخلاص متحمس مع الخواجة أنطون .. وذهب القسيس الى انطون فى برانيس .. رحلة لطيفة قام بها من قبل البطرخانة ليتولى اقناع ذلك الراغب فى تغيير ملته واعتقاده .. وهو يعلم يقينا أنه لا الملة ، ولا الاعتقاد ، سيكون لها دخل فى الامر .. وأغلب الظن كما تعود .. سيكون خلف الامر امرأة وربما تهريب ، ميراث أو غيره .. وأستعذب رياح الصحراء الجافة تملأ ثيابه السوداء الفضفاضة على ذلك الشاطىء النقى الذى يشبه شواطىء الجنة التى يبشر بها ، واستلطفت روحه ايليا ، وهنأ أنطون الخارج ، فى دلخيلة نفسه عليها .. وحاول باخلاص معتاد أن يجادله ويحاوره وهو موقن أن جدله وحواره ذاهبان هباء فى مواجهة تلك الجنية التى تبدو وكأنها قد نبتت من تلك الطبيعة نبتا .. ورحل

القسيس ليرسل تقريره الى البطرخانة فتحوله البطرخانة الى المحكمة .. فترسل المحكمة الى الخواجه أنطون تطلب حضوره لتوافق على طلبه .. وذهب معه الحاج بهاء ليشهد نطقه للشهادتين واجراءات اسلامه .. ثم عاد به الى الصحراء راكبا جملا ، يسبقهما رجال المنجم وبعض البدو يحملون أعلاما وبيارق ويدقون دفوفا وينشدون.

وأقيمت الزينات فوق البيوت الخشبية وحول المغارة .. ونصب الرجال الاعلام والاضواء على الاعمدة الخشبية فى سطح الجبل .. وذبحت العجول لفقراء الجبل ومتشرديه .. بينما جاء شباب البشارية بسيوفهم الصليبية القديمة ودرقاتهم ، ومضوا يملأون المكان برقصاتهم وأهازيجهم .. بينما كان الشيخ على والحاج بهاء واقفين على باب المغارة ، يطلقان الرصاص فى الهواء تيمنا وبركة .

ولم يلحظ أحد فى ذلك الليل الخلوى ، تلك الصقور الجارحة التى جذبتها رائحة الذبائح وفضلاتها ، فأخرجتها من مكامنها البعيدة فى قمم الجبال المجاورة .

جاءت تحوم من بعد .. تنتظر من القوم غفلة أو هدأة .. لتنقض من عل انقضاضة واحدة مفاجئة وموفقة . ترتفع بعدها وهى تحمل فى مخالبها رءوس الذبائح أو أقدامها !

وهكذا تزوجت ايليا عبد الله الذى كان اسمه أنطون ، أو الخواجة عبد الله ، كما صار أسمه عند بدو الجبل .

وبعد أن كانت فتاة الجبل وجنيته الساحرة ، وزهرته الفطرية المستوحشة أصبحت سيدته وملكته .. ؟

لقد أفقدها صاحب الجلالة براءتها وطفولتها .. فأصبحت تحمل نفسية ملكة عن اقتناع .. تطور طبيعى لاحساسها الملكى خلال الطفولة .. عريها الحر المتعالى ، كنبتة انثوية باهرة بين تلك الصخور العارمة الخشونة .

وهكذا ببساطة آمكنها أن تسلب الخواجه عبد الله صوابه فتقوده كطفل لها .. !

وكان نيكولا غائبا طوال النهار فى قلب الجبل مشغولا بالحفر المتصاعد فى بئر التهوية ، فتولت هى شئون المنجم الخارجية ، وأدارتها بجدارة مكتسبة من خبرتها معه .

وفى الامسيات ، وحين يلتقون على مائدة العشاء التى تعدها

ايليا فى الشرفة الزجاجية المطلة على باحة المنجم ، بعد أن يغتسل نيكولا من تراب الحفر وغبار التلك ويرتدى سترته الليلية ، يلاحظ نيكولا أن جسد ايليا يسرح فى الامتلاء بطريقة غير عادية ، فيتأمل تلك الملاحظة أياما وأسابيع ، حتى يتأكد له أن ايليا حامل ٠٠ فيحسب المسألة بأيامهاوشهورهاالى أن يدرك نهائياانه لا دخل لزوجهافى ذلك الحمل ، فاعتكف فى غرفته ٠ !

وقع الامر على عقله وقوع اللطمة فلم يكن ذلك فى حسبانه قط ٠٠ لقد أثم وتلقى عقابه عن ذلك الاثم بروح شجاعة ولم يتذكر أن للاثم بذرة قد غاصت فى اللحم العميق المظلم ، لتسقى بالدم وتثمر كائنا حيا يطارده باللعنة ابد الدهر !

وامتنع عن النزول الى المنجم ٠٠ وامتنع عن الخروج من غرفته التى يعتكف بها فدخل عليه أنطون باشا ، ودخلت عليه ايليا ، لكنه كان يقابلهم بالصمت ، كان يحملق ، وترتجف شفتاه ، وتهتز الجدران الخارجية لحنجرته كأنما يرغب فى الكلام لكنه يعجز عن النطق ٠

ولاحظوا ضيقه الشديد باقتحام عزلته ، فلم يعد يدخل عليه أحد سوى ايليا ٠

تدخل بافطاره فى الصباح ، ثم تدخل بالغداء فى الظهر ٠٠ فتجد طعام الافطار كما هو لم يمس !

وفكرت فى احضار طبيب من القاهرة ٠٠ وحين أراد الطبيب فحصه انفجرت ثورة نيكولا وطرده من غرفته ، ورأى العبابدة الذين كانوا يفرزون التلك ويكومونه فى جانب الباحة المخصص للتخزين، ذلك الطبيب الضيف يخرج مهرولا ويتعثر على سلم الكباين ، ويسقط فى الرمال أمامهم ، بينما تلاحقه من غرفة نيكولا ، حقيبته بأدواتها الطبية ، وفازة للزهور ، وبعض الاحذية !

ودخلت اليه ايليا فاحاطته بذراعيها حانية مهدئة ، لكن نيكولا نفضها عنه ومضى فى الغرفة يروح ويجىء كأنما يعصف به الم لا يحتمل ، وفجأة توقف وأمسك بمعصميها فأوقفها قبالته ٠٠ ومضى يحدق فى عينيها بجزع ٠٠ ولانت نبراته حتى وصلت الى حد التوسل وهو يطلب منها أن تتخلص من حملها ٠٠ فدهشت ايليا ، واخبرته برغبة زوجها فى الاحتفاظ به ،فانفجر صارخا ومضى يسبب شريكه ويلعنه !

وصحا نيكولا قبيل الفجر بساعتين ، على أصـوات يحملها من بعيد ليل الصـحراء الرقراق ٠٠ لعل روحه القلقة المتنبهة فلا تهجع ولا تسكن ، هى التى التقطتها أولا قبل أذنيه ٠٠ فمضى يتسـمع مغمض العينين ، فتبين أهازيج غنائية ممطوطة الايقاع وحزينـة ٠٠ ففتح عينيه مستجمعا انتباهه الكامل حين أدرك أن اتباع أبى الحسن الشاذلى قد بدأت طلائعهم تهل على الصحراء فى موسـمهم السـنوى لزيارته ٠

وانقلب على ظهره فى الفراش متوترا ، وقد اسـتثارت تلك النغمات الممطوطة الايقاع شغفه الداخلى الى طمأنينة الروح ، وسـكينة القلب ٠٠ ثم مد يده فأضاء النور ونظر فى ساعته ودخل فى بنطلونه وقميصـه متعجلا ، ودس قدميه فى خفه الجلدى ٠٠ ثم غادر بيتـه الخشبى ومضى عبر الباحـة تجاه فتحة المنجم حتى دنا منها وتجنبها ، وصعد متسلقا وقد ازدادت تلك الاهازيج الغنائية عبر الليل وضوحا واقترابا ٠

ها هم أتباع أبى الحسن ومريدوه والمتعلقون به ، يحجـون اليـه حجتهم الصـغرى ٠٠ يقدمون اليه فى ذلك الموعد من كل عام ٠ من فجاج الارض ومسالكها المتباينة ، يعجب نيكولا لتباينهم الشديد كتباين تلك الطرق التى يسلكونها ٠٠ فمن عمال ورعاة وبدو وأثرياء ريفيين، الى أفندية واطباء وقضاة وأسـاتذة ووزراء ٠٠ من كل أرض فيهـا مسلمون ، يجيئون قاصدين تلك البقعة فى صحراء الشرق الى ذلك الوادى المسمى عيذاب ٠٠ فى مواجهة مكة على البحر حيث توجد كعبة المسلمين ٠٠ فيتحلقون حول ذلك البناء الصغير المتواضع فى صـحن الجبل الذى يحيط بالوادى ، ويلقون بأهازيجهم وغنائياتهم على قبـة ضريحه المستديرة التى تعشش العصافير ، وياللغرابة فى ثقوبها ٠٠ فمن للصحراء يا ترى بالعصافير ؟

أهى معجزة من معجزات هذا الرجل أبى الحسن ، الذى تفل قبل موته فى جرعة ماء من تلك البئر المرة ، المجاورة لقبته ، وأمر اتباعـه باعادتها الى البئر ، فصار ماء البئر عذبا مستساغ المذاق ٠٠ ؟

يصعد نيكولا فى الصخور ويصعد ، كأنما روحه القلقة تدفعه ، وتحمله مع خبرته بمسارب الصـخور ونتوءاتها ، متسلقا الى قمـة الدرهيب العظيم ، حيث يمكنه من ذلك الارتفاع الشاهق أن يطل على

الناحيه الاخرى من الجبل ، على الطريق الملتوية القادمة من عتبات جبل الحفافيت ، تحمل على صخورها الحادة والمدببة ، عربات هـؤلاء القوم تجرها الجياد والجمال محملة بالدقيق والحلوى ، وماشية التضحية ٠٠ ومحملة بشوقهم وحماسهم ، ولهفتهم الظامئة الى لقاء الرجل الذى مات منذ سبعمائة سنة !

وقف نيكولا هناك وحيدا فوق قمة الدرهيب ، يحيط به الليل الرقراق المضاء بملايين النجوم الشديدة القرب والمتناهية فى البعد فى نفس الوقت وأخـــذ يفكر ٠٠ هاكم رجل غادر وطنه وجـاب الارض زاهدا ، فنما خلال الترحال ، وأمكنه أن يخلص جســـمه البشرى من أثقال بشريته ، فسما به وشـــف حتى أمكنه التحليق فى الطريق الى الله ٠٠ ويؤكد اتباعه ومريدوه انه وصل اليه ٠

أبو الحسن الشاذلى ٠٠ ذلك اسمه المدون بخط عربى ركيك على حائط مقامه الاخير تحت تلك القبة الصغيرة المتواضعة التى تحوى فى ثوبها مئات من أعشاش العصافير ، حيث لاتوجد فى الصـــحراء عصافير ٠٠ !

•

كان يقول « أتريد أن تجاهد نفسك وانت تغريها بالشـــهوات حتى تغلبك ٠٠ الا فقد جهلت ، فالقلب شجرة تسقى بماء الطاعة ٠٠ فلا تكن كالعليل يقول لاأتداوى حتى أجد الشفاء ، فيقال له لاتجد الشـــفاء حتى تتداوى ، بالجهاد ، ليس معه حلاوة ، ما معه الا رؤوس الاسنة ٠٠ فجاهد نفسك ٠٠ هذا هو الجهاد الاكبر ٠٠ » ٠

فكيف لك الآن أن تجاهد نفسك يانيكولا وما كان قد كان ، وبذوره قد أثمرت وبدأت تفرخ ٠٠ وســـــينتصب لك على وجـــه الارض كيان مـــن لحم ودم يمشى ويجـــرى ويصيح ويصرخ مؤكدا اثمك وخطيئتك ٠ ؟ ٠

قالت له أيليا : جئتك بولد يانيكولا ليكون ظريفا ويسليك ، ويجعلك جـدا ٠٠ !

كانت قد ولدت طفلها فرفض رؤيته ٠

قال فى نفسه : ياشـــؤم ماجئت به ياايليا ٠ ٠ ولـــدا يجعلنى جدا وأبا فى نفس الوقت !

فكر نيكولا فى وقفته المشتاقة الظامئة تلك ، لو يلقى بنفسه من قمة الدرهيب الى عربة من عربات هؤلاء المريدين والاتباع التى تحمل زادهم وهداياهم الى شيخهم الصوفى فى عمق الصحراء ٠٠

فيحملونه معهم اليه ، ليقدم الذبائح على جدران ضريحه فى الفجر ، ويقفز فى الهواء متطوحا فى حلقات الذكر التى تقام حوله ، فينفض عن قلبه همومه ويلقى عن روحه اثقالها ·· ويتخفف ·· فيصبح حرا من الاثم والخطيئة ·· حرا من جسده البشرى ·· لكنه شعر بأن ذكر الدنيا كله ، لو شارك فيه متطوحا فلن ينفض عن روحه المذنبه أثقالها ، ولن تجديه الذبائح ولن تغسل دماؤها خطيئته ·

وكان الفجر ما يزال جنينا فى بطن الافق حين استقر نيكولا على قراره واعتنقه متشبثا به ·· ثم أخذ يقتات عليه وهو يهبط الجبل مسرعا غير عابىء بالصخور التى تغرس أسنانها فى مداسه الجلدى ·· وحين هبط الى الباحة أخذ يعدو فتجاوز كابينته الى كابينة الزوجين انطون وايليا ·· صديقه وابنته ·· فمضى يتسمع الى الجدران الخشبية وهو يدور حولها ·· حتى استقر تحت نافذة ايليا ·

واطمأن الى الصمت فلا صوت ولا حركة ·· فمشى الى النافذة المجاورة وارهف اذنيه ·· حتى الطفل أيضا كان ساكنا ·

وأمسك نيكولا انفاسة اللاهثة وهو يستدير الى سلم الكابينة وصعد ·· وقد خلع خفه الجلدى ثم اجتاز غرفة الزوجين الى غرفة الطفل الملحقة بها وامسك بمقبض الباب وقد خشى أن يكون مغلقا ، لكن المقبض قد دار فى يده فسارعت دقات قلبه · وتسارع لهاثه · ومضى متسللا فى الغرفة المظلمة يتحسس طريقه الى فراش الطفل حتى اهتدى اليه فمد يديه وحمله محاذرا أن يوقظه ·· ومضى متسللا الى الخارج كما جاء ·· وهبط سلم الكابينه محاذرا حتى لمست قدماه العاريتان الرمل والحصى ، فانطلق يجرى مغادرا الباحة وعبر ساحات التخزين الى منفذ الجبل الخارجى المؤدى الى الصحراء ، وكلما اجتاز مكانا زادت سرعته كأنما يخشى ان يلحقوا به ·

حمل نيكولا ثمرة خطيئته النابضة بالدم فى اللحم الصغير اللزج وأخذ يجرى مهرولا على حصى الباحة الاحمر الذى ذاب احمراره فى رمادية الفجر الطالع على الكائنات ·· حتى خلص من المنحدر الطويل المفضى الى المدق العام ، الذى مهدته العربات والجمال وأقدام العابرين فى الصحراء قادمين الى الدرهيب أو عابرين به ·

وكان المدق خاليا ، فمضى نيكولا يتلفت يمينا ، ويتلفت

يسارا ، ثم نظر الى اللفافة التى تشدها قبضتاه الى صدره بقوة ..
فعبر المدق أمامه تنتصب ذؤابة جبلية مدببة الصخور تماثل من الدرهيب نصف الارتفاع أو أقل قليلا من النصف ، ووراءها لو عبرها ، بحر الرمال الواسع اللا متناهى حيث تموت جوعا فى امتدادها الوحشى عشرات الذئاب يوما بعد يوم ، فتتغذى على جيفها عشرات الضباع التى لم تمت من الجوع بعد .

وعبر نيكولا المدق متحمسا ، وتوقف أمام الذؤابه الجبلية يلتمس لاقدامه مصعدا على صخورها ، وقد أخذ يشدد قبضته التى تضم لفافة الطفل الى صدره بينما يتسلق الصخور بقبضته الاخرى ولا يدرى نيكولا كم من الوقت مر به حتى وجد نفسه أخيرا فوق الهضبة الصخرية لهذا الجبل الصغير ، على مكان ممهد أشبه بالشرفة يطل على بحر الرمال الساكن فينقبض قلبه لسكونه الرمادى الموحش وتناهى الى اذنيه عواء الضباع يجلل ذلك السكون فاهتز من داخله وارتعب وكان يشعر بساقيه تؤلمانه وترتجفان .. وكانت الريح باردة فوضع اللفافة على صخرة واقتعد صخرة أخرى ، ومضى يتحسس ساقيه ويدلكهما فاكتشف انهما تؤلمانه أكثر ، وقد مزقت الصخور التى تسلقها ملابسه ، وجرحت ساقيه وقدميه حتى أدمتها .. فأراح ظهره على الصخرة التى اقتعدها ومضى يلتقط انفاسه .. وعيناه على اللفافة حيث وضعها .. ولده وحفيده وخطيئته .. وقد بدأ يدهشه ويريبه ان الطفل لم يبك بعد ، فأسرع الى اللفافة يفضها بيدين ترتجفان وقلب واجف ، فطالعه لاول مرة وجه الثمرة النابته من الذنب فمضى يتأملها .

كانت العينان مغمضتين والكتلة اللحمية الصغيرة ساكنة فزاد عجبه ، فصراخ تلك الكتلة اللحمية ظل يخترق اذنيه عبر الجدران الخشبية الفاصلة بين كابينته وكابينة ايليا ، طوال الليالى الماضية منذ وضعت حملها .. صراخا طفوليا رفيعا ومدببا كان ينفذ فى عقله ويوخزة .. فما بالها الآن ساكنة ؟ .

وأخذ يهز اللفافة ، فراعة ان العينين ظلتا مغمضتين ، والكتلة اللحمية بقيت على سكونها .. وكانت حركتها تدغدغه وتحرق أعصحابة ومشاعره بينما هو يفر بها من الكابينة عبر منحدر المنجم الى المدق . اتراه قد شدد قبضته على اللفافة بينما يهرب بها ، حتى

قتل الحركة واماتها وهو يتسلق تلك الهضبة الصخرية وينفذ مـــن صـــخورها ٠ ؟

وابتعد نيكولا وهـــو يحدق بعينين متحجرتين فى اللفـــافة المفتوحة على الصخرة ٠٠ يتوسطها الطفل الســاكن وقد انحـدرت ذراعه الرفيعة حتى لامست برودة الحجر ، وبرزت ساقاه الضئيلتان فى العـــراء ٠

وسمع بأذن خياله عواء الضباع المتزايد ، فى بحـــر الرمال الساكن ٠٠ يتجسد فيصبح وحشا زاحفا عــلى الصــخور ، ليخطف بانيابه هذا الطعام المباح ٠

ورأى بعين خياله ، صقرا جارحا مـــن تلك الصـــقور البنية الريش الصفراء المناقير ، يحوم فى السماء دائرا فى دائرة متسعة ، مرة ، ومرتين ، وثلاثا ٠٠ دورانا يتزايد انخفاضه فى كل مرة تمهيدا للانقضاض فيحمل فى مخالبه تلك الفريســـة المطروحة حـــلالا له ، فيرفعها فى السماء ، قربان شفاعة من نيكولا وتوبة !

فألقى بنفسه بين الصخور منحدرا هابطا الهضبة بأسراع وهو يخفى وجهه بين كفيه ٠





الفصـــل الخامس عشر

صحت ايليا فى الموعد الذى اعتاد طفلها ان يوقظها فيه طالبا طعامه ببكائه ٠

وتفقدت البكاء وهى ماتزال فى فراشها فلم تسمعه ، فنهضت متكاسلة ، وغادرت الفراش وهى تتثاءب ٠٠ وأخذت تعد للطفل رضاعته المعتادة من تلك العلب الفاخرة التى أهدتها اياها ايليا الكبرى امها ٠٠ وبينما كان الطعام ينضج على النار غسلت وجهها ونظرت الى أنطون الذى يغط فى فراشة المجاور لفراشها ولوت شفتيها مشمئزة نافرة ثم عبأت الطعام للطفل فى زجاجة رضاعته بعناية غير مدربة ، وحملته الى غرفته فما كاد بصرها يقع على الفراش حتى فوجئت بخواثه من طفلها ٠٠ بهتت لحظة ومضت تتلفت فى الحجرة هنا وهناك كأنما كان ممكنا لذلك الرضيع ان ينتقل من رقدته ٠٠ حتى ادركت اختفاءه فألقت ما بيدها واسرعت الى فراش زوجها ومضت تهزه حتى أيقظته فنهض مفزوعا وجرى الى الفراش الخاوى ليتأكد بنفسه من صدق ما أخبرته ٠٠ وقد فوجىء ايضا باختفاء طفله الملكى فجرى مسرعا الى كابينة نيكولا ، فوجد فراشه

خاويا . فاستدار الى ايليا التى لحقت به واكد لها ان نيكولا هو الذى فعلهـا . !

وكان الشروق قد جلل الجبل بضوئه الذهبى ، وبدأ شـغيلة المنجم ينهضون من رقادهم المضنى ويشعلون نارهم تحت الشـاى الاسود وحبات الفول المتصلبة حينما شاهدوا الخواجة عبدالله يهبط سلم الكابين مهرولا تجاه خيامهم فى بيجامته الحمراء المخططة بالأزرق اللامع ، والابيض اللامع ، فأدهشهم مشهده المضطرب ، كما ادهشهم نزوله المبكر هذا ، وخمنوا ان شيئا غير عادى قد حدث .

واقتحم فطورهم الصباحى وهو يلقى اليهم بأوامره المهتـاجه ليبحث بعضهم عن نيكولا داخل المغارة بينما يذهب البعض الآخـر لتجهيز السيارة الجيب واحضارها .

وقد عاد الذين ذهبوا الى المغارة وحـول السفوح القريبة مـن فتحة المنجم ليخبروا بفشلهم .. وجاءت السـيارة فركبها انطـون وحشد فيها ماستطاعت أن تحمله من العبابدة ، وانطلـق بها عبر المنحدر الهابط من باحة المنجم الىالصحراء وراء نيكولا وطفله الملكى بينما بقيت ايليا ، تتطلع الى الشروق يوشى أطراف السماء بأوشيته المذهبة .. وتفكر فى شعورها .. كانت منزعجة .. لكن انزعاجها مشوب بالهدوء ، كأنما هو نوع من الاستسلام والتسليم بما حدث يتوافق تماما مع شعورها الاول الذى رفض هذا الطفل المزروع عنوة فى احشائها .

ولم يكن شعورها الطفولى قد انضجته الامومة بعد .. فما زاد الامر بالنسبة لها عن قدر هائل من الالم تحملته وهى منطرحة عـلى ظهرها بينما يدا طبيب امها الايطالى المدرب يجذب من احشائها تلك الكتلة المحمية اللزجة .. التى قيدتها بمجمـوعة مـن الواجبـات لاطعامها وتنظيفها .. وما كان اسرعها الى النفور والضـيق حينما يصحو الخواجة عبدالله فيبدأ برنامجه اليومى فى مراقبـة الطفل ، وملاحقتها للاهتمام به .

هذا الخواجه عبدالله نفسه ، الذى لا تشعر تجاهه بغير شعور الواجب وشعور الندم .. فقد أدركت بوضوح فى تلك الليالى التى بللها خلالها بلعابه وعرقه ، انها استجابت لألعوبة غير شريفة قامت بها السيدة اقبال هانم ، فألقت بها برضاها وموافقتها .. فى زيجـة غير متكافئة .. !

وعندما جاءها فى الظهيرة والقى تحت عينيها بلفافة الطفل ممزقة غارقة فى الدماء ، صرخت مفزوعة واخفت عينيها بكفيها الموردتين ٠٠ كانت نفسها مهيأة لضياع الطفل ضياعا معنويا لم يرسم له خيالها شكلا من الاشكال المادية ٠٠ فلم تكن مهيأة لرؤية الدم ٠٠ فصدم لونه روحها الشفافة ، فدخلتها البشاعة ٠٠ وانهارت فوق فراشها تبكى ٠

فندم على تهوره ٠٠ اذ القى باللفافة الغارقة فى الدم تحت عينيها بشعور المحنق المغيظ الذى فقد فى لحظة خاطفة ، أهم ما يملكه ، دون أن يتمكن من الدفاع عنه ٠ !

لقد أنطلق بالسيارة المعبأة بالعمال والعبابدة ، حتى خرج من منزلق الباحة الى المدق العام ونزل خيرالله ، أحسن من يقتفى الاثر من عبابدة المنجم ، الى المدق ، ومضى يتشمم ترابه وحصاه ويدقق فيه النظر ٠٠ ثم أشار لهم أن يتبعوه ، ومضى يقودهم حتى توقفوا أمام الذؤابة الجبلية ٠٠ ولم يعد ممكنا للسيارة ان تواصل المسير فغادروها وقفز من تمكن منهم من خلف خيرالله يتسلقون الذؤابة حتى اعتلوا قمتها ووقفوا على الشرفة المأساوية التى قدم نيكولا قربانه الدموى فيها ٠٠ وشاهدوا فتات لحم على الصخور ٠٠ وشاهدوا آثار أقدام حيوانية مطبوعة أطرافها ومخالبها بالدم ٠٠ وشاهدوا اللفافة الممزقة التى غرق بياضها فى اللون الاحمر القانى ٠٠ نكسوا رءوسهم وهم يجمعونها ويطوونها ٠

واخذ بعضهم يلتمس بعينيه نيكولا فى ذلك الفراغ الصحراوى المترامى البعد ، من هذا الارتفاع المناسب ٠٠ وهز بعضهم رأسه ، وهو يلوح تجاه بحر الرمال الخطير والمخيف ، مؤكدا ان نيكولا هناك الآن ٠

ألم يسبح بنفسه منتحرا من قبل ، بين انياب سمك القرش فأنقذوه ؟ فما الذى يمنعه اليوم من فعلها ؟ ٠

وواصلوا الهبوط حاملين اللفافة ، لينقلوا للخواجة عبدالله المنتظر تحت الذؤابة فى السيارة نتيجة بحثهم ٠٠ فلطمته تلك النتيجة ٠٠ وتمنى لو أن نيكولا قد أغرق نفسه الشريرة والشيطانية فى بحر الرمال فعلا ٠

وكان أبشر قد خالجه الشك فى أن يكون نيكولا قد كرر فعلته ٠٠

فأقنع خيرالله بالبقاء للتـــأكد بتقصى الاثر ٠٠ وهكذا بقى الاثنـــان يتشممان حواف الشرفة الصخرية ، ويدققان النظر فى صـــخورها فراعهم ان رائحة الوحش الكريهة ، قد أمتزجت برائحة الدماء وملأت المكان ونفذت فى مسام صخوره ، وأصبح مستحيلا أن يشـــموا فى التراب ، رائحة نيكولا ، حتى الحصى ، الذى بقى لهم كأمل ، يتبينان من حركته وسكونه خطوات نيكولا ووقع أقدامه ، أكتشفوا أنه قد فقد استقراره ، وانه كان عرضة لعديد من الاقدام الحيـوانية ، لابد قد تصارعت فوقه صراعا همجيا ودمويا قلب نظامه وســكونه ٠٠ واخفى الى الابد ، خطوات نيكولا ! ٠

لكن أبشر لم يفقد الامل ٠

دائما أبشر ٠

فى البحر ٠ حيثما القى نيكولا بنفسه ومضى سابحا الى كهوف القرش العميقة ، كان ابشر هو الذى صرخ ، هو الذى جمع الرجال لانقـــاذه ٠

تقدم من ايليا وقال انه لم يبق أمامهم سوى الصراخ فى البئر ، تلك عادتهم القديمة ، لمعرفة مصير الغائب ٠٠ فليبحثوا الآن عن بئر قديمه ولتنحن ايليا وتصرخ فيها باسم نيكولا ، فان جاءها صـــدى الصوت ، كان نيكولا حيا ٠٠ وكان موجودا ٠٠ وان صمت البئر وابتلع الصراخ دون رد ، يكون نيكولا قد انتهى فعلا فى بحر الرمال الخـــــادع ٠

فنظرت ايليا بلهفة داخل عينى أبشر ، كأنما تقرأ فى هاتين العينين السوداوتين ، دخيلة ابشر المؤمنة بوجود نيـــكولا وحتمية بقـــائه ٠

ومالت بنظراتها متأملة فى كيان ابشر البدوى كأنما تكتشفه لاول مرة ٠٠ وكانت تشعر بحرارة القرب منه فى مقعد السيارة وهو واقف على مسافة يمكنها من خلالها ان تستمع الى قلبه وهو يدق ٠

هذا هو أبشر رفيق طفولتها ، وصاحب لهوها وعبثها عـــلى صخور الصحراء ورمالها ٠٠ ورفيق جديتها ومسئوليتها حينما بدأ نيكولا ينشىء على الجبل مدينته ٠

أصبح مرآه مألوفا وعاديا بالنسبة لها ٠٠ فما بالهـــا الآن تتلمس بعيونها دخيلته وتبحث فيها ٠٠ ؟

كأنما تلك الروح القديمة لثائر الصحراء الرومانسى أيسا ، تطل عليها الآن كما أطلت على أبيها من قبل من خلال هاتين العينين المركبتين فى جسد الابن ٠٠ !

وطلبت من الجميع أن يصعدوا الى السيارة ليبحثوا عن بئر ٠٠ وقفز أبشر الى عجلة القيادة بجوارها ، وأدار السيارة مسددا عينيه الى الطريق الوعرة ، مجنبا عجلاتها أسنان الصخور وحوافها المدببة منحدرا على المدقات وصاعدا معها ، ودار حول الدرهيب صاعدا الى جانبه الغربى ٠٠ حيث لاحت لهم على البعد تلك البئر المهجورة المشئومة التى كان قد خيل لهم أنها قد ذهبت فى النسيان بفجيعتها وشؤمها ، وجثث الرجال الثلاثة ، ايسا ورفيقه ، الذين اختفوا فيها بينما يحاولون تطهيرها حينما كان تشغيل الدرهيب فى أوله ٠

وأوقف أبشر السيارة حين لم يعد ممكنا لعجلاتها أن تجتاز الصخور التى ضاقت حولها فغادروها ومضوا يصعدون خلفه ، وقد عادت الى ذاكرة الرجال عشرات الثعابين تسعى حول الحافة ، صاعدة هابطة ، تفح وهى تدور وتلتف ٠٠ ولكن الحافة الآن كانت خالية ، ولا أثر للثعابين فيها ، وكانت قطعة الصاج القديمة التى غطى بها الشيخ على فوهة البئر على الجثث الضائعة ، مايزال جزء منها باقيا ، بينما تآكل الجزء الآخر وتهرأ والتوى ، فتقدم أبشر وهم ينقلون أقدامهم خلفه على الحصى بحذر ، وكأنما يخشون أن تخرج عشرات الثعابين من ذاكرتهم وتسعى بين أقدامهم !٠

ومد أبشر ذراعيه المفتولتين فأزاح قطعة الصاج جانبا واستدار الى ايليا وسألها ان تتقدم وتلقى فى الفوهة بصراخها ، فلتصرخ على نيكولا وتناديه بما أعتادت من قبل ، ان تناديه به ٠٠ فأقتربت ايليا تجاه الحافة ومالت بجسدها ليصبح فمها موازيا للفوهة ٠ بينما أمسك بها أبشر من وسطها لتطمئن فى ميلها ، وأمسك باقى الرجال به من وسطه ، وتأهبوا للبدء فصاح بها أبشر أصرخى الآن يا ايليا ، من قلبك المتلهف على نيكولا ، القلق عليه ، أصرخى باسمه فى البئر فاستجمعت ايليا قواها ووطدت قدميها على الحصى ، وصرخت باسم نيكولا فى الفوهة ٠٠ لكن لم يخرج من فمها صوت ٠٠ فأوقفها أبشر لتلتقط أنفاسها ، ثم عاودت الانحناء وأمسكها من وسطها وأمسك الرجال به ٠٠ وصرخت ايليا باسم ابيها ، فاندفع الاسم الى الفوهة ،

لحظة قصيرة جدا توازى عمرا بأكمله استغرقها اندفاع الصوت عبر الفوهة الى قاع البئر أمسك الجميع خلالها بأنفاسهم • منتظرين ان يتردد الصوت ويعود اليهم ، أو يموت فى الصمت •• لكن الاسم ما كاد يجتاز الفوهة حتى بدأ يتردد صداه فى المدى العميق الموصل الى القاع ثم يتصاعد اليهم سريعا متلاحقا وكأنه ألف أسم القيت فى البئر فرقصت الفرحة فى قلوب الجميع ، بينما ايليا لم تتمالك نفسها وعاودت الصياح بالأسم ، فكأنما الصدى هو نيكولا نفسه الذى تنادى عليه ، وقد أجاب نداءها •

وعاد صوتها يتردد متصاعدا اليهم بآلاف الاسماء من قاع البئر وأبشر يجذبها من وسطها ليهدىء من انفعالها •• فلم تتمالك نفسها واحتضنته •• واخذت تسأل ملهوفة عما يمكن عمله من بعد •• فأحنى أبشر وجهه وهو يسحب جسده الاسمر من بين ذراعيها اللؤلؤيتين وقال ان نيكولا موجود الآن فى مكان ما من هذه الصحراء الشاسعة •• وليس أمامهم من سبيل سوى البحث عنه •

وفتحت الصحراء قلبها لهذين اللونين •• الاسمر والاشقر معا ، أبشر وايليا •• كما فتحته من قبل لايسا ونيكولا ، كأنما لا يتطرق اليأس الى قلب المكان ابدا ، فيعاود بين الحين والحين نفس التجربة مع البشر ، ويكررها ! •

وانفتح الطريق أمام العربة الجيب التى تحملهما سهلا وميسرا الى الشيخ شاذلى •• لعل نيكولا قد لجأ بعد فعلته المشئومة الى ضريح ذلك المؤمن الميت من سبعمائة سنة يغسل فى بئره المعجزة هذه ، همومه الغامضة الدفينة التى لم تستطع حتى ايليا ، أن تسبر غوره اليها •• لكن الضريح كانت خالية الا من مئات الصقور تحوم على الهضبات كأنها تحتفل بموسمها السنوى ، ثم تنقض فتختطف بمخالبها من الارض بقايا الاحتفال الذى كان قائما وانفض برحيل الاتباع والمريدين والزوار ، من أقدام ماشية التضحية وأحشائها •

وكان العم جامع ذلك العجوز القديم الذى تجاوز بعمره عشرة أعوام بعد المائة •• ما يزال قابعا بطريقته المعتادة على فخذ ونصف كأنه مشرئب ، ليرى بأذنيه ، بعد ان فقدت عيناه قدرتهما على الرؤية مواصلا ما يتشدق به على الناس ويفاخرهم بحراسته لمقام الشيخ العظيم الراحل فى تلك المتاهة اللا متناهية •• بينما هو فى الحقيقة يحتمى بـه •• !

ولم يكن لنيكولا فى المكان أثر .

ومرقت بهما السيارة فى دروب الصحراء عبر تلافيف الجبال ، يطوفان بالمناجم المتناثرة على مسافات هائلة يسألان سائقى عرباتها وقادة جمالها عن نيكولا ، فلا يحصدان اجابة شافية ، حتى الرعاة فرسان الصحراء ، الذين يجوسون حفاة بين صخورها ورمالها شبرا بشبر ، لم يسمعوا بنيكولا ، أو يشاهدوه ، منذ آخر مرة استضافهم فى الدرهيب وحملهم بالماء والخبز ؟

وفى الطريق كانت ايليا ، تستمد من الاجابات الموئسة صلابة وقوة ، فيمضى بها الخيال المثقل بالحوادث وهى جالسة مستكينة لتلك الطمأنينة الحارة الغامضة المنبعثة من أبشر ، فتشعر بروحها تصطخب فى داخلها ويسيطر على قلبها يقين أشبه بالوحى ، انها لو غاب نيكولا فسوف تواصل فى الصحراء ما بدأه ، الا يكون ذلك السحر النفاذ المبهم الذى سيطر على روح نيكولا فى الزمن القديم وهو يتطلع فى عينى ايسا ، صنو هذا السحر النفاذ المبهم الذى يسيطر على روحها الآن وهى تتطلع فى عينى أبشر .. ؟

ومدت ايليا فجأة اصابعها البيضاء الرخوة ، ومست بأطرافها وجه أبشر الاسمر ، ومضت تتحسس بشرته الملساء فالتفت اليها .

وأعاد ابشر وجهه الى ما كان عليه مادا عينيه الى الطريق بعد ان ربت بهما على وجه ايليا .. وجذبت بصره على البعد بقعة تتحرك فمد عينيه تجاهها واطلقها فتبين أن البقعة رجل .. وكان قد أوقف السيارة على حافة وادى الخريط الممتد لمسافات هائلة متراصة فيها كثبان وراء كثبان من الرمال الناعمة .. فأدهشه أن يجوس فى هذه الكثبان رجل .. وانتفض قلبه ومضى يدق بسرعة وأمسك بكتفى ايليا وأشار لها بأصبعه تجاه البقعة المتحركة .. فمضت ايليا تدقق البصر وتساءلت أيكون نيكولا هو الضائع فى تلك الكثبان الهائلة ، فقفز أبشر من السيارة وصاح بها أن تتبعه ليتحققا ..

ومضى يسبقها قافزا حافة الوادى وهى تهرول خلفه منتزعة أقدامها الدقيقة التى تغوص فى الرمال حتى اقتربا اقترابا كافيا من الرجل يسمح لهما بتبين ملامحه ، فتوقفا مبهورين عاجزين عن التقدم خطوة وعلى مرمى حجر أمامهما كان عبد ربه كريشاب ذاهلا عما حوله .. بجذب حبال شباكه المطروحة على الرمال غائصة فيها فتتجمع الشباك وتدنو منه حتى تصبح ملء يديه جميعها فيدقق فيها النظر

ويجدها خالية تماما من السمك فيلوى وجهه متضايقا ويقذف بهـا بعيدا عنه ثم يقعى على الرمل باكيا لحظة ٠٠ ينهض بعـــدها فيجمع الشـــباك من جديد ويفردها وينفضها كأنه يخلصـــــها من القواقع والفضلات وأعشاب البحر الشائكة ، ثم يطرح بها على الرمال مـن جديد املا أن تعوضه بالسمك تلك المرة عن المرة السابقة ، وانتفض قلب ايليا بينما ادار أبشر وجهه الملون بالفجيعة ومضى يهزه اسفا ، فذلك ما انتهى اليه اذن صديقهما القديم ٠



فصـــل ختــامى

استيقظ نيكولا وفتح عينيه فلم ير غير الظلام مطبقا حوله ٠٠ واكتشف أن عظامه قد تيبست حينما حاول تحريك قدميه للنهوض وقد سرت فيهما برودة نفاذة ، فمضى يدلكهما بيـــديه المتيبســـتين أيضا ، حتى أصبح الأمر بالنسبة له عذابا لا يحتمل ٠٠ فترك ساقيه على حالهما واعتدل بنصـــفه الأعلى فأســـنده قائما وأرخى ذراعيه بجواره وهمد ٠

تلك هى لحظتك التى طالمـــا حلمت بها يا نيـــكولا قادمة ٠٠ وما عليك سوى انتظارها صابرا وهادئا فلا تزعج قدومها بأية حركة لقد بدأ الأمر بقدميك وســـاقيك وكفيك وسوف يسرى التيبس فى ذراعيك ويتسلل منهما عبر جسدك كله فيصبح متيبسا ٠٠ وتذوب كما حلمت فى تلك الطبيعة التى سحرتك بروحها الجذابة والوحشية عن الحضر الذى قدمت منه ٠

تتيبس وتصبح صخرة من الصخور فى قلب الدرهيب العظيم الذى أعطيته قلبك وعقلك وروحك ٠

تلك معجزة قديمـــة لابد وأنها الآن تتكرر معك ، ألم يحدث

ذلك للجد القـــديم الأول لقبائل البجاة ، كوكا لوانكا ، حين أعطى عقله وقلبه وروحه جميعها لتلك المغـارة المرتفعة فوق الجبل المقدس المرحوم علبة ، حتى أصـبح صخرة ، تنبت حولها أشجار مقدسـة تطاول السحب تمرح خلالها تلك الكباش البيضاء الشبيهة بالأرواح وسط المياه العذبة التى تتفجر من الصخور منسابة حول تلك الروح الصخرية المقدسة ؟

تلك هى معجزة الانتماء الحقيقى يا نيكولا ، وسـوف تتكرر معـك .

كان قد عاد قلق الضـمير ، معذب الروح بعد أن تخلص من ثمرة خطيئته فما وجد فى نفسـه القدرة على مواجهة أحد فمضى الى الدرهيب ملاذه وملجأه ، وهبط المغارة حتى وصل الى فتحة الممرات فعبرها .. وكان يعرف جيدا ملاذه وملجأه .

هنا فى سراديب الطبقة القديمة العليـا ، حيث توقف البشر القدامى عن البحث بعد أن انتزعوا من الصخر خامته ، توجد الممرات المهجورة الملتوية داخل الجبل كشرايين يملؤها الهباء .

هنـا يمكنك أن تختبىء يا نيـكولا بكل ما تحمل روحك من عذاب وتقبع يانيكولا فى كهف صغير مغلق ، كطفل فى رحم .. أو دودة فى شرنقة .. ولن تكون بحاجـة الى الطعام ولديك فى داخلك من الالم ما يكفى لتمضغه !

وتوقف العمل فى الدرهيب أياما ثلاثة ، أمضاها نيكولا دون طعام ، مختبئا فى شرنقته الصـخرية داخل كهف الممرات العليـا القديم فى بطن الجبل .. وفى الليل حينما يضمن اضمحلال الحركة وسكونها فى الباحة حيث الكباين ومخيمات العمال ، يتسرب نيكولا من مخبئه وينحدر زاحفا عبر الممرات الحارة والممرات الباردة متلسما أسفل الصخور وهو يحبو على كوعيه وركبتيه باحثا عن زمزمية ماء خلفها وراءه أحد العمال فى الكهوف البيضاء المظللة بالاخضرالشديد القتامة .. فى ذلك المنـاخ الثلجى حيث وقفت يانيـكولا مئات المرات ورسمت للرجال ممرات أقدامهم فى جوف الدرهيب العظيم ، وجعلتهم يلمسون قلبه الداخلى بأيديهم الخشنة ، يزحف نيكولا على يديه وركبتيه متلمسا نقطة ماء .. ويتجـول قليلا فى مملكته على عمق ألف متر من ذلك المدخل المسـحور .. وعلى امتـداد عشرات الكيـلومترات فى تلك السراديب التى تتوسدها قضـبان حديدية

تسير عليها عربات نقل الحجر والخام ، رسمها نيكولا كلها وخططها بعقله الخبير .

ويلعق حلقه الجاف بلسانه الجاف ويبرطم بلكنة ركيكه سبابا عربيا وهو يصعد متسلقا كقرد عجوز على سلالم الممرات العمودية عائدا الى كهفه المختار .. رحمه وشرنقته !

وفى اليوم الرابع سمع نيكولا دبيب الأقدام تهبط السلالم الحديدية وتملأ السراديب والممرات فاستولى عليه شعور بالفزع .

ها هم يعاودون العمل بدونه ، ويملأون الدرهيب من جديد بالضجة .. يواصلون ما بدأته يانيكولا كأن لم تكن ، وسيمضى زمن تصبح بعده نسيا منسيا .. انهم يعوقون الآن حلمك الأخير ، ولن يمكنك أبدا وسط تلك الضجة أن تتجمد أو تتحول ، أو تصبح صخرة مقدسة داخل الدرهيب كما فعل كوكا لوانكا من قبل .

وصرخ نيكولا باسم ايليا ، مرة ومرتين ، كأنما يستغيث بها أن توقفهم .. فلم توقفهم ايليا .. استمر الدق ، واستمر الحفر ، بينما كانت ايليا تجوس فى الممرات تتابع صوت نيكولا ، باحثة عنه ، حتى وصلت الى السراديب القديمة العليا .. ووجدت نفسها تدور حول السنادات الخشبية التى ترفع صخرة ضخمة وتمنعها من السقوط .. ورأت نيكولا كطيف خرافى فاندفعت ناحيته ، لكن نيكولا كان يحملق فيها بفزع .. وحين دنت أصابعها المرتجفة من وجهه تراجع مرتعبا وقفز محاولا الافلات ، فضربت قدمه السنادة الخشبية الرئيسية فانزلقت .. وانهارت الصخرة .

لقد صرخت ايليا وهى ترى الصخرة تنطبق على باب الكهف وتحبسها بداخله .. وأخذت تهبش الصخر فى محبسها المظلم بأظافرها الجذابة الملونة .. بينما صرختها تتسرب عبر السراديب وتتردد فيها .

حتى بعد أن امتلأ حلقها بتراب الانهيار ، وكفت عن هبش الصخور وبدأت تهبش فى عنقها الجميل بأظافرها الجميلة ، قبل أن تسكن حركتها . كانت الصرخة ماتزال تتردد فيسمعها نيكولا خلال هرولته المذعورة فى السراديب ، كأنها تطارده لتمسك به وتعيده الى ايليا .. وكأنما الالم المنغم واليأس والدهشة فى تلك الصرخة المفجوعة تعاتبه وتدعوه للبقاء معها .. كأنها تلوح له بعالم مسحور هما كفيلان بخلقه فى تلك الصخور الصماء ، ليعيشاه معا جنبا الى

جنب كما كان دائما ٠٠ رجل وابنته ٠٠ أو رجل وأمه أو رجل وامرأته المعشوقة والمفضلة ٠

لقد ظلت ايليا تنتظره داخل صخورها المظلمة فى سراديب الجبل الخفية أياما وأسابيع طويلة ، لعل حنينه يدفعه ويعود به اليها ٠٠ لكنه كان محموما مقرورا يتفصد عرقا ثلجيا على سريره الحديدى ويهذى بكلام غريب غير مفهوم ٠٠ فدثروه بأغطية كثيرة تعوق حركته ، ومنعوه من الهبوط الى السراديب ٠٠ فألهب ذلك غضب ايليا ٠٠ وكان غضبها ناريا وعاصفا ، فأطلقت روحها تبحث عنه . تلك الروح العاتية التى أخذت تتخبط فى سقوف الدهاليز والممرات حتى استطاعت أن تثقب جدران الدرهيب وتخترق طبقاته طبقة بعد طبقة ، وانفلتت من سطحه الخارجى الشاهق الارتفاع ٠٠ ثم ذابت فى الفضاء اللامتناهى ، حيث لم يعد بامكان أحد أن يعثر عليها ٠

وبعد ذلك بدأ غضبها يتجلى ويثمر ، فبدأ السيل ينهمر مهولا من الثقوب التى صنعتها ، فيض من الماء يكتسح ويغرق فيملأ السراديب والممرات ٠٠ ويجعل مستحيلا على الرجال أن يدخلوا قلب الدرهيب ، أو يواصلوا التعدين فيه ٠

فأين لهؤلاء الهاربين جميعا رباط دموى كهذا يمنعهم من الفرار ؟

ويبصق نيكولا من فمه ترابا صحراويا حملته الريح وهو يتأمل الفناء المخرب والمهجور أمام البيوت الخشبية حيث كانوا يروحون ويجيئون ، يعملون ويأكلون ويلعبون الورق ويشربون صاخبين أو شاكين همومهم ٠

لقد أخرجوا جميعا محاسنهم ومباذلهم وقدموها على تراب هذا الجبل قرابين فطنة وخلاعة ٠٠ فما أغباهم حين يتركونه ويفرون ٠٠ مخلفين وراءهم نيكولا وحده ، لينشىء على ذلك الجبل المتفرد فى متاهة الصحراء صلبان عذابه وتكفيره ٠٠؟!

هكذا يتوجع نيكولا وهو يلوى رقبته ويزيح العرق المترب الذى ينهال غزيرا من جسده العارى المترب بكفه الكبيرة المتربة فيصبح التراب ملء مسامه جميعا ٠٠ بينما الشمس تصبغ الفناء الخالى أمام البيوت الخشبية الخالية ، فيبدو التراب والرمل رماد احتراق صخور تلك الباحة ، بهذا الضوء النارى ، فيصرخ نيكولا ،

آه يا ايليا الحبيبة ·· ليتنى أطعتك وتركت نفسى لصرختك الواعدة تعود بى اليك ·· فنبقى دائما معا !

وحين تختفى الشـــمس فى الغرب ، ويزحف اللون الرمادى كثيفا على أصفر الصـحراء وأحمرها وأخضرها فيكسوها جميعا ·· ويتحول الحر اللافح الى نسيم لافح ، ثم الى برد لافح ·· وتصـــبح الجبال أشباحا خرافية متضائلة ووهمية فى ذلك المدى اللانهائى ·· تتعذر الرؤية على نيـــكولا ، فيدلف الى بيته الخشـــبى ويجرع من زجاجة السبرتو الأحمر جرعة تشـعل الضـــوء فى داخله ، ويعود ببطانية يلتف بها ·

ثم يقبع مســـتندا بظهره الى صخور الدرهيب التى بدأت فى التثلج ، حتى يظهر فى شرق السماء كوكب المريخ باحمراره القرنفلى الخفيف مطلا فوق جزيرة العرب ·· ويبدأ المشـــترى يتأرجح بعيدا فوق الصحراء الكبرى ·· فيسبح عقل نيكولا فى الملكوت ·





قالوا عن فســـــاد الأمكنة

- رجاء النقاش
- يوسف الشارونى
- أبو المعاطى أبو النجا
- أقبـال بركـة
- عـــلاء الديب
- نبيل فرج
- محمد جبريل
- على شلش
- غالب هلسا
- د . مجاهد عبد المنعم مجاهد

رجاء النقاش

الوجه الذى أود أن يخرج من دائرة الظل والصمت فى الحياة الادبية العربية كلها هو « صبرى موسى » فروايته الجديدة « فساد الامكنة » تكشف عن موهبة فنية لامعة ، وتؤكد أنه يستطيع ولاشك أن يقدم شيئا هاما فى ميـــدان الرواية العربية لو أعطى لهذا الفن وقتا كافيا وجهدا أكبر ٠

لقد ظل « صبرى موسى » قلقا حائرا بين الوان من الكتابات الصحفية السريعة لمدة سنوات طويلة ، كمـا كـان من أكثر من عرفتهم من الادباء الشـبان حيرة وقلقـا بين تجارب الحياة الواسعة المختلفة ، وكثيرا ما كنت اتصور أن حبه للحياة ومغامراته فى ميادينها المتعددة سوف تقضى عليه وتهلك موهبته ، ولكن يبدو أنه اســـتقر أخيرا ووجد نفسه فى فن الرواية ، ولو أنه واصل طريقه الفنى بجدية واهتمـــام فلسوف يحقق ولاشك شيئا بارزا له قيمة محسوسة فى هذا الميدان ٠

أول ما يلفت النظر فى هذه الرواية هو أنها تدور فى جو جديد بكر لم يلتفت اليه فنان من قبل ، ان موضوع الرواية غير تقليدى ، وهذه نقطة اساسية يجب أن ننتبه اليها حياتنا الادبية ، فالرواية المصرية والعربية عمومـا تـدور حـول الحيـاة فى المدينة أو الحياة فى القرية ثم لا تلتفت الى أبعد من ذلك ، وهـــذا خطأ وقصور فى

الرؤية ، فمصر ليست مجموعة من المدن أو مجموعة من القرى ، ان هنـــاك بيئات انسانية واجتماعية أخرى ، لو انتبه اليها الفنان لاكتشف فيهــــا الكثير من المادة الانسانية الجديدة الخصبة ، واذا نظرنا الى الادب الغربى الذى يعتبر نمــوذجا ادبيا متقدما بالنسبة لنا فاننا سوف نجد أمامنا فنانين كبارا قد تجاوزوا الحدود النقليدية للفن ، وبذلك استطاعوا أن يجددوا أدبهم وأن يضيفوا اليه الكثير من التجـــارب الفريدة غير المألوفة ، وهذا سر من اسرار بقائهم وخلودهم وتأثيرهم على الناس ٠٠ هناك مثلا « جوزيف كونراد ١٨٥٧ ـ ١٩٢٤ « الروائى الانجليزى الكبير ٠٠ لقد ترك هذا الروائى حياة المدن والقرى ليصور حياة «البحارة»٠٠وحياة الجزر البعيدة النائية، واستطاع من خلال هذا الميدان الجيد أن يقدم ألوانا رائعة من التجارب الانســانية ، ونفس التجربة قام بها « هرمان ملفيــل ١٨١٩ ــ ١٨٩١ » الاديب الامريكى الكبير ، مؤلف الرواية ، بل السيمفونية المشهورة « موبى ديك » أو « الحوت » ، لقد اعتمد هو الأخر على حياة « البحارة » وتصوير المناطق النائية ، بعد أن خاض بنفسه تجــارب عديدة فى هذا الميدان ، وهناك عشرات النماذج الاخرى من الادبـــاء العالميين الذين كسروا الحواجز التقليدية ، وبحثوا عن عوالم جديدة بكر ليستمدوا منها تجـــاربهم الانسانية والفنية ٠

بهذه الفكرة خرج « صبرى موسى » من المدينة يسعى ، فقضى عاما كاملا فى جبــل « الدرهيب » فى الصحراء الشرقية قرب حدود الســودان ، من خــلال حيــاته فى هــذا الجبل ومعاشرته لمن يعيشون حوله من الجماعات البشرية استطاع أن يكتب روايتــه الجديدة الجميلة ٠ لقد كسر هذا الفنان هو الاخر الحواجز التقليدية ليبحث عن شىء جديد وجو جديد وطعم جديد واســتطاع منذ الصــفحات الاولى لروايتــه أن ينقلنــا الى هذا الجو ويفتح شهيتنا لمعرفة أسراره وخفاياه ، وقد نجح الفنان تماما فى هذا عبر جوانب روايته ، فالدهشة والاحساس بالعالم الجديد يسيطران علينا خــلال الرواية

وبالاضافة للهيكل الرئيسى لهذه الرواية الجديدة الممتعة ، الذى يحتوى ماتضمه من أحداث جذابة تتميز بالعنف والوحشية والتدفق ٠٠ فنحن نجد فى هذه الروايةأكثر من قيمة فنية وفكرية :

ففيها قدرة على التركيز والبعد عن الفضفضة والثرثرة،وهذا التركيز هو سر أساسى من اسرار الفن الحديث ، فعصرنا لايقبل التطويل والافاضة والجرى وراء التفاصيل ، أنه عصر التركيز والتكثيف ٠

ان الكاتب يصــور لنا بصــدق ووعى ومعرفة حيــاة الصــحراء القاسية العنيفة ، بما فيها من تقاليد وعذاب واحلام وواقــع اجتماعى غريب ٠

وفى الرواية تصوير نادر وجديد لانحلال الاوستقراطية القديمة التى قضت عليها ثورة ٢٣ يوليو ، وفيها تصوير لانعدام الاحساس لدى هذه الارستقراطية بأى نوع من القيم الانسانية او الاعتبارات الاخلاقية ، لقد كانت هذه الارستقراطية،وعلى رأسها الملك ، تستبيح أى شىء فى أى وقت ومع أى انسان ، لاتخشى ولا تحسب حسابالمصائر البشر ٠

وترسم الرواية صورة أخرى للاستغلال الاقتصادى الاجنبى الذى كان يتربص بأى جهد يبذله الانسان فى بلادنا ، فقد كان الانسان يعرق ويتعب ويشق الصخور مقابل لقيمات قليلة ، بينما كان الاجانب والمتمصرون وكبار التجار يجمعون ثرواتهم الضخمة من هذا الجهد وهذا العرق الغزير ٠

ان حركة الرواية تقوم على « الاغتصاب » ٠٠ اغتصاب الطبيعة ٠٠ اغتصابالصحراء والبحر والجبل ٠٠ ثم أغتصاب الانسان قبل أى شىء آخر ٠

وتكشف الرواية أيضا وبصورة رائعة عما يملكه الانسان البسيط الذى يعيشفى تلك الصحراء القاسية ، من رصيد الصلابة والقوة النفسية ٠

هذه بعض ملامح اللوحة الجميلة التى رسمها « صبرى موسى » فى روايته « فساد الامكنة » ٠٠ تلك الرواية الجديدة الجريئة التى تتفجر بالمتعة والجمال والحيوية ، بل وتتفجر بالصور الوحشية الفريدة ٠

على أن هذه الرواية تثير مع ذلك عدة ملاحظات سلبية ٠٠ منها أن الاسلوبالصحفى يتغلب على « صبرى موسى » أحيانا لكثرة مااستخدم الكاتب هذا الاسلوب الصحفى واعتمد عليه٠٠فلقد كانباستطاعة الكاتب أن يتأمل ونتأمل معه نفسية «أيسا»الاعرابى الذى سرق الذهب من الجبل ليعرضه على اجداده الذين تقول عنهم الاسطورة أنهم يسكنون الصحراء ، هذا المشهد الرائع الجميل لم يستغرق من الكاتب الا صفحات قليلة ملأها بالوصف الخارجى السريع ، بينما كان هذا المشهد جديرا بأن يتوقف أمامه ليقدم ما يحتويه من صور وأوهام وأسرار ٠٠ وهناك مشهد رائع اخر كان كفيلا بأن يكون لوحةمن أجمل لوحاتالآدب العربى علىالاطلاق،هو مشهد الزواج بينالاعرابى وعروس البحر ، هذا المشهد القاسى المفجع الرهيب الذى فرضه الملك فى نزوة من نزواته الوحشية على الاعرابى ليستمتع ويتسلى ٠٠ هذا المشهد أيضا تم تصويره بسرعة ،كان الكاتب يستطيع أن يقدم لنا من خلالهذا المشهد صورة نادرة المثال فى الادب العربى

وعلى كل فان رواية « فساد الامكنة » تقدم الينا موهبة لا شك فيها ، وهى رواية ممتازة وفريدة رغم كل الملاحظات ٠

● مجلة المصور ، العدد ٢٥٧٠ - يناير ١٩٧٤ ٠

يوسف الشـــارونى

« فساد الامكنة » هي العمل الروائي الاول لصـــبرى موسى ، وكان من قبل قـــد نشر خمس مجموعات قصصية وكتابين مما يعدان من أدب الرحلات ، احـــدهما « فى البحيرات » والآخر « فى الصحراء » (١٩٦٤) ، وهذا الكتاب الاخير وثيق الصـــلة بروايتنا لانه الوجه التسجيلي لها ، كما أن روايتنا هى المحاولة الدرامية لهذه الرحلة •

واعتقد أن صبرى موسى قد بذل مجهودا فنيا واضحا لكى يتحول من كتابة القصة القصيرة الى كتابة الرواية ، ذلك لأنه من الملاحظ أن أسلوب القصة القصـــيرة عند صبرى موسى يتسم بتتابع الجمل القصيرة وتزاحم ما تتضمنه من أحـــداث ، حتى أنه يكتب فى بضعة أسطر ما يكتبه قصاص آخر فى عشرات بل وربما مئات الصـــفحات (انظر : يوسف الشارونى ، دارسا فى الرواية والقصة القصـــيرة ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو ، ص ١٩٥) وهذا عكس المطلوب تماما عند كتابة الرواية •

كذلك فان معظم شخصياته كانت موصوفة من الخارج دون تحليل داخلى ، فقـــد كان يتجنب التعرض لانفعالات شخصياته من الداخل ، وهذا مختلف تماما عما نجـده فى روايتنا حيث الاهتمام بالعالم الداخلى للشخصيات لا يقل أبدا عن الاهتمام بالعالم الخـــــارجى •

ومعنى هذا ان تحولا فنيا قد طرأ علـى كاتبنا بحيث أخرجه عن قالب القصـة القصيرة جـدا ـ والتى تقارب النادرة ـ الى العمـل الروائى الفسيح ذى النفس الطويل ، الذى يحرص على تقديم الشخصيات بأكثر من بعد وأكثر من زاوية ٠

هذه هى المقارنة الأولى بين رواية « فساد الأمكنة » ـ آخر كتابات صـبرى موسى وأول رواياته ـ وبين أعماله القصصية السابقة ٠ أما المقارنة الثانية فهى بين هـذا العمل الروائى وما سبق أن كتبه من أدب رحلات ٠

فلاشك أن كتاب « فى الصحراء » هو الجانب التسجيلى ـ كما قلنا ـ لهـذه الرواية ، ولذلك الكتاب علاقة وثيقة بهذه الرواية من ناحيتين رئيسـيتين : أولهما اننا يمكن أن نتتبع بعض الاحداث والاوصاف فى كلا الكتابين ٠ لعل أبرزها حادث البئر ، ويكاد يكون مكتوبا بطريقة واحدة فى الكتابين ، كل ما هنـالك أن الرواية قد حذفت بعض الاستطرادات التى قد تسىء أكثر مما تفيد العمـل الفنى ، لأن من شأنها تشتيت ذهن المتلقى ٠٠ ومن الطبيعى أيضا أن نجد تكرارا لاسـماء الاماكن ـ حيث أن مسرح الرحلة والرواية واحد ـ مثل مرسى علم وبرانيس وجبل الدرهيب الذى تدور حوله أحداث روايتنا ٠٠ كذلك نجد تكرارا لذكر الجمال التى تموت فى الصحراء وهى سائرة او جالسة ٠٠ وتجربة التيه فى الصحراء التى عاناها راوى الرحلة وهو ذاهب لحضور أحد أفراح الصحراء قد عاناها نيكولا بطل روايتنا وهـو يقتفى اثر صديقه البدوى ايسا عندما اختفى بسبيكة الذهب التى استخلصوها بعـد عامين من العمل الشاق ٠

أما الناحية الثانية فهى أنه فى مثل هذه الاعمال القصـصية التى يكون مسرحها بيئات غير معروفة أو مطروقة لدى معظم المتلقين ، يكون للجانب التسجيلى اغراء شديد على الكاتب حرصا منه على أن يدهش القارىء كل لحظة بما يعرفه هو ولا يعرفه قارئه وتكون عملية التضحية بهذه المعلومات عملية قاسية واحيانا مؤلمة ٠

ويصبح الكاتب ضحية صراع الجانبين التسـجيلى والحركى أو بين الوصـف والدراما ٠

ولاشك أن نشر كتاب « فى الصحراء » قبل رواية « فساد الامكنة » قد هون علـى صبرى موسى هذه المهمة الشاقة الى حد بعيد ، فهو مطمئن الى ان كثيرا مما لم يذكره فى « فساد الامكنة » لاسـباب فنية قد سـبق أن أطلع قراءه عليه فى رحلته فى الصـحراء ٠

ورغم ذلك فان الصراع بين الجانبين ، التسـجيلى والحركى ، كانت له بعض الجيوب ـ كما يقولون بلغة الحرب ـ فى عملنا ٠٠ وقد بدا هذا واضـحا عنـد

استخدام الزمنين المضارع حينا والماضي حينا • فعند استخدام المضارع نحس على الفور اننا أمام وصف عام أكثر مما نحن بسبيل تتبع أحداث معينة ، فاذا استخدم الماضي دبت الحركة من جديد وعدنا نتابع أحداث العمل القصصي •

ومعنى هذا ان رحلة صبري موسى من أدب الرحلات الى الادب الروائي تمت بانتقاله من استخدامه ضمير المتكلم والزمن الحاضر الى استخدامه ضميري الغائب والمخاطب والزمن الماضي •• كما أن أدب الرحلات بدوره كان جسر العبور من كتابة القصة القصيرة الى كتابته للقصة الروائية ، فهو الذي شجعه على أن يكون ذا نفس أطول وهو الذي دربه على استخدام الجمل الاكثر طولا والاقل تزاحما بالاحداث •

تبدأ روايتنا من حيث تنتهي وتنتهي من حيث تبدأ • فنظرة الكاتب الى الكون - ببعديه الزماني والمكاني - نظرة كلية •• أنه يرى الاحداث كلها في لحظة واحدة سواء وقعت في الماضي أو الحاضر أو تقع في المستقبل ومن هنا اتخذ في نظرته زاوية الطائر المحلق عاليا الذي يرى الاشياء في مجملها وتفاصيلها معا ، كما يتضح ذلك في أول سطور الرواية • ومن هنا كان استخدام الزمنين الماضي والحاضر مع تسرب صوت النبوءة التي تلمح ولا تفصح فتؤدي وظيفتها الفنية في تشويق القارىء لمعرفة تفاصيل المأساة المرتقبة • كذلك يقدم لنا القصاص شخصية بطلة في طفولتها ونضجها وشيخوختها في وقت واحد « فقد كان كل شيء يحدث أمام عينيه جديدا يتلقاه بدهشة طفل ، لدرجة أنه لم يتعلم أبدا من التجارب » •• وتوحي لنا المقدمة بجو اسطوري أشبه بجو اسطورة اوديب حين تنبأت له كاهنة دلف بأنه سيقتل اباه ويتزوج أمه ، لكن نيكولا - بدلا من ذلك وبسبب احساسه الضخم بالذنب والمسئولية معا - خيل اليه أنه ضاجع ابنته في باحة الجبل على وسادة من صخوره وأولدها طفلا ثم سرقه منها وهي نائمة ليطعم الذئب والضبع •

فاذا كان الفصل الثالث بدأت معالم نيكولا تتضح ، فاذا هو أشبه بيوليسيس في رحلة عودته من طروادة حين تحاول الساحرة كيركيه ان تستبقيه وان تغريه بالعدول عن مواصلة رحلته الى حيث زوجته بنيلوب تنتظره في وطنه ايثاكا ، ذلك أن عشيقته ايليا - ثم زوجته فيما بعد - تحاول أن تستبقيه في وطنها ايطاليا ليدير مقهى والدها ، بل انها تحرضه على ان يقتل والدها ليخلو لهما الجو والمقهى ، بل وصلت محاولات ارغامه على الرضوخ لرغباتها ان انجبت منه طفلة هي ايليا الصغرى لتستبقيه أو - على حد قولها - لتسمره في الارض وتثقل أجنحته عن الطيران • لكن نيكولا - مثله مثل يوليسيس - انتصر على هذه العقبة وترك وراءه زوجته وابنته ملبيا ذلك النداء الغامض نحو المجهول الذي ينجذب اليه أمثاله السابقون واللاحقون - مثل كولومبوس والسندباد - في سبيل المغامرة وارتياد آفاق جديدة ، والحصول

على لذة الاكتشاف والدهشة المستمرة ، لانها نفوس لا تعرف استقرارا ولا هدواءا .

وحين وصل نيكولا الى الصحراء الشرقية بدأ عمله بالمناجم . لكن موقفه يختلف وهدفه يختلف عن موقف الآخرين وهدفهم « كانوا جميعـــا يحلمون بالذهب ، بينما كان نيكولا مبهورا يحلم بالمعرفة فى سحر التجوال » .

وتنقسم الرواية قسمين رئيسيين : الاول وهو أقصرهما ويروى قصة منجم الذهب وما انتهى اليه من فشل بعد أن اختفى ايسا بسبيكة الذهب ليطلع عليها جده المعبود ـ كوكا لوانكا ـ الذى تحول جسمه بفعل الزمن وكثرة العبادة الى صخرة .
فاذا كان الفصل الخامس فاننا نبدأ المرحلة الثانية . وهى المرحلة الاطول والتى تتطور منها الاحداث نحو الفاجعة او المأساة . وأحداث هذه المرحلة تتبلور حول منجم جديد هو منجم التلك بجبل الدرهيب .

وهكذا نجد ان صراع الانسان مع الطبيعة يشكل جانبا هـــاما من جوانب هـــذه الرواية . فنيكولا ورجاله يصارعون الجبل لكى يخرج لهم ما يخفيه فى احشائه .. وها هو ذا الانسان يحاول ان يستخرج الماء من جوف هذه البيئة الصحراوية فتقف له الثعابين بالمرصاد . وهكذا ينتصر الانسان مرة وينهزم مرة أخرى فى هذا الصراع المستمر . ويتجلى هذا الصراع مرة أخرى فى روايتنا ممثلا فى صراع صـــيادى البحر الاحمر مع اسماكه . وكيـــف ان عرائس البحـــر أو جنياته كانت تتربص بأقارب عبد ربه كريشاب حتى بات هنالك ثأر بينه وبين هذه المخدوقات البحـــرية . ولهذا شد ما فرح عندما قادت اليه الاقدار احدى عرائس البحر طافية فوق المياه بلا حراك ، لكنه أبى الا أن يحملها معه الى البر معلنا أنه هو الذى اصطادها .

هنا يتكشف لنا جانب آخر من الجوانب الأساسية لهذه الرواية هو ـ كما نبه اليه الدكتور عادل سلامة فى مناقشة اذاعية ـ تلاقى الاضداد . فعندما وصـــل عبد ربه كريشاب مع عروسه البحرية الى البركان الملك وحاشيته ـ الذين اتوا الى هـــذا المكان للصيد واللهو ـ قد انتشروا على الشاطىء وتهيأوا لرؤية شىء يثير غرائزهم . لهذا مالبثوا ان رحبوا بالاحتفال بزواج عبد ربه كريشاب على عروسه البحرية الميتة . وهكذا التقت الحياة فى قمتها ـ ممثلة فى شبق الجنس ـ بالفناء ممثلا فى الموت .. ومن قبل كان الجنس والموت قد التقيا عندما اشار الكاتب الى وادى الجمـــال حيث تشاهد بقايا الابل التى ماتت من عنف الجماع . فالجنس يلتقى بالمـوت بل أنه يلـده كما يلد الحياة .

ومن قبل تلاقت الاضداد فى شخصية نيكولا ذلك السكير الذى لا يكاد يفيق ، حتى اذا لم يجد ما يعبه لجأ الى زجاجة السبيرتو الاحمـــر ، وفى الوقت نفسه فان نيكولا

هو ذلك المغامر الذى أقبل الى الصحراء فانقلب راهبا متعبدا لها ، طاقته فوق الاحتمال فوق طاقة الآخرين ، لذلك ذهب كل الآخرين وظل هو وحده مصرا على البقاء • ففى الوقت الذى نستمع فيه الى كاتبنا يحدثنا عن نزوات بطله النسائية ، اذا به ينبهنا الى ان اسمه اسم قديس قديم هو نيكولا • والمنجم بالنسبة لنيكولا كان مصــدر الحياة ومصدر الموت معا • أنه مصدر الحياة ليس فقط لأنه يستخرج منه الخامة التى تبرر عمله وعمل الآخرين فى هذه المنطقة ، بل انه مصدر الحياة بالمعنى الجنسى هنا أيضا • فعملية اختراقه كانت أشبه بالعملية الجنسية كما تشــير الى ذلك صراحة أكثر من جملة فى الرواية • كما كان المنجم مصدر الموت حين انهارت سراديبه على ابنته ايليا الصغرى وانطبق باب الكهف عليها واخذت تهبش الصخور فى محبسها المظلم الى ان امتلأ حلقها بتراب الانهيار •

وثمة صراع من لون ثالث غير صراع الانسان والطبيعة وصراع الحياة والموت ، هو صراع الخير والشر • فهل من الخير ان نترك الجبل كما اوجدته الطبيعة وكما يريده البدو أن يبقى ، أم أن نحفره لنستخرج من باطنه كنوزه كما كان رأى نيكولا والرجال المقبلين معه من الوادى • ولعل أهم صراع بين الخير والشر يتمثل فى فكرة الشرف عند كل من ايسا وعبد ربه كريشاب ونيكولا • لقد اخــذ ايسا الذهب ليطلع عليه معبوده ، فهل هذا عمل غير اخـــلاقى كما اعتقد ذلك الباشا ورجال الشركة بحيث يستحق عليه ايسا الحبس والعقاب ، أم هو عمل اخلاقى كما رأى ايسا • ؟

هكذا تتلاقى الاضداد فى روايتنا : الجنس بالموت ، والانسان بالطبيعة ، والخير بالشر • أنه صراع يختلف عما تعودناه فى معظم ما نقرأه من روايات مصرية وعربية ، حيث يدور الصراع بين الانسان والانسان فى المدينة والقرية ، ولعل الذى اتاح لهذا اللون الجديد من الصراع ان يبرز هو أن صبرى موسى خرج باحداثه وشخصياته من نطاق هذين المسرحين التقليديين ، الى حيث الرمال تمتد على مدى البحر ، وحيث تقف أمام الانسان قوى تتحداه ، ويتحداها كالجبال والشعابين وندرة الماء ، فيتوارى صراع الانسان مع أخيه الانسان وان كان يطل علينا من حين لآخر •

ترى ما الذى افسد الامكنة ؟ لعلها البقية الباقية من صراع الانسان مع الانسان والتى تطارده حتى وهو فى هذا الخـــلاء المتسع الرحب ، ما أن تطـــأه قدمه حتى تفسد الأمكنة ، مع ان ريح الصحراء العــارمة حين تلفحه فانه لايســتطيع ان يدخر منها ملء قبضته • !

● مجلة الثقافة : العدد ٦ ـ مارس ١٩٧٤

أبو المعاطى أبو النجا

انتهز هذه الفرصة لاقول كلمة صغيرة عن عمل روائى أعتقد أنه يستحق الكثير من أهتمام النقاد ـ ولا أقول القراء ـ لاننى على ثقة من أنه قد نال بالفعل اهتمامهم !

هذا العمل هو رواية « فساد الامكنة » ٠ التى صدرت طبعتها الأولى فى شهر يوليو من عام ١٩٧٣ فى سلسلة الكتاب الذهبى ٠

كيف تكتب فى كلمات قليلة عن عمل اثار فى نفسك أعمق المشاعر ٠٠ ولا تزال صوره القوية لا تبرح مكانها فى خيالك وكأنك عشت بالفعل جزءا من حياتك فى ذلك الجزء من أرض الوطن ؟!

ماذا تعرف عن جبل « الدرهيب » الجاثم هناك فى صحراء مصر الشرقية قرب حدود السودان ؟ الشعور الذى أثاره الكاتب فى نفسى بقوة هو أن هذا الجزء من بلادى كان جزءا سلبيا ، كان فى المنفى أو المجهول !

وأن الكاتب بهذه الرواية قد حرر هذا الجزء من أرض الوطن ، اعاد اليه الحياة والحرية ونعمة الوجود فى نفوس القراء !

أجل فالاوطان تحيا من جديد بما يكتبه عنها أبناؤها ، وهذه الرواية أعادت الى

مصر جزءا كان ضائعا من أرضها . ان طموح الكاتب الانسانى فى هذه الرواية أقوى بكثير من طموحه الوطنى . فهو لا يكتب فقط عن مكان من نوع فريد وخاص بطبيعته وناسه من أماكن وطنه . ولكنه يكتب قصة لقاء غريب بين رجل أسمه « نيكولا » عجزت أوطان كثيرة . عجزت الزوجة والابناء ــ عن أن تمسك به ، رجل هارب من كل انتماء كأنه يبحث عن المجهول . ولكنه فى النهاية يلتقى بمكان تهرب منه الحياة ويهرب الناس . مكان صخرى ونارى معا كأنه المكان قبل أن توجد الحياة ٠٠ مكان يطغى على كل شيء ويحول الناس الى صخور ٠٠ الى مكان !

ان هذه الرواية تروى قصة هذا اللقاء الغريب بين الرجل والمكان !!

بين الرجل الذى ينتمى الى أوطان كثيرة فكأنه ابن الانســـانية كلها ، كأنه ادم ، يلتقى بالارض البكر قبل ان يترك عليها الانسان بصمات قدميه أو يديه !

ان شرارة هذا اللقاء تشتعل فتضيء فى صــــفحات عديدة الكثير من اسرار النفس وأسرار الحياة كيف أتكلم عما رأيته فى ضوء هذه الشرارة فى هذه السطور القليلة ؟!

أرجو أن أفعل ذلك فى مكان اخر ووقت اخر . وتكفينى الان هذه الكلمة ٠٠ كلمة حب متواضعة عن عمل كبير !

● فى الزهور ، ملحق مجلة الهلال مارس ١٩٧٤

اقبال بركة

فى تلك الرواية «فساد الامكنة» يشعر القارىء ان هناك الكثير مما يودالكاتب ان يبوح به لقارئه ‥ وبالاسلوب المجدول بالفكر ، المنقوع فى الاحساس المكتسى بالتساؤل ، والموشى بالدهشة ‥ استطاع صبرى موسى بجدارة ان يحتكر انتباهنا . وأن يتسلط على أنفاسنا طوال فترة القراءة ‥ ولعل السبب يكمن فى ذلك الاحساس بالدهشة ، بالروعة، بالضالة الانسانية، بشساعة المكان ورهبته وغموضه الذى نشارك فيه كلا من المؤلف وقديسه أو بطل روايته نيكولا العجوز ‥ ذلك الذى يقف هناك ولاوطن له‥عاريا ومصلوبا على الفراغ المتأجج الحرارة وحدة ‥ تلفحه ريح الصحراء العارمة بين حين وحين ‥ فلا يمكنه ان يدخر منها ملء قبضته ‥ »

فى ذلك الجبل القابع عند حدود السودان بالصحراء الشرقية أمضى الكاتب ليلة ربيعه منذ سنوات ‥ ثم عاد يراه مرة أخرى ذات ليلة صوفية بعد عامين ‥ واخيرا يتفرغ عاما كاملا للاقامة فى الصحراء حول ذلك الجبل ليفكر فى مادة روايته ‥ ثم يكتب الرواية بعد ذلك بعامين ‥ ومعنى ذلك ان الرواية ظلت تلح عليه أكثر من سبعة أعوام حتى استطاع أخيرا ان يخلص نفسه من أسارها وان يفرغها على الورق‥كما هى ‥ أو كما يود أن تكون ‥ فالمكان فى هذه الرواية أو الرؤية له طابع خاص وكيان مستقل ‥ انه شخصية أساسية . تلعب دورا هاما ‥ بل هى الشخصية الأساسية

التى تحرك مشيئته وعلى حسب وداده .. أو هواه . ان كل الشخصيات الرئيسية والثانوية قد اصابها مس الدرهيب .. نيكولا ، ماريو ، ايليا ، ايسا ، أبشر ، والباقون .. كلهم تلبستهم الصحراء ولفتهم فى دثارها الاصفر الرملى ..

لقد هجر نيكولا بلده وزوجته ووهب حياته للصحراء او الجبل ليستخرج مادةالتلك لكن ما استهوى نيكولا لم يكن التلك .. بل المكان ذاته ..

هذا هو نيكولا .. الانسان الذى يطارده كابوس .. ويؤرقه حلم ويعذبه ..

انه الكاتب او الفنان وهو يتعرى من دنياواته ، ويتمرغ فى احضان الألم ، ويتشقق جلده ويجف وتتكسر ضلوعه .. انه يستحم فى الأسى..ويقترن بالوحدة وبالعذاب، لكنه أبدا لا يفكر فى هجرة المكان الخالد الذى سعى اليه من أقصى أطراف الأرض .. الحقيقة .. ذلك هو هدفه الأبدى الذى لن يتنازل عنه الا حينما تتخلى عنه الحياة .

وهكذا يذوب نيكولا تماما فى حلمه .. فتختلط الرؤى لديه..ويصبح غير قادر على التفريق ما بين الوهم والواقع .. ما بين الحلم والحقيقة .. تصبح حياته كابوسا متصلا لا فكاك منه الا بلعب الشطرنج مع نفسه ، واحتساء الخمر الرخيص حيث يحدث اخيرا ذلك المزج الصوفى بينه وبين الدرهيب .

وهكذا تنتهى قصة نيكولا .. أو قصة الحلم او الكابوس الذى عاش فيه ذلك المأساوى نيكولا .. « ذلك الذى كانت فاجعته فى كثرة اندهاشه ، وكان كل شىء يحدث أمام عينيه جديدا يلقاه بفرحة الطفل ، لدرجة انه لم يتعلم أبدا من التجارب ! » التجارب ! »

انها فعلا رؤيا من نوع خاص .. تتعفر فيها الأجساد برمال الصحراء ، وتزكم الانوف برائحة الوديان العميقة خلف جبال السكرى وحماطة وابو غصون وسميوكى وزرقه النعام والابرق وجبل مصرار وغيرها .. ديكور جديد تماما للقصة المصرية .. حيث يمضى الكاتب ، كالمكتشف .. ينحسس المكان بأصابعه .. ويتشمم رائحته بأنفه ، ويتسلل بين ودیانه وسراديبه وكهوفه ، ويغوص بين اوراق تاريخه وحكايات قبائله واساطيرهم ، لنتعرف على تلك الاماكن المهجورة المنسية من مصر .. مصرنا التى لا نعرف منها الا المدن الكبرى وبعض القرى ... ونجهل أن من بين كنوزها العديدة كنوزا أخرى لم تكتشف بعد .

● مجلة اليقظة / الكويت / ابريل ١٩٧٤ .

عـــــلاء الديب

هذه الرواية هى دون شك واحدة من المحاولات النادرة التى يقـــــوم بها كتاب المرحلة الراهنة للخروج من أزمة الرواية ودوامة الموضوع المتكرر ٠

والزميل صبرى موسى ليس كاتبا شابا ولكنه مارس الكتابة القصـــــصية والكتابة الصحفية سنوات طويلة وخرج بتجربة عريضة فى ممارسة المهنة وفى مشاكل الحياة الصغيرة والكبيرة ٠

أنه واحد من جماعة كبيرة قدمت سنوات شبابها ورجولتها لخدمة صاحبة الجلالة ، فخسرت كثيرا ٠٠ وكسبت كثيرا ، واحد من تلك الجماعة التى تطرح حيـــــــاتهم وأعمالهم قضية علاقة الفن بالصحافة وتأثير العمل الصحفى على الفنان المبدع ٠

تدور احداث الرواية فى عالم بعيد ٠٠ عالم الصحراء ومناجم الذهب القديمة عند شاطىء البحر الاحمر ٠ مكان الرواية واقعى جدا واسطورى جدا فى نفس الوقت ٠٠ تماما مثل شخصيات الرواية ، التى تجمع فى براعة بين عنـــــاصر الواقع وملامح الاسطورة لكى تقدم تتابعا حديثا مثيرا يجعل منها نسيجا خاصـــا وغنيا يواجه رتابة الحياة ٠٠ وموضوعات الفن القصصى والروائى التى أصبحت متكررة واســـيره لجو المدينة أو لسطح القرية أو للرمز السياسى غير الناضج ٠

فى عالم المنجم يطرح المؤلف قضايا مختلفة الانواع والدلالات ، فهناك قضـــايا المجتمع والاستغلال ٠٠ كذلك هناك قضايا الخير والشر ، وصراع الانسان مع نفسه ومع

الطبيعة · هناك كذلك الغرائز الاسطورية . واساطير السحر والبحر ·· وخرافات الصــــحراء ·

يجمع هذا كله الفكرة الاساسية التى تستمد منها الرواية عنوانها · الفساد ، ذلك العنصر الذى يكاد فى هذا العمل أن يبرز فعلا كشىء له وجود وثقل يطرأ على المكان ويطرأ على النفس فيغير من شكلها واحوالها . ويوجد لها وضـــعا ثالثا بين الموت والحياة · تلمس فكرة الفساد هذه بارزة في الرواية في المنجم وفى نيـــكولا بطل الرواية ·· كما تلمسها فى الجو العام قرب نهاية العمل حيث تتحلل العــــلاقات وتصل الى حالة الفساد ·

فى الرواية التى أمامنا طموح شديد لكتابة رواية تسجيلية . كما انها تحــاول أيضا الخروج الى جو الملاحم الاسطورية . وتجنح فى بعض الاحيان الى الشـــكل التقليدى تستريح عنده وتتزود منه · الا ان جميع هذه المحاولات تتجمع فى النهـاية لكى تقدم لنا نموذجا طيبا لرواية جريئة ·

ولكن تبقى عملية الدمج هذه . واستعمال هذه الطرق المختلفة فرصة لمناقشة جدية حول هذه المحاولة ·

أهم ما فى الرواية هو الخروج على الموضوع التقليدى . وطرق موضوع جديد يشد القارىء من البداية ويخرج به عن دائرة المألوف ، ويقدم الكاتب فى هذا المجال كما كبيرا من المعلومات والطرائف عن حياة المناجم وحياة الصحراء يقــدمها ، فى براعة الكاتب الصحفى المتمكن من العرض والاثارة والتسجيل ·

ثم يأتى التكوين المتشابك الذى تقدمه شـــخصيات الرواية . وفى المقــدمة يأتى نيكولا بطل الرواية اليونانى المغامر الذى يبدع المؤلف فى تقــــديمه وتحريكه وفى تعريضه للصراعات المختلفة مع « الباشا المصرى » « ومع الملك » ومع ابنته ·· وقبل كل شىء مع المكان ومع نفسه ·

ان شخصية نيكولا تكاد ان تكون هى محور العمل ·· وتأتى بعـــد ذلك مجموعة الشخصيات البدوية التى نشأت وارتبطت بالمكان . والتى أصبحت جزءا من الصحراء وجزءا بالتالى من المأساة المعاصرة التى تجرى فوقها · قدم المؤلف هــذه الشخصيات (ايسا ، وأبشر ، وأوشيك ، وعمال المنجم) وكأنهم الكورس الذى يدفع بوجــوده المأساة فى مسارها القدرى المحتوم ·

وأخيرا تأتى المجموعة التالية أو الدخيلة وهى مجموعة الباشا والملك والاصـــدقاء التى تحرك بتصرفاتها ووجودها المأســـاة . فهم العنصر الشرير الدخيل الذى يزرع الفساد فى الأمكنة فينمو ويعم البر والبحر ·

فى هذا الجو المتشابك وفى تلك الصحراء القاتلة ومن كل تلك العناصر ، تحصل على رواية دسمة وغزيرة ولكنها طموحة طموحا يفوق قدرتها على التنفيذ والتنظيم .

ان موضوع الرواية يوحى من البداية بأننا نلجأ الى الطبيعة لكى تبلور صراعات الحياة . فقد يكون السبب الاساسى فى شعور الانسان المعاصر بالضآلة والتفاهة هو انقطاع تلك الصلة التى تربطه بالطبيعة . انه يتحرك وسط العمارات والحوارى بين العربات والعجلات .. يهينه الزحام ، ويفقده استقلاله تتابع الأنوار والاصوات والاحداث .

يخرج بنا المؤلف الى هذا العالم الخاص . عالم منجم الذهب والصحراء ، حتى تبدو قامة الانسان طويلة ممتدة تلقى بظلها على الافق الرحب .. وحتى يستطيع أن يناقش أعماق هذا الكائن الخالد بعيدا عن تفاصيل حياته اليومية التى تتضافر فيها كل العوامل لكى تحوله الى ترس صغير فى آلة وحشية غريبة .

ان نفس هذا القصد هو الذى خلق فى الادب الحديث شخصية « زوربا » التى استطاعت ان تلقى نجاحا فريدا ، يدل على مدى حاجة الانسان للعودة الى الطبيعة وللتعامل معها لكى يكتسب من جديد احترامه لنفسه ومعرفته لجدوى حياته .. هذا الخيط هو الذى يربطنا « بنيكولا » ، ذلك الحلم بأن نكون قادرين على العودة الى الطبيعة الام قادرين على الدخول معها فى صراع شريف ، نكتسب منها ونضيف اليها .. نحب نيكولا من أجل هذا ، ونبحث عن فرصة لكى نتوحد معه ونتحالف معه الا أن تشابك الاحداث فى الرواية وغزارة المشاكل وتنوعها ، تحرمنا من هذا الا فى لحظات قليلة .. ان هناك نوعا من التنافر الذى يحدث بين واقع التسجيل واسطورية الاحداث يربك ولا يثير .. فان التسجيل يعنى الاهتمام بالتفاصيل والبحث عن الكل والمعنى من خلال تجاور الاجزاء الصغيرة ، فى حين أن الاسطورة تقفز فوق التفاصيل قاصدة الى لب الحقيقة عن طريق العلاقات الغامضة القائمة بين الايحاء والعقل والشعور .

وتجاور هذين العالمين فى رواية فساد الامكنة يحرمها من الانطلاق الى آفاق عالية

لقد مارس صبرى موسى فى كتاباته السابقة خلق عالم روائى من تفاصيل الواقع الصغيرة بل والمتناهية فى الدقة . أما عالم الاسطورة الرحب فهو جديد عليه مازال يحاول امتلاكه وان كان قادرا على التجوال فيه بحب واشتهاء .

ولقد كانت علاقة نيكولا بالمنجم ، وعلاقته بابنته ، وحدهما كافيتان لكى يخلق لنا

عملا كبيرا .. ولكن ذلك يحتاج الى تضحية بكثير من اغراءات العناصر الاخرى .

وبرغم ذلك .. يصل صبرى موسى بأسلوبه الرشيق الى خلق وحدة فنية ناجحة من كل هذه العناصر .. لكى يقدم لنا رواية هى دون شك رائدة وجديرة بالاهتمام .



● مجلة صباح الخير - يوليو ١٩٧٣ .

نبيــل فــرج

تعد رواية « فساد الأمكنة » .. الجزء الثانى الفنى لكتاب « فى الصحراء » .. الذى صدر فى عام ١٩٦٤ ، ودرس فيه المؤلف منطقة الصحراء الشرقية قرب حـــدود السودان ، حيث يوجد جبل « الدرهيب » .

والرواية تعتمد فى موضوعها ومضمونها على شخصية البطل نيكولا ، وعبر سلوكها أولا . وأفكارها وهواجسها ثانيا ، تتكشف لنا جوانب ذلك العالم المادى الغريب من حولها . خلال عدد من التســـــاؤلات ـ سواء أفصح عنها أو لم يفصح ـ عن موقع الانســــان ؟

وشخصية نيكولا شخصية مهزوزة متناقضة ، رغم حرصـــها على بلوغ ســـلامها النفسى .. هجر زوجته وابنته على فجاءة بينما يذوب وجدا على صديقه وصفيه ايسا ، ويناجيه مناجاة شجية فى العديد من صفحات الرواية .. الا ان هذه المناجاة تتجاوز دلالتها الحرفية بحيث تصبح ادراكا للطبيعة الصحراوية من حوله ، القائمة منذ الازل ، بمثابة قوة مهلكة بقانونها الصارم لكل من يحاول اقتحامها وفك لغزها الابدى .. على غرار ما حدث لايسا .

شخصية البطل فى هذه الرواية هى المحور الذى يستقطب كل الاحداث التى تمر ، سواء كان مؤثرا فيها ومتصلا بها أو كان على هامشها .

وبعيون وقلب هذه الشخصية نتعرف على الحياة القاسية فى جبل الدرهيب والقيم والتقاليد ، التى تسود هذا المجتمع القفر ٠

على ان الكاتب كان يقف فى موضع دقيق للغاية ، بحيث لا يطغى جانب التسجيل على جانب الفن الروائى . لقد تخلص فى عمله السابق ، من مزلق التسجيل ٠٠ ولم يبق له الا القدر الذى يخدم العمل الفنى ، ويزيده ثراء ٠٠ ذلك ان مثل تلك البيئة الفريدة تغرى أى كاتب ، خاصة من سكان المدن ، برصدها والتعريف بها ٠

ان المشاهد والوقائع والنماذج البشرية الغريبة التى تستلفت نظر الراوى ، ليست شيئا خارجا عن خط الرواية ، أو مفروضا على معمارها المتقن ، بل اجزاء عضوية فى نسيجها المنفرد ، الذى يبرق أحيانا أو يهدر ، من خلال صياغة رفيعة ، ترتفع ، فى كثير من المقاطع ، الى سمت الشعر ٠

ومما يذكر للكاتب انه تخطى البيئة الاجتماعية من ريف ومدن مصر التى لا يكاد يتجاوزها أحد من الكتاب المعاصرين ، وتوغل بشجاعة فى هذه المنطقة المجهولة بالنسبة للغالبية العظمى من القراء والمواطنين يعايشها ويعيشها ، ويمـــزج الصور الطبيعية الاخاذة ، بمشاعر الافراد ، والمطامع الصغيرة ، بالمقدسات والفضائل التى غرســـــتها الصحراء ، تحت تأثير مناخها الخاص ٠

والحق انى اعتقد ان رواية « فساد الامكنة » الى جانب قيمتها الفنية البحتة تنطوى على قيمة أخرى ، لا تقل أهمية عن قيمتها الفنية ، وهى البحث عن الجذور الاصـــلية البدائية للنفس المصرية العربية ، ممثلة فى هذه الاصقاع البعيدة ٠

فمن الصحراء نبعت كثير من القيم الحادة العنيفة ازاء الحيـــاة والموت التى لايزال لبعضها قوة الصيرورة الى الآن ، بما تمتلك من سلامة ، والا لما عاشت على مر الزمن ٠

ورواية صبرى موسى ان لم تضع هذا البعد نصـــــب عينيها ، فانها تمسه برفق ووعى ، وتومىء اليه دون ان تقف عنده ، أو تركز عليه ٠

كما ان القارىء يشعر فى الرواية بمزاوجة غير مفتعلة بين حياة البطل المشتتة وبين رحلة البشرية منذ بدء الخليقة ، أو فى عصورها الاولى على الاقل ٠

رحلة البشرية الحائرة ، فى اغترابها المحتوم ، وفى آلامها وأحزانها الباهظة ، فى أساليب الاخذ والضعف ، والعطاء والمغامرة والقسوة والخوف ، وفى الحياة والموت وخطيئة الارحام ؟

ومثل هذه الرواية ، بموضوعها المميز ، ومعـــالجتها الفنية الهـــادئة ذات النفس الطويل ، وافكارها الانسانية ، النابعة من هـذه المنطقة المحليـة ، يمكن أن تقـرأ فى كل مكان من انحاء العالم ، فيما اعتقد ، بنفس الشـــــغف الذى شعر به القراء فى بـــلادنا ٠

● مجلة الثقافة الاسبوعية - يناير ١٩٧٥

محمد جبريل

اذا كانت عينا الفنان والرحالة تتقاسمان الرؤية فى أعمال صبرى موسى ، الى حد تقديم أكثر من كتاب فى أدب الرحلات ، مثل «فى البحيرات» و «فى الصحراء» ، فضلا عن توضيح تقاسم النظرة فى اعماله القصصية منذ « القميص » ـ مجموعته الاولى ـ الى « فساد الامكنة » ـ روايته الاولى ـ فان الارضية التى تقف عليها كل اعمال صبرى موسى هى محاولة « دراسة » التغيرات ، الثابته والطارئة ، فى المجتمع المصرى ، من خلال العلاقات الاسرية ، والعائلية ، وانتشار التعليم ، والاتساع الرأسى للصناعة ، وذواء بعض البيئات ، وتخلق بيئات جديدة ، ونشوء مشكلات كانت غائبة عن مجتمع القرن الماضى ، واوائل هذا القرن .

وعلى سبيل المثال ، فان خروج المرأة الى العمل ، وما نشأ عنه من تطورات فى علاقات الجنسين ، وفى العلاقات الاسرية عموما ، نبض العديد من محاولات صبرى موسى القصصية .. فبعد أن قضت أمينة بطلة ثلاثية نجيب محفوظ ، ربع قرن من حياتها حبيسة جدران البيت ، تبين المرأة فى قصص صبرى موسى عن ملامحها المتميزة وقسماتها ، وتمارس وجودها الانسانى ، فتحب وتكره وتناقش وتقبل وترفض وتحرص على استقلالها الاقتصادى حتى تصبح فى غير حاجة لظل الرجل ، ومثلما كان أحمد عبد الجواد نموذجا متشددا للرجل فى مطالع القرن ، فان

المرأة فى قصص صبرى موسى نموذج لذروة تحقيق المرأة استقلالها فى الاجيال المتأخرة • المرأة محور الاحداث فى قصص نجيب محفوظ والبدوى والسباعى وغراب وعبد الحليم عبد الله والسحار وزكى مخلوف وغيرهم من أدباء جيل الوسط ، ولكنها ــ فى الاغلب ــ لا ترتكز الى دعامات أقتصادية أو استقلالية من أى نوع • ولعلها ــ فى المحصلة النهائية ــ أسيرة سيطرة الرجل الاقتصادية ، أما صبرى موسى ــ شأن غالبية روائيى جيله ــ فقد دفع بالمرأة الى مجالات العمل المختلفة ، فى علاقات متشابكة ، تبين ــ بالضرورة ــ عن جوانب من نفسية المرأة ، لم يكن المجتمع المغلق قد اتاح لها الظهور من قبل •• فثمة الرجل الذى يواجه خيانة زوجته بالشكوى لغانية بار (قصة : القناع) والزوج الذى يرضى بالزواج من حبيبته ، بعد أن وهبته نفسها ، أو يزعم أنها وهبته نفسها (قصة : الفرح) ــ ونتذكر بطل رواية ثروت أباظة « قصر على النيل » الذى صرف فكرة الزواج من ابنة عمه نهائيا ، لانها سمحت له بان يحادثها فى غيبة من رقابة الاهل ــ وحفل الزفاف الذى ينتظر فيه اهل العروسين حدثا لن يتم ، فقد سال عرق كل منهما على جسد الآخر قبل حفل الزفاف بفترة طويلة ولم يعد بعد الحفل بالنسبة لهما سوى مسايرة لاصرار الاهل على أن يكون « اللقاء » فى اطار التقاليد الموروثة (قصة الفرح) وبعد أن رفض أحمد عبد الجواد فى « بين القصرين » طلب ضابط قسم الجمالية يد ابنته ، لشكه فى أنه رآها ، ولأنه لم يطلبها منه ، وانما خاطب فى ذلك اوسط ابنائه •• ثم مارس تزويج ــ وتطليق ــ ابنائه بالكيفية التى حلت له ، فان نادية وسامى فى قصة صبرى موسى « حادث زواج فى شارع مؤنس افندى » يتحديان ارادة اهليهما ، ويتزوجان ، ولا يملك الاهل الا الرضوخ • ولعلنا نجد فى قصة « حادث نصف المتر » ــ التى يشير الفنان فى قائمة مؤلفاته الى انها رواية ــ تجسيد لمدى التطور الذى لاحق علاقة الرجل والمرأة •• فلقد التقى الحبيبان ــ للمرة الاولى •• فى اتوبيس مزدحم • وتكررت اللقاءات فى احد الكازينوهات ، ثم انتقلت الى شقة الاستاذ زينهم ذى الزوجة والأولاد ، فضلا عن استضافة أصدقاء كثيرين لهما فى شقتهم المفروشة الى ان دق باب مكتبه ، ودخل رجل طلب له القهوة ، فرفضها بأدب ثم طلب منه أن يبتعد عن حبيبته لانه سيتزوجها • !

وفى السطور الاولى من قصة « تدفئة صناعية » يطرح الراوى ما يريد التعبير عنه : « كثرت مظاهر الحضارة الاستهلاكية ، ووقع الناس فى براثن الأنا ، وأصبحت كل أنا جيشا متربصا ، او حذرا من الانا الاخرى واستهلك هذا التهيؤ الحربى كل فرص التأمل والانفتاح • فأغلق الناس أبوابهم على انفسهم لاخفاء المتلكات ، وأضاعت لذة الاستعمال أمام شهوة الاستحواذ » • الراوى يلتقى ــ مصادفة ــ بأحد أصدقائه القدامى ، ويتفقان على تكرار اللقاء ، فلا يتذكر ذلك الا بعد فوات الموعد ،

يتصل بالمكان الذى كان قد تواعد وصديقه على اللقاء فيه ليفاجأ بأن صديقه هو الآخر لم يجىء ! ٠

والواقع أن ملامح التغير لا تتبدى فى العلاقات الانسانية فحسب ، ولكنها تمتد الى كل مظاهر الحياة من خلال المستحدثات الحضارية ، والتطور النامى لحركة المجتمع وتغير ظروفه الاجتماعية والثقافية والنفسية ٠

وعلى سبيل المثال ، فان مصيفى رأس البر الذين كان مبعث اختيارهم للشاطىء ، تلك الحياة البسيطة ، والعشش الصغيرة ، والبحر الهادىء - الذى يحبو عند الاقدام ، قد تغيرت أمزجتهم - لاسباب حيرت الحاج عبد الفتاح - وأصبحوا يطالبون ببيوت مثل بيوتهم التى تركوها فى المدن ٠ وعندما يجدون شيئا ينقص هذه البيوت يصيحون ويشتكون وينتقدون ٠٠ فلماذا غادروا بيوتهم اذن ؟ ٠٠ حتى الطرق الحديثة فى التأديب لم تكن تستهوى الحاج عبد الفتاح ، وكان موقنا ان علقة واحدة بالفلقة تقوم من سلوك الطفل بما يغنى عن الاف النصائح والارشادات (قصة : لأحد يعلم) ٠

والقاهرة هى البيئة الاساسية التى يتحرك فى اطارها غالبية شخصيات صبرى موسى ، ولكن « الفنان » استفاد - فى احيان كثيرة - من « الرحالة » ٠٠ فغادر العاصمة الى بيئات اخرى ، فى الريف ، والساحل ، واخيرا : فى الصحراء ، نبض أحدث رواياته - والادق : روايته الاولى ، فساد الأمكنه ٠

وأهمية تناول الصحراء فى عمل روائى تكمن - بالدرجة الاولى - فى أن بلادنا جملة المساحة المنزرعة فيها ٦ ملايين فدان ، بنسبة ٣ ٪ يعيش عليها الغالبية من سكان مصر بينما باقى مساحة الجمهورية وقدرها ٩٧٪ صحراء ، يعيش فيها حوالى ٤ر مليون نسمة ٠ ولغلبة المساحة الصحراوية على الارض المصرية ، فان المناطق المأهولة تعد واحات تكتنف الصحارى ، اهمها الواحة الكبرى ، وهى حوض وادى النيل ، ثم مجموعة الواحات المتناثرة فى الصحراء الغربية ، فضلا عن تلك المناطق التى تعانق الساحل فى الصحراء الشرقية ٠٠ ومن المؤكد ان شخصية المواطن البدوى المستقل بدأت تغيب شيئا فشيئا ، لتحل محلها شخصية المواطن القومى الذى يدين بالتبعية للدولة لا للقبيلة ، ويخضع لقوانين عامة تسرى على كل مناطق الدولة ، ولا تنفرد بها منطقته وحدها ٠ وفى المقابل فان تأثير البداوة على قيم مجتمعنا المعاصر لا يزال واضحا وسائدا ، حتى فى المدن والعواصم ، برغم انها - كما يقول الدكتور محيى الدين صابر بحق - « اقدم نمط اجتماعى للحياة عرفه الانسان (البدو

والبداوة ص ٦) » ومن هنا نكتسب فساد الامكنة بعدا اجتماعيا هاما . يضاف الى ابعادها المتفرقة الشكلية والمضمونية الاخرى .

مثل الشخصيات الاسطورية – وان كان به ضعف أنسانى واضح ومثير – يطالعنا نيكولا فوق قمة جبل الدرهيب . يعانق الشمس مصلوبا كأنه المسيح . لقد قدم الى المنطقة غريبا ومغامرا . ينشد المستقبل الافضل . ولكن أصوله القوقازية كانت تشده الى المكان بوشائج قديمة . بل لعل السكان هم اهله واقاربه واصهاره القدامى . « انهم – كما يرجح الرواة – من سلالة كوش بن حام . الذين هاموا على وجوههم بعد الطوفان .. كانوا وثنيين الى ان جاء الاسلام فاعتنقوه . لكنهم ظلوا على على بداوتهم ولغتهم ليكونوا جديرين بذلك العناد التقليدى المشهور عنهم .. فعلى الرغم من قسوة الحياة في الصحراء . وجدب الوديان معظم الحول . وجفاف الآبار .. الا أنهم ظلوا لاصقين بصخور هذه الجبال في اصرار . يتكاثرون فيها وينقسمون الى فروع وقبائل . منها البشارية . والعبابدة . والأبوجوس . وبنو عامر .. يتناثرون حول الآبار والعيون الباقية على حالها من زمن الفراعنة . واسلحتهم سيف طويل ودرع . ورمح أو خنجر .. وسيفهم مصنوع مثل سيف اسير من الحروب الصليبية يوسدون رؤوسهم حينما يفترشون الارض للنوم وسادة من خشب الشجر ، مصنوعة على غرار وسادة توت عنخ آمون الذهبية . ويهيمون بين الجبال وراء الابل والغنم والعنز . ويشدون خيامهم التى تصنعها نساؤهم من سعف نخيل الدوم فى مناطق الرعى على السهل الساحلى من بئر الشلاتين فى أرض مصر الى حدود مملكة السودان .. ويقعون أمامها يسوون الخبز على الصخور . ويرشفون القهوة السوداء المغلية . بينما ترعى الابل نصيبها من نبت الصحراء العزيز الشحيح . »

ولقد كانت الصفات التى اكتسبها نيكولا – تلك التى تواصلت بجذوره الاولى – هى الباعث الحقيقى للمأساة التى تقلب فى أتونها منذ سباب الملك شرف ابنته حتى اوقعه أحساسه الشرقى بالشرف فريسة للجحيم . فتصور انه هو الذى ضاجعها . وان الذى بدأ التحرك فى احشائها هو الثمرة . فحمل الطفل طعاما لطيور الصحراء وحيواناتها . واغلق على ابنته كهفا غير مطروق ! .

وانتهت المأساة بنيكولا الى التفرد عن كل هؤلاء الذين وفدوا على الجبل بحثا عن الثراء والمغامرة . وتلاشى المأساوى نيكولا . ذاب فى الطبيعة السادرة من حوله ، أصبح مثل الجد الاكبر « كوكا لوانكا » صخرة فى جبل الدرهيب .

لعل كاتب هذه السطور كان أول من نبه الى الاضافة الجيدة ، التى تمثلها « فساد الامكنة » فى الرواية المصرية . (جريدة المساء ٥ اغسطس ١٩٧٣) ، ولعلى

أضيف ـ بعد قراءة ثانية ، متأنية ، لكل اعمال صبرى موسى ـ ان «فساد الامكنة» تكاد تمثل نسيجا مغايرا لما قدمه الفنان فى المكتبة العربية قبلا ، وانه قد استفاد فيها من العديد من الاخطاء الشكلية والمضمونية ـ والاسلوبية أيضا ـ التى شابت بعض أعماله السابقة .

لقد كان « الرحالة » يهب « الفنان » مشاهداته وخبراته وقراءاته . فيحاول تضمينها قصصه القصيرة ، أو يفرد لها فصولا فى ادب الرحلات . مثلما فعل فى فى كتابيه « فى البحيرات» و « فى الصحراء » .. ولكن الفنان ـ فى « فساد الامكنة» ـ يجيد استخدام المعلومات التاريخيـة والبيئية التى اتاحتها له اقـامة الفرغ الادبى فى جبل الدرهيب ، يتمرس بحياة السكان ويخالطهم ويصادقهم ويتعرف الى عاداتهم وتقاليدهم ويناقشهم فيما مضى وما يتصورون انه المستقبل . القراءة فى الماضى . ودراسة الحاضر ، ومحاولة التوقع ، جهد بذله الفنان ـ لا شك ـ فى روايته ولكنه حرص على أن يذيب ذلك الجهد ، فى تلاحم عضوى ، باحـداث الرواية ، فلا يبدو مقحما أو نشازا ، أو يبدو ـ وهنا الخطر ـ كأنه محاولة من الفنان لاستعراض ثقافته . ولقد كان الفنان ـ فى رحلاته ، وربما فى العديد من قصصه القصيرة ـ يعيد علينا ما قرأ من كتب القدامى والمحدثين ، ويحاول فلسفة المواقف ، وابداء وجهات النظر الشخصية ، أشبه بلاعب العرائس الذى لم يبرع بعد فى اخفاء يديه وهو يحرك عرائسه . وغالبية تلك القصص لم تتخلص مما كان يعيب القصة الاوربية فى القرن الثامن عشر ، وهو الحرص الفائق من بعض الأدباء على تأكيد مواهبهم ، بصرف النظر عن مدى أحتمال ما يقدمون لصوت الفنان المرتفع . ولى أضيف أنه حتى التمسك بفنية القصة على الوجه نفسه الذى كانت عليه فى أعمال الواقعيين الطبيعيين ـ على سبيل المثال ـ رغم الاضافات الباهرة لتلك المدرسة ـ لم يعد ينطوى ـ على حد تعبير الان روب جرييه ـ على شيء يثير الاعجاب ، بل انه يبدو مستحيلا فى ضوء المتغيرات الاجتماعية والنفسية والثقافية التى يحياها كاتب الربع الاخير من القرن العشرين . ان التكرار المنظم للاشـكال الفنية التى تنتسب الى الماضى ، لا يبدو غير معقول فقط ، وانما قد يصبح ضارا لانه يدفعنا الى اغلاق اعيننا عـن الموقف الذى نحياه فى عالمنا الحاضر ، ومن ثم يحول دون السعى لبناء عالم المستقبل وانسان المستقبل (نحو رواية جديدة) .

ومع ذلك ، فـان التفـوق الذى تتسم به « فسـاد الامكنـة » ـ تلك التى غـاب عنها ، الى حد بعيد ، الصوت المباشر للفنان ـ ينهض عـلى الجـديد من المحـاولات السابقة ، التى افلح الفنان فى استخلاصها من حرص الرحالة على توصيل المعلومة بصرف النظر عن مقومات العمل الفنى . وخفة الصحفى التى تجعل من «التبسيط»

قضية أولى ، وأن لم يحتمـله العمـل أحيانا • ولعل المثل يحضرنى الآن ، قصته النشيكوفيه اللحظة والمذاق ، بطلها الاسطى حسنين سائق أوتوبيس الاقاليم الذى ينشد دفء الصداقة ، حتى مع هؤلاء الذى تعبرهم حياته • وتكامل اللحظة وتواصلها ، يجعل من الصعب تلخيص القصة ، وان اعتبرتها من أهم المعالم الايجابية فى فن صبرى موسى (قصة : مصر ـ الزقازيق) •

فى « فساد الامكنة » يغيب الفنان عن الصورة الظاهرة ، فليس ثمة أمامنا ، يتحرك ويحلم ويتأمل ويقاسى ويتعذب ، الاهؤلاء الرجال الذين عاشوا تلك السنوات فى جبل الدرهيب : نيكولا وايسا وعبد ربه كريشاب •• فضلا عن ابليا الرائعة التى دفعت طفلها ثمنا لهواجس أبيها اللعينة • نحن نغادر الرواية وقد عرفنا الكثير عن الظروف التى قدمت بنيكولا الى ذلك المكان القصى فى الصحراء الشرقية ، وعن المعتقدات الاسطورية التى لا يزال بدو المنطقة يحيون اسارى لها ، وعن الظلم المفجع الذى لم يجدوا لمقاومته حيلة •• ولكن التفهم الواعى لطبيعة العمل الروائى يسم الاحداث ـ فى تصاعدها ، وفى تفصيلاتها الصغيرة وجزئياتها ـ بما يجعل من الاحداث المتناثرة ، الموغلة فى القدم ، والانية ، والتى تصنع غدها ، قطعة نسيجية متكاملة •

لقد تفرد الفنان بساحة العمل الفنى ، يهبنا رواءه ومذاق عطائه الخاص وتميزه ، وغزل خيوطه من قراءاته ومشاهداته وخبراته فى نسيج الرواية ، واثرى روايته باسهامات الفنون الاخرى ، فثمة التبقيع اللونى كما فى اللوحات التشكيلية ، والهارمونى الموسيقى ، والفلاش باك ، والتقطيع السينمائى ، والديالوجات التى تضيف الى الحدث تصاعدا دراميا الخ •• مما تتسم به الفنون المعاصرة بعامة ، من حيث استفادة كل فن بما تملكة الفنون الاخرى من خصائص جمالية وتكنيكية ••• فيتحقق للفن القصصىابعاد جديدة ، وتتحقق ابعاد جديدة للفنون الاخرى ، مما يجعل رأى ادوين موير أن بعض الفنون ـ مثل النحت والرسم والموسيقى ـ تتحقق فى بعد واحد فقط ، اقرب الى تسمية الشمس بانها تقوم كل يوم بدورة من الشرق الى الغرب ، واغفال « ابعادها » الهامة الاخرى • ولعلى بذلك أناقض دعوى بعض الروائيين الجدد ـ ناتالى ساروت مثلا ـ بأن المقولة فى الفن خطأ يجب تجنبه ، وان الالتزام الوحيد فى الفن هو الفن نفسه ، برغم ان ابداعات هؤلاء الروائيين ـ وايديولوجياتهم أيضا ـ ترفض تلك الدعوى ، فمهمة الروائى ـ فى تقديرهم ـ هى « اعادة بناء العلاقة بين الانسان والعالم » •

واخيرا ، فلقد أراد برسى لبوك ان يسجل رواية « الحرب والسلام » لتولستوى فبدأ حديثه متسائلا : ولكن ماذا عن الرواية او مضمونها الذى احب ان اسميه

مضمونا اخلاقيا ؟ ٠
لقد قدم لنا تولستوى فترة ما من مسار الزمن ، ولكن ما الهدف من تقديمها ؟

واعتقد ان العديد من القصص التى تضمها المجموعات القصصية السابقة لصبرى موسى ، تواجه ـ بالحاح ـ ذلك السؤال ٠ فالاكتفاء بتسجيل ظواهر الاشياء ، والعناية بالرشاقة الاسلوبية واللفظية ، والبعد عن تعمق المشاعر والبواعث الدفينه للتصرفات ٠ وتلاشى وجهة النظر من خلفية الصورة ٠٠ ذلك كله فرضته طبيعة التحقيق الصحفى التى قاومها صبرى موسى فى كل اعماله ، فتغلبت عليه أحيانا ، وتغلب عليها فى احيان اخرى ، حتى تخلص منها فى روايته الفريدة ، وتبدى الفنان مسيطرا على فنه ، متمكنا من أدواته ، مستفيدا من كل محاولاته وخبراته السابقة فى تقديم عمل روائى ، هو ـ فى تقديرى ـ من أنضج ما قدمته الرواية العربية المعاصرة ٠

« فساد الامكنة » تعبير عن النضوج المؤكد الذى حققه صبرى موسى فى رحلته الفنية ٠٠ بل لعلى أضيف ان الرواية ستظل معلما واضحا فى مسار الرواية المصرية بعامة ، يضاف الى المعالم الاخرى الاقرب أكتمالا ـ فى حينها ـ بدءا بعلم الدين ، ومرورا بعذراء دنشواى ، وزينب ، وابراهيم الكاتب ، وعودة الروح ، ودعاء الكروان ، وقنديل أم هاشم ، وروايات نجيب محفوظ ، والسقا مات ، والخيط الابيض ، والشارع الجديد ، والحرام ، وشجرة اللبلاب ، والرجل الذى فقد ظله ، وايام الانسان السبعة ، وغيرها ٠٠ وانتهاء بفساد الامكنة ٠

● مجلة الثقافة / فبراير ١٩٧٥

علـــى شلش

« اسمعوا منى بتأمل يا أحبائى ، فانى مضيفكم اليوم فى وليمه ملوكية ساطعمكم فيها غذاء جبليا لم يعهده سكان المدن ، بينما احرك أرغن لسانى الضعيف ، واحكى لكم سيرة ذلك المأساوى نيكولا ٠٠٠ »

بهذه الكلمات التى تعيدنا الى مقدمات الرواة فى السير الشعبية يستهل صبرى موسى روايته « فساد الامكنة » التى فازت بجائزة الدولة التشجيعية ٠ وبهذه الكلمات أيضا يحدد المؤلف موضوعه ومنهجه معا ، فالموضوع هو « ذلك المأساوى نيكولا » ــ والمنهج هو السيرة التى يرويها راو من النوع القديم الموروث ، ولكنها ليست من السير الشعبية المألوفة الا فى بعض مظاهرها الشكلية المحدودة ، فالراوى هنا اله يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور ، ولكنه اله متحرر اذا صح التعبير فهو يأذن لشخصياته بالتعبير عن نفسها بالمونولوج الداخلى فى ظل رقابته وتوجيهاته ، أو بمعنى آخر هو يعبر عن مونولوجاتها الداخلية بطريقته الخاصة ، ويصوغ سيرة نيكولا بحيث يعرض تأملاته فى ثنايا تصورات نيكولا وردود فعله ، وهو فى تحرره ، لاينسى التحرر من وحدة اللغة والزمن فيراوح بين الفعل الماضى والفعل المضارع فى السرد والحكى والتصوير ٠

اما نيكولا نفسه فقد شاء الراوى أيضا ، ومنذ البداية ، ان يقدمه لنا شخصا

مأساويا . ووصفه بالمأساوى جزء لايتجـــــزأ من تأله الراوى ودكتاتوريته . فنيكولا يظهر فى البداية رجلا مأساويا بحق . شاخ بدنه وهرم عقله ولعب بلسانه أحط أنواع الخمور ، بعد أن أخنى عليه الدهر .

ونحن ندخل الرواية ـ السيرة هذه من عنوان أشـــــبه بعناوين مقــــــدمات كتب الانثروبولوجيا أو الجغرافيا السياسية يقول : « الدرهيب .. ملمح شبه نهائى » . فالدرهيب هذا جبل رهيب من جبال الصحراء الشرقية يصوره الراوى من عل ، بلقطة بانورامية طويلة كأنما يلتقطها من طائرة هليوكبتر تنزل عمودية . وببطء ، حتى تصل الى « نيكولا العجوز » ذلك المسمى باسم قديس . عاريا هناك تحت شمس أغسطس الجهنمية ..

ثم نتقدم مع الراوى ، أو يتقدم الراوى بنا ، حتى يقول لنا فيما يقول فى نيكولا هذا أن « جسده الاوربى الاصل قد اكتسب سمرة غامقة أصيلة وشعر رأسه الغزيز قـــد أبيض تماما وصار فى لون القطن » وأنه يعيش فى وحدة قاسية فى ذلك الفضـــــاء الرهيب ولا يملك الا ذكرياته ومأساته التى كتبت فصلها الاخير ابنته وعشـــيقته فى وقت واحد ، حين انهار عليها حجر بداخل منجم ببطن الجبل الرهيب فغيبها عـــن نيكولا الى الابد مثلما غيب عقله أو كاد أن يغيبه !

عند هذا الحد نصل الى الفصل الثانى ، هكذا بلامقدمات ، وكأن المقدمة السابقة هى بذاتها الفصل الاول .

ثم تتوالى الفصول بعد ذلك فنتابع نيكولا مع الراوى ، تارة من الخارج وتارة من الداخل ، تارة مع غيره وتارة مع نفسه ، تارة فى القمة وتارة فى الحضيض وفىوحدته الغريبة الحافلة هذه يعود نيكولا الى الماضى قبل أربعين أو خمسين سنة ـ فليس ثمة شىء محدد تحديدا صارما وكل شىء واقع بين الحقيقة والخيال ، أو الحقيقة والفانتازيا ـ يعود الى يوم مجيئه مبهورا بالبحث عن المعرفة فى بحر التجوال . ولكن أية معرفة هذه ؟ هل هى معرفة الصحراء وجبالها وخوافيها وقاطنيها ؟ لقد تلاشى هو نفسه فى الصحراء وحل فيها حلولا صوفيا ، فهل المعرفة فى التلاشى والحلول ؟ لقد صـــادق البشارية واحبهم فهل المعرفة هى المصادقة والحب ؟ لقد تعرى من كل شىء يربطـــه بالاطر والتقاليد ؟ فهل المعرفة هى التعرى من الاطر والتقاليد ؟ لقد صعد نيكولا فى سلم الحياة الناجحة وبلغ درجات عليا ثم هبط هبوطا مفاجئا متلاحقا فهل المعرفة بين الصعود والهبوط ؟ لقد أثم وضاجع ابنته وانجب منها طفلا وقدمها مرغما الى ملك خليع فهل المعرفة هى الاثم أو حرية الاثم ؟ لقـــد حاول الانتحار فى نوبة من نوبات السقوط المدمر المكبل بالاثم وتشجيعه فهل المعرفة هى الانتحار والهروب ؟ لقد انقذوه من محاولة انتحاره فهرب الى الصحراء وهام على وجهه ثم غاب اياما فى احد سراديب

المنجم الجبلي . ولما عثروا عليه وعثرت عليه ابنته ظهر ولكن ابنته لم تظهر وابتلعها الجبل في نوبة غضب عبثي . فضاعت منه ايليا الصغرى كما ضاعت ايليا الكبرى التي هجرته ثم ضاع المنجم نفسه وضاع معه كل شيء ، فهل المعرفة هي الضياع بمعنـــاه المادي ومعناه الفلسفي ؟ .

ليس ثمة تحديد صارم مرة أخرى . فكل شيء قابل للرؤية من عدة وجـــوه ، وكل شيء مطلق ونسبي في وقت واحـــد وكل شيء متداخل منفرد يتجمع في وقت واحد ، وربما كانت المعرفة النيكولاوية هي هذا كله ، وربما أضـــافت اليه مسحة من المعرفة الزورباوية اذا صح التعبير ، فنيكولا القوقازي وزوربا اليوناني كلاهما متقارب ومتباعد في وقت واحد .

وعندما نصل الى النهاية ، نهاية الرواية ، تطالعنا خاتمه . أو هو « فصل ختامي » كما سماه المؤلف . هذا الفصل يعادل الابيلوج (المشهد الختامي) في التراجيـــديا الاغريقية مثلما يعادل الفصل الاول ـ المقدمة ـ البرولوج (المشهد الاستهلالي) في تلك التراجيديا القديمة وفيه ، في هذا الفصل ، عود الى فصل الاستهلال ومراجعـــة للفصول البينية مراجعة تامل نهائي ومحاولة لاستخلاص عبرة أو عظة أو كلمة نهائية سمها ماشئت ، ففيه هيكل الايبيلوج القديم وسلمه .. انه العود على البدء ولكن في

اطار روائي يعلن للقارىء الفرد لا للمتفرجين الملأ كما في التراجيديا اليونانية ، أن معجزة الانتماء الحقيقي قد تحققت لجد البجاة القديم كوكالوانكا حين أعطى عقله وقلبه وروحه جميعها لتلك المغارة المرتفعة فوق الجبل .. حتى أصبح صخرة تنبت حولها اشجار مقدسة .. الخ وان هذه المعجزة نفسها وشبكة التحقيق بالنسبة لنيكولا الذي سيتحد بالطبيعة مثل الجد القوقازي القديم .

وهكذا تنتهي هذه الرواية السيرة . والحق انهـــــا رواية غنية وجيـــدة تساهم مساهمة أصلية وواضحة في توسيع دائرة اهتمامات الرواية عنـــدنا .. فقد كانت هذه الاهتمامات ـ ولازالت ـ محصورة في نطاق المدينة والقـــرية ، فيما عدا بعض المحاولات . كمحاولة « سلمى الاسوانية » لعبد الوهاب الاسواني ومحاولة « الشمندورة » لخليل قاسم ثم جاءت هذه المحاولة فدعمت التحرر من نطـــاق المدينة والقرية .

ان الرواية هنا تمضي هادئة بوجه عام . تبدأ هادئة كانها تحقيق صحفي هادىء بلا دراما ثم لاتلبث ان تحتشد وتغتني حتى تتسلل بمادتها الى القـــــارىء فتمتعه وتستثير قدرته على التفكير والتأمل ، ولاشك ان اسلوبها وطريقة التصـــوير فيها قد ساهما في ذلك برغم الفصل الاول أو المقـــدمة التي كان من الممكن ادماجها في

الفصل الثانى . وبرغم احتشاد رقعة الرواية بالمعلومات الانثربولوجيـــة • وبرغم العبارات الطويلة المرهقة فى بعض المواطن • ومع ذلك كله فقد خلق صبرى موسى عدة مشاهد فى هذه الرواية تعد من أجمل المشاهد التى خلقتها الرواية المصرية •

وبخاصة فى : صيد الاستاكوزا ، تفجير الجبل ، صيد جنية البحر ، زفاف عبد ربـــه كريشاب على الجنية . محاولة نيكولا الانتحار فى البحر . ففى كل هذه المشـــاهد حس فنى تصويرى سينمائى جدير بالاعجاب والتقدير • وفوق هذا كله تقـــف شخصية نيكولا كواحدة من الشـــخصيات القليلة الملفتـة للنظر فى الـرواية المصرية المعاصرة •



●

● مجلة الكاتب • فبراير ١٩٧٥

غالب هلسا

هذه رواية فذة ، اقتحمت عالما غريبا ، صعب المسالك ، عالجت من خلاله فكرة شديدة التعقيد . واستطاعت هذه الرواية أن تجمع بين شرف المجازفة وبين النجاح .

وهي تحكي قصة انسان التيه ، يسوقه قدر غامض الى تجوال لا نهائي ، قلق ، مؤلم ، ثم يضعه في مكان في الصحراء الشرقية ، فيرسي جذوره هناك ويندمج فيه وقد أخذت تسيطر عليه منذ البداية فكرة ـ حلم بان يصبح صخرة من صخوره ، وان يذوب قلقه ومعاناته في الطبيعة البكر .

ولكن هنالك تعارضا جذريا لن يستطيع نيكولا تجاوزه . فالمكان يرفضه لأن نيكولا خارج عن سياقه . كما ان التكوين العصري لنيكولا عاجز عن التجذر في المكان . وذلك لأن جدله ـ أي نيكولا ـ مع الطبيعة جدل عنيف يهدف الى اغتصابها والسيطرة عليها وهو بهذا يقف على نقيض التجربة الصوفية التي يحلم بأن يحققها .

فماذا يكون مصير نيكولا ؟

انه لن يكون إلا مصير آخاب بطل رواية (موبي دك) ومصير هاملت اللذين مزج بينهما نيكولا في شخصه . لقد دمر الحوت الابيض سفينة آخاب وجذبها الى الاعماق . ولكنه اغرق معها طائرا بريئا اشتبك بعلمها ، وبهذا أصبح

علم أخاب كالشيطان الذى أبى أن يهبط الى الجحيم الا بعد ان يجتذب معه قطعة حية من السماء (على حد تعبير رواية موبى دك) • وضاعت صرخة احتجاج وتحد إخاب المجنونة : « لو أن الشمس صفعتنى فسوف أرد الصفعة » •

« يقف نيكولا متأرجحا على قمم خادعة ، متزلجة ، مؤرجحا على حصى دقيق من الاسبستوس وبلورات الرخام ذات الاسنة القاطعة ، والقواقع المهشمة من مليون ألف عام •• يقف هناك نيكولا الذى لا وطن له ، عاريا ومصلوبا على الفراغ المتأجج الحراره وحده ، تلفحه ريح الصحراء •• » • ونيكولا ، فى واقع الامر يتأرجح بين مكانين ، وبالتالى بين عالمين : بين ضريح المجاهد الصوفى ابى الحسن الشاذلى القائم فى وسط الصحراء الشرقية عند « عيذاب » وبين الادوات العصرية التى تمزق قلب جبل « الدرهيب » وتستخلص منه كنوزه لتحوله فى النهاية الى مجرد اطار ضخم فارغ المحتوى • وهو بهذا ايضا يقدم احتجاجه الصاخب على عالمه من معطيات هذا العالم بالذات : الآله والثروة • فاية فرصة للنجاة تبقى أمام نيكولا المسكين ؟

لقد صيغت الرواية بلغة شاعرية توراتية (١) ترفع الاحداث الصغيرة الى مستوى الدلالات الكونية ، وتبعث من قلب التيه حيوية شديدة الخصوصية ، أليفة ومنسية • وهى أيضا استجابة لذلك النداء الانسانى العريق ، الضارب فى القدم ، الداعى الى استعادة الجذور • يتم ذلك عبر تجربة صوفية عميقة ، حيث تتكشف امتدادات الانسان فى قلب الوجود وتوحده فيه •

والرواية نتاج مجهود مخلص يصح أن يكون مثالا للروائى الجاد الذى يجعل من الفن حياة • يقول الكاتب أنه أمضى ليلة فى جبل الدرهيب فى ربيع عام ١٩٦٣ وفى تلك الليلة ولدت بذرة هذه الرواية • ثم زار الدرهيب بعد ذلك بعامين خلال زيارة ضريح ابى الحسن الشاذلى فشعر انه بحاجة الى معايشة هذا الجبل حتى يتمكن من كتابة هذه الرواية • ولهذا أمضى سنة هنالك يعايش الجبل وقبائل المنطقة يجمع خلالها مادة روايته • ثم أمضى بعد ذلك سنتين فى كتابتها •

وهكذا فان الكاتب قد أمضى حوالى ست سنوات يتأمل ويجمع مواد هذه الرواية ويكتبها • هذا فى الوقت الذى لا يزيد فيه حجم هذه الرواية عن مائة وستين صفحة من القطع المتوسط •

---

(١) اعتقد أنه كان بالامكان اثراء هذه اللغة لو أن الكاتب اضاف الى التجربة الصوفية تعبيرات التراث الصوفى •

ان مثل هذا المجهود الشاق وسط أكوام الكتابة المريحة يستحق كل تقدير .
تحكى الرواية عن نيكـــولا الذى لا وطن له . فقد هاجرت عائلته وهو طفل فى العاشرة من احدى المدن الروسية الصغيرة واستقر أبوه . وأبوه طبيبا للاســـنان فى اسطنبول بتركيا . وهذا حدث مركزى فى تكوين نيكولا . رغم ان الرواية لا تشــير الى ذلك بوضوح . فان انتقال الطفل من بيئة شكلته وتعودها الى عالم غريب اللغـــة والعادات قد جعل العالم بالنســـبة له موضع تساؤل بدلا من ان يكون موضع قبول وقناعة . وقد حدد هذا الانفجار الأول مسيرة نيكولا بعد ذلك . فأخذ يقطع كل الخيوط التى تشده بواقع محدد : الوطن ، أمه ، أبوه ، أخـوته وأصـبح اللا منتمى المطلق . اصبح غريبا ، ومندهشا فى كل مكان لأنه منذ سن العاشرة حرمته الظروف من اعتياد اى شيء . فى سن الثلاثين استقر فى أحدى المدن الايطالية الساحلية حيث عمل أجيرا فى مطعم وبعد ست ساعات كان يضاجع أبنة صاحب المطعم القوقازية « المسلحة بجمال حاد » . ثم تزوجها فأحاطت به من كل ناحية تدعوه الى اســـتقرار دائم : حدثته عن مشروع كازينو وعن اتساع لا حد له للمشروع الرأسمالى ، وعن الاطفال ، وعن الثراء . ولكن نيكولا أدرك بحدس صادق ــ عجز عن وضعه فى كلمات ــ ان ذلك لن يكون الا استقرارا زائفا ، استقرارا يبدأ بقتل صاحب المطعم « قالت له ان ضربة على مؤخرة الرأس لن تضر أحدا وســـتريح العجوز من كل تعبه الذى يتعبه تحت الشمس .. » ولا ينتهى أبدا . فيواصل نيكولا تجواله ويتجه نيكولا الى صـــحراء مصر الشرقية مع صديقه مهندس التعدين الايطالى .

ويســـتقر نيكولا فى جبل الدرهيب الذى يحتوى فى داخله على مادة التلك . ويعيش نيكولا أيامه الأولى فى حالة اندهاش بالغة ، فهو مازال يتفرج ، والمكان يتسلل داخله وهو يجاهد ان يمد نحوه جسورا .

وهذا الجزء من الرواية هو أغنى اجزائها واكثرها فنية . وسوف نحاول بعد قليل ان نشرح دلالة هذا .

يجد نيكولا صلة بينه وبين البدو الذين يقطنون هذه المنطقة لأن أصلهم يعود الى القوقاز ايضا . ولكن هنالك صلة أعمق تتكون مع المكان عندما يجـد الموت صريحا ، عاديا : « وبين الحين والحين تبرز فجأة .. كومة من العظام البيضاء .. او غصن جاف ترفرف فى أعلاه قطعة صغيرة من القماش .. هى علامات الموت فى الصحراء . يرقبها نيكولا ويرتجف مهابة . » . كما ان نيكولا يعانى منذ اللحظات الأولى غمرات الوجـد الصوفى عندما يصحو مع الفجر ليكون أول شاهد على انبثاق الصـــحراء من الليل . « ارتجف نيكولا ، واصطخب بداخله نوع من الشـــغف الرقراق ، الشـــغف الظامىء للمستحيل ، فظن ان باستطاعته أن يحث بعيره فيخب به مسرعا تجاه الافق المنقسم بين

الذهب والفضة ليمسك بقرص الشمس قبل ان يقفز مرتفعا فى السماء » ٠

ولكن اللحظة الحاسمة فى حياة نيكولا تأتى عندما يفقد طريقه فى الصـــــحراء ٠ ويظل خمسة أيام يبحث عن الماء فلا يجده ، يقـوده سراب يرسـم له فى الافـق قبـابا ومآذن وأسوارا وبوابات واشجار كثيفة الاوراق وارفـة ، مثقلة بالثمـار ٠ ويكتشـف البدوى ايسا مكانه فينقذه ويحمله على جمله بينما نيكولا فى نصف غيبوبة ، ويسير به خلال الطرق القديمة التى عبرتها جيوش الفراعنة والرومان ، وحيثما ساروا لمحو على الصخور آثار الكتابات القديمة ٠

وخلال ذلك كان نيكولا يتغير بشكل جذرى :

« وكان نيكولا يرتجف مهابة وخشوعا ، وقد استولى المكان على حواسه المضطرمة بالرغبة فى التحليق ٠٠ وشعر بأنه يوشك أن يجد مكانا يرغب فى الانتماء اليه ٠

« يوشك ان يجد وطنا » ٠

ان نيكولا بهذا قد دخل فى ســـياق الصـــحراء ، مارس فيها الموت والولادة ٠ ويتعمق هذا التغيير فى داخله من خلال موقفين ٠ الأول تعرفه بالبدوى ايسا ، الذى انقذ حياته بعد أن قاربت على نهايتها ٠ « وكان متأكدا أنه قد اكتسب ايســـا أخـا وصديقا ٠ » هذا ما تقوله الرواية ٠ ولكننا نلمس عمقا أبعد غورا لهذه العلاقة ٠ فعندما حبسا سويا شعر نيكولا « أنه قد ولد ولادة جديدة ٠ »

وعندما يمشى ايسا على النار ليثبت براءته فان نيكـولا يزحف « مأخـوذا ٠٠ الى جوار ايسا فأمسك بقدميه واحتضنهما ٠ كانتا شديدتى السخونة ، كأنهما قد اختزنتـا لهب الحمرات وها هما الان تخرجانه فى صدره ، الى جوار قلبه ٠

« أى أحساس شمولى قد احتواه فى تلك اللحظات الملهمة ، فمزجه بالمكان واذا به فيه ، فأخذ يهمس فى أذن ايسا المغمض العينين بنجواه وجيشانه » ٠٠

لقد كان صديقه مهندس التعدين ماريو قد اصبح بديلا لزوجته ايليـا ٠ وعندما جاء ايسا اصبح « بديلا لماريو ولايليا فى نفس الوقت ٠٠ وعاش نيكولا تلك السنوات فى الصحراء لم يرتجف جسده خلالها بشهوة الجنس ٠٠ » ٠

وعندما مات ايسا عاد نيكولا منكسرا « وكان ايسا يشاركه فراشه الصغير طول الوقت قبل ان يغلق عينيه » وأخذ يتصوره فى كل المواقف التى رآه فيهـا ٠ « وحين اغلق عينيه ودخل فى النوم اختفى ايسا وظهرت ايليا الكبرى زوجته ٠٠ ظهرت عارية كما اعتادت ان تظهر فى لياليهما القديمة » ٠

اعتقد اننا بهذا قد اوضحنا طبيعة تلك العلاقة العميقة والمعقدة بين نيكولا وايسا ٠

ان تسميتها بجنسية مثلية كامنة هو تبسيط شديد لموقف يمتزج فيه الابدال بالنكوص بالبحث عن معنى وعن طوق للنجاة ٠

ولقد كان موت ايسا اعمق أثرا من حياته في نفس نيكولا ٠ لقد انحل ايسا في المكان فتم انتماء نيكولا اليه ٠

والموقف الآخر الذي حسم علاقة نيكولا بالمكان هو التجسد على شكل صخرة للمجد الأول لقبيلة البجاة « ومن بين هذه الصخور ٠٠ كان الماء العذب يسيل زلالا على المساقط الجنوبية والغربية للجبل ، ثم ينساب في وادي عيذاب ليروي تلك الغابة الكثيفة التي لم يقدر على اختراقها انســـــان للآن ٠٠ حيث تعتقد قبائل البجاة انها مغلقة على روح جدهم الاكبر القديم كوكا لوانكا ، ذلك الذي امضى عمره في كهف عميق داخل هـــذا الجبل الابيض يصلي للمكان ويتعبد ٠٠ حتى تحول جسمه بفعل الزمن وكثرة العبادة ٠٠ بينما انطلقت روحه تحفر القمم وتفجر منها ينابيع الماء ٠٠ » ٠

أن هذا الحلول يرسخ في وعي نيكولا (ولا وعيه ايضـــــا) الى حد انه يمارس طقسا – فيما بعد – اعتقد انه سوف يحيله الى صخرة ، فهو يدخل في كهف صخري من كهوف جبل الدرهيب منتظرا أن يتجمد ويتحول الى صخرة كما حدث مع كوكا لوانكا ٠٠ يحدث نيكولا نفسه :

« وتذوب كما حلمت في تلك الطبيعة التي سحرتك بروحها الجذابة والوحشـية عن الحضر الذي قدمت منه » ٠٠

« تتيبس وتصبح صخرة من الصخور في قلب الدرهيب العظيم الذي اعطيته قلبك وروحك ٠٠ »

ولكننا سوف نتبين فيما بعد ان هذا موقف اوروبي معاصر اتخذ أطاره من فكرة الخلاص المسيحية أكثر من كونه نزوعا صوفيا ٠

ثم تأتي الحادثة النهائية والرئيسية التي تكرس نيكولا للمكان وتقطع صـــلته بالاحياء قاصرة تلك الصلة على أرواح الذين ماتوا والتي تخللت المكان ٠ روح ايسا التي تنبعث من عمق الارض ، من البئر الذي مات في داخله ، وروح ايليا ، ابنتـــه ، التي ماتت في قلب جبل الدرهيب ٠ وبين هاتين الشخصيتين يقف نيكولا مصلوبا على الجبل ، يعاني آلام ورعب خطيئتين : الجنسية المثلية ، والزنا بالمحارم ٠

وقد يثور اعتراض هنا ، فان نيكولا لم يرتكب أيا من الخطيئتين ، فما الذي يدعونا الى القول انه ارتكبهما ، وانه يعاني بسبب ذلك ؟

اعتقد أن الاجابة على هذا التساؤل تكمن في ان جنون نيكولا وعذابه هما رد فعل

لرغبته العنيفة المؤلمة في كسر هذين المحرمين ، وان طقوس عذابه ان هي الا محاولة عن التكفير عن رغباته التي تحققت من خلال الابدال ــ رمز الافعى التي قتلت ايسا ــ ورمز رأس الجماعة الذي اغتصب ايليا الابنة ــ ٠

وفى الرواية حكاية اخرى موازية لحكاية نيكولا ، ولكنها أقل توفيقا ٠ لقد كان بأمكانها ان تكون اكثر خصوبة لو أن المؤلف عالجها بأناة اكثر٠ونعنى بها حكاية عبدربه كريشاب مع عروس البحر التى اغوت ابن عمه وابن خاله وأخاه ٠ وفى كل مرة تكرر العروس لعبتها وفى كل مرة تنتصر ٠ انها تختار نزهتها الغرامية فى وســـط ديكور اسطورى الجمال ٠ « يكون البحر منبسطا كمرآة صماء شديدة السكون فى هذا المحيط الشامل المضاء بالنجوم » وبينما الرجال مستغرقون فى الصيد « وفجأة تبهر عيونهم على صفحة الماء اضاءات قوية مفاجئة ٠٠ واذا بشعر عروس البحر طافيا يلتمع ، يتموج فى السكون كنغمة فطرية رائعة ! » ٠

يجد احد الصيادين نفسه منجذبا اليها ، يقاوم ويقاوم فلا يستطيع ، ثم فجـــأة يلقى بنفسه عليها فيلتف شعر العروس المصنوع من اسلاك الذهب حوله وتغوص به العروس الى عالمها ، فيعود الرجال ولا يعود هو أبدا ٠

وفى المرة الاخيرة ، عندما فقد عبد ربه شقيقه أقسم بين الرجال أن يأخذ ثأره من عروس البحر ٠ وواقع الامر ان رغبة عبد ربه فى الانتقام لم تكن الا قشرة خارجية ٠ لقد أغوته العروس هو الآخر وما طلبته لها الا اســـتجابة لذلك الاغواء الذى لم يكن يعيه ولكنه غلبه ٠

وتتحقق كل رغبات عبد ربه كريشـــاب ، ولكن ذلك يحدث كما فى الكوابيس ٠ فلقد تســـببت الانفجارات التى تجريها بعض الشركات للبحث عن البترول تحت ماء البحر الاحمر فى مقتل احدى عرائس البحر ٠ ويسحبها المد حتى تقف أمام عبد ربه ٠ اما ذلك الغرام الاسطورى ، البدائى ، الذى اشعلته فيه العروس فيجد نهايته السعيدة عندما تطلب مجموعة من افراد الطبقـــات العليا وعلى رأســـهم الملك من عبد ربه ان (يدخل) على العروس ويضاجعها أمام عيونهم ، فيفعل ذلك ، وينتهى الى الجنون ٠ حتى ادعاؤه بانه هو الذى اصطاد العروس تنفيذا لعزمه على الانتقام يسرقه الملك منه ٠ فتوضع العروس فى متحف الاحياء المائية ويكتب عليها ان صاحب الجلالة هو الذى قد اصطادها ٠

وفى رأيى ان انحلال الموقف على هذا المستوى الكاريكاتيرى قـد اهـدر أمكانيـة رائعة يتضمنها الموقف ٠ كما ان توازى هذه الحادثة مع مأساة نيكولا بنائيا وانفعاليا قد خفت وكاد أن يتلاشى ، مما جعل هذه الحكاية تبدو وكأنها مقحمة على سياق الرواية ٠

ان رواية « فساد الأمكنة » هي محاولة متفردة في أدبنا العربي الحديث كما اعتقد لبعث تجربة صوفية لها تاريخ عريق في تراثنا الفني والفلسفي • وتقتصر هذه التجربة على جانب واحد من جوانب النظر الصوفي ونعني به وحدة الوجود • وهي تتجسد هنا بحلول الانسان في العالم • وهي بهذا المعنى تقترب كثيرا من الفكرة البدائية التي ترى ان جميع الموجودات مسكونة بأرواح تسيطر عليها ـ وتسيرها •

يقول ابن خلدون عن هذا الجانب من التجربة الصوفية في مقدمته :

« ثم ان هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكلمين في الكشف وفيما وراء الحس توغلوا في ذلك فذهب الكثير الى الحلول والوحدة كما اشرنا اليه ، وملأوا الصحف منه » •

ولكن هذه التجربة تطرح في رواية « فساد الأمكنة » بمعطيات معاصرة تأخذ اطارها من فكرة الخلاص المسيحي ، كما اشرنا منذ قليل • ان المعطى الأول هنا ، هو قلق الانسان المعاصر الذى انتزع من جذوره واطمئنانه ومنح حرية لم يعد يعرف ماذا يفعل بها • ان أحد الاستجابات الانسانية لهذا القلق هو رغبة الانسان ان يتحول الى شيء ، كما احس ماتيو في رواية سارتر « دروب الحرية » عندما وقف فوق الجسر يطالع اندفاع المياه تحته • وبكلمة أخرى ، ان هذا الدوار الذى يصيب انسان العصر يجعله يحلم بالتوصل الى سكونية وثبات يصبح فيهما ـ في التحليل الاخير ـ جزءا من الطبيعة • ولكن انسان العصر عاجز عن تحقيق هذا المسعى الا عن طريقين لا ثالث لهما ، وهما : الموت أو الجنون • ان كلا منهما تلاؤم مطلق مع الطبيعة وانهاء لتمرد تلك المادة الغريبة ـ الانسان ـ التي وعت موتها وحاولت جاهدة ان تتخلص من قانون الطبيعة •

ولهذا السبب ذهبت جهود نيكولا في الحلول عبثا ووقف متارجحا بين العزم على انهاء حياته وبين الجنون • لم يكن اعداده العصري من ناحية ، والتغرب الذى فرض عليه منذ الطفولة أن يجد مكانا يرسي فيه جذوره على هذا النحو الشعائري المتخلف •

وتختلف تجربة نيكولا اختلافا جذريا مع التجربة المسيحية وهي تجربة التضحية بالذات والحلول في اجساد الآخرين لتطهرهم من ذنوبهم :

« وفيما هم يأكلون أخذ يسوع الخبز وبارك وكسر وأعطى التلاميذ وقال خذوا كلوا • هذا هو جسدي • وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلا اشربوا منها كلكم • لأن هذا هو دمي الذى للعهد الجديد الذى يسفك من أجل الكثيرين لمغفرة الخطايا •• » •

وهذا الطقس ، الذى تحول فيما بعد الى طقس القربان المقدس يحمل المعنيين : معنى الحلول حيث يمتزج جسد متلقي القربان بجسد المسيح ، ومعنى غفران الذنوب •

ولكن نيكولا الذى يجسد فردية العصر كان يبحث عن خلاصه الذاتي لا خلاص

الآخرين ، فلذا كان يهدف الى الحلول الطبيعية • وخطيئتة الاصلية هى أنـه أكـل من شجرة معرفة الخير والشر فطرد من جنة التلاؤم مع الطبيعة الى عذاب معرفة الخير والشر وبالتالى الانفصام عن الطبيعة • هذه هى خطيئته الحقيقية التى جسدها بذلك الوهم بأنه ضاجع ابنته •

كم هو باطل سعى نيكولا وغير مجد عندما يهجع فى شرنقته الصخرية منتظرا ان يتحول الى صخرة •

ولأن هذه الرواية امكانية ممتازة وبسبب التميز الذى عالج به الاسـتاذ صبرى موسى موضوعه فلابد ان نحاسبه حسابا عسيرا على بعض النواقص التى أضرت بهـذا العمل وافسدت بعض مزاياه •

ان موضوع الرواية هو علاقةالانسان بالكون ، أو بشكل أدقوضعه فيه • والرواية محاولة اسطورية ـ مأساوية لتجاوز الموقف الانسانى • وهى لهذا اتخذت من الاسطورة اطارا وخلفية • وقد لعب اسلوبها التوراتى الفخم ومجازاتها المسـتمدة من التراث الدينى دورا هاما كعنصر بنائى • ولقد نجحت الرواية فى هذا الغرض بشكل عام •

غير اننا فى بعض الاحيان نجد الكاتب ينسى ذلك كله ويحاول ان يجعـل الاسطورة مبررة علميا بمصطلحات علم النفس • وكأنه بهذا يقدم اعتذاره عنها • وفى هذا نشاهد ثنائية فى البناء تسىء كثيرا الى هذا العمل الجيد • وقد اتينا بمثال على ذلك فيما سبق عندما تحدثنا عن حكاية عبد ربه كريشاب مع عروس البحر •

ان الاسطورة تفسير شامل للحياة والكون ، وتحتوى فى داخلها على شـمولية التجربة الانسانية • ولكننا عند تحويلها الى علم وضعى يدرس زاوية واحدة من زوايا التجربة الانسانية فنحن نفقد الاسطورة شموليتها ومخاطبتها لعمق التجربة الانسانية الكلية •

والاسطورة تتجسد فى طقوس وشعائر لا فى تفاسير العلم الوضعى • ومن هنـا كان الوعى بالاسطورة هو تجاوز لها • ولكننا نجد نيكولا يعى بوضـوح ومنطقية طيلة الوقت بأنه يجسد اسطورة وتصبح رغبته فى الحلول والتواجد مع الوجود موضـوع تجارب معملية :

« اسـتيقظ نيكولا وفتح عينيه نلم ير غير الظلام مطبقا حوله •• واكتشف ان عظامه قد تيبست حينما حاول تحريك قدميه للنهوض وقد سرت فيهما برودة نفاذة •• لقد بدأ الامر بقدميك وساقيك وكفيك وسوف يسرى التيبس فى ذراعيك ويتسـلل منهما عبر جسدك كله فتصبح متيبسـا •• وتذوب كما حلمت فى تلك الطبعة التى سحرتك •• » •

وينجم عن هذا ، الى حد بعيد ، خطأ جمالى آخر ربما جعل بعض اجزاء هذه الرواية أقرب الى الريبورتاج اذا تجاوزنا هنا عن جلال الاسلوب • وذلك عندما تتحول التجارب فى العمل الفنى الى مجرد أمثلة يخضعها الكاتب الى تحليل مطول يفسر الدلالات ويشرح المغزى • من ذلك مثلا حلم نيكولا عندما يرى نفسه فى حمام تركى عاريا مع ابيه وينتهى الحلم بمحاولة ان يضاجع فتاة يكتشف انها ابنته • ان الكاتب هنا يفسر الحلم بأن مشهد الحمام التركى هو تعبير عن رغبة نيكولا فى البراءة ، وقد حملته البراءة الى نصوع الصحراء ووضوحها الخ •• ورغم ان هذا التفسير لا يتسق مع أى من مدارس علم النفس فى تفسيرها للاحلام ، ولكن ما يعنينا هنا هو ان الدلالة طغت على الحلم — وان الحلم اصبح مجرد مثال توضيحى •

وفى واقعة عبد ربه كريشاب وعروس البحر حدث تسطيح لبناء اسطورى رائع هو جوهر المضمون الفنى من خلال التحليل وذلك لسببين :

الاول : ان المؤلف قد اختار من التفاصيل تلك التى تجعل من عروس البحر مجرد سمكة كبيرة ، فتلاشى بهذا البناء الاسطورى الذى ينفذ الى عمق علاقة الانسان بالطبيعة وتحول الى مجرد فكاهة •

الثانى : ان الكاتب قد جعل عبد ربه يضاجع السمكة استجابة لرغبة الملك بينما هذه الرغبة موجودة عند عبد ربه كريشاب فى الاســـــاس ، نتبينها من خلال منطق الاسطورة ذاتها ، ومن خلال كون هذه الواقعة موازية لمأساة نيكولا •

ونستطيع أن نقول نفس الشىء عن التحليل الذى تورده الرواية لتفسير اندفاع أحد الصيادين من مركبه نحو عروس البحر • فهو يفسر ذلك بأنه اشــبه بالتنويم المغناطيسى متجاهلا الجذور الاسطورية ، مما ادى الى افقار هذا الجزء من الرواية •

وبكلمة أخرى فأننا هنا نشـــــهد أن ما هو جوهرى يتحول الى مجرد مثال توضيحى ، وتحولت الاحداث ، فى بعض الاحيان ، الى برهان على مقولة • ومثل هذا الموقف مقبول فى مجال توضيح الافكار — لا فى مجال التجسيد الفنى •

ولهذه النقا الوضعية مقتل خطير آخر ، وهو ان الظاهرة الفنيـة — مثلهـا مثـل وقائع الحياة اليومية دون ان يكونا متطابقين — لا يمكن ان يستنفذها تفسير واحد حتى ولو كان هذا التفسير من صنع المؤلف نفسه • لقد وضعت عشرات التفسيرات لشخصية هاملت نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر : تفسير ت • س • اليوت ، وتفســير ارنست جونز ، والتفسير الذى قدمه الفيلم السوفيتى الشهير لشخصــية هاملت وتفسير برادلى ، وتفسير سدنى فنكلشتاين وغيرها •• وجميع هذه التفسيرات قد تلقى اضواء على شخصية هاملت ولكنها لا تستنفذها ، فما يزال هاملت تحديا مفتوحا لكل

فنان أو دارس ليعيد تفسيره وسوف يظل كذلك أبدا .

ونأخذ على هذه الرواية ان تلك اللغة الشاعرية الجليلة ، التى تنبعث بتوهج خاص نتيجة لصياغة جديدة للجملة ولاختيار تلك الالفاظ التى لم يقتلها التداول .. ان هذه اللغة تتحول فى احيان كثيرة الى شرك ، فتصبح الاستعارة أو المجاز منطلقا للاستطراد ناسيا ان نقطة الانطلاق الأولى والاساسية هى الشخصيات والاحداث والمواقف . وسوف أورد مثالا على ذلك يوضح ما اعنيه :

« ايليا شهوة جامحة .. كما ان الجبل شهوة جامحة .. ما الغريب فى أن تتكرر داخل جسده تلك الرجفة حين يقف فى قلب الدهليز العظيم .. فى السراديب الحارة والسراديب الباردة .. يتحسس الجدران البكر مختبرا طراوتها .. محددا بالطباشير الابيض علامات لعماله ليثقبوها بآلاتهم .. ويحشروا فى بكاراتها اصابع متفجراتهم » .

« كأنه فعل جنسى من أفعال الاخصاب .

« ألست تخصب الآن هذا الجبل فعلا يا نيكولا ؟

« وما انزلافك الدؤوب فى رحم هذا الجبل سوى سعى لزرعه وايلاده ؟ ..

« وينتبه نيكولا ، بينما يغطيه تراب التفجيرات الداخلية التى تهتك بكارة الصخور الى ان الدرهيب أصبح بديلا لأيليا .. زوجته .. » .

ونحن نعلم من الفصول السابقة واللاحقة ايضا ان عزوف نيكولا عن زوجته ، متجاوزا البحث عن بديل لممارسة الجنس مع زوجته . كما نعلم من سياق الرواية ان الجبل لم يكن بالنسبة لنيكولا تعبيرا عن محاولته لتحقيق الارتواء الجنسى ، بل تكاد تكون عكس ذلك تماما :

رسوخ صوفى وامتداد فى الطبيعة .

واعتبار الجبل جسدا يمارس نيكولا فيه الجنس لا يمكن ان يكون تفسيرا لعزوفه عن زوجته ولا يمكن ان يكون الجبل بديلا لها (أو هذا على الاقل ما تقوله الرواية عن سبب انصراف نيكولا عن زوجته فى الفصول الاولى) . اننا نعلم ان الفرويديين يفسرون قيادة السيارة بأنها عملية جنسية رمزية وبديل جنسى . ولكن لا أحد يستطيع أن يزعم ان قيادة السيارة تغنى عن ممارسة الجنس الحقيقى ، أو أنها حتى تخفف من رغبة الجنس .

هنالك أيضا نقص آخر فى الرواية عجزت عن قبوله . ففى الوقت الذى نجح فيه الكاتب فى تصويره لشخصيات مثل نيكولا والشيخ على وايسا وعبد ربه بحيوية

واقناع عجز عن تصوير شخصيات الملك والباشا والخواجه أنطون وأقبال هانم وغيرهم من شخصيات الطبقات العليا • ان الشخصيات هنا تتسطح ، وتصبح نمطية ذات بعد واحد . لا تعانى أى نوع من الصراع • ويتضح من قراءة الرواية ان سبب ذلك يعود الى انطلاق المؤلف من موقف اخلاقى •

ان الاستاذ صبرى موسى يلجأ الى التبسيط المبالغ فيه ، فتصبح الشخصية واعية بانحطاطها . تقبله وتسلك على اساسه دون محاولة حتى للتبرير الذاتى • وان وجدت امثال هذه الشخصيات فمن المستحيل علينا ادانتها . وبهذا يصبح حكمنا الاخلاقى عليها ناقصا وغير منطقى •

والفنان يتجاوز الحكم الاخلاقى حين يخلق فنا ، لأن الفن خلق والحكم الاخلاقى هو رؤية جاهزة نحو موقف من وجهة نظر الجماعة • وكما ان للعمل الفنى منطقه الخاص المختلف عن منطق العرف الاجتماعى له ايضا اخلاقيته الخاصة • ان مدام بوفارى مدانة اخلاقيا بحسب العرف الاخلاقى ولكنها فى داخل رواية فلوبير شخصية انسانية فاجعة ، كانت ضحية لزوج بليد ومجتمع راكد • ويمكننا ان نقول نفس الشيء عن شخصية (كادى) فى رواية فوكنر (الصخب والعنف) •

وبكلمة اخرى فان الشخصية المدانة يظل لها وجهة نظرها وتبريرها لسلوكها الذى يختلف عن حكمنا الاخلاقى عليها ، وعلى حكمنا الاخلاقى حتى النابع من العمل الفنى • ان الشخصية الانسانية فى الفن اكثر تعقيدا وخصوبة من ان تكون مجرد فعل خاطىء يستحق ادانة بسيطة •

ان اغواء ايليا نتضاجع الملك بواسطة وصيف الملك الخاص لا يمكن تفسيره عند ذلك الوصيف بقولنا « فجرى عقله المدرب المأجور مجراه المتوقع والمعتاد •• » •

هذه الرواية كما قلت عمل متميز ، وهى نتاج جهد جاد ومخلص ، وهى قد طرحت بأصالة ومن خلال تجسيد فنى جيد مشكلة انسان العصر ، أو على الاصح مأزقه • فلم يكن نيكولا مجرد رمز لأزمة يعيشها الانسان الغربى ، بل هو ايضا شخصية نابضة •• حية تطرح فى نفس الوقت أزمتها الخاصة وتسعى حتى الموت لحلها •

ان انسان العصر عاجز عن تحقيق السعادة من خلال دموية الصراع فى مجتمع المشروع الحر ، وفى الوقت ذاته فان عودته الى الماضى ، الى جنة عدن المفقودة ، وبالتالى الى سكونية ينسجم فيها مع الطبيعة والعالم مستحيلة ايضا •

اننا بالطبع قد نعترض على وضع الانسان امام خيارين لا ثالث لهما ، وكلا

الخيارين مؤلم ورهيب ، ولكننا نستطيع ان نسـتنبط قيمة ايجابية من مجرد هذا الرفض .

واذا جاز لناقد ان يضيف الى تقييمه للعمل الفنى امنية ، واذا جاز له ان يطالب بأن تتحقق هذه الامنية فأنني اتمنى لو أن الاسطورة فى هذا العمل كانت فى الخلفية (كما حدث فى الكثير من الاعمال الفنية الكبرى : « الشمس تشرق ايضا » لهيمنجواى ، « الارض الخـراب » لايليـوت ، « المسـيح يصلب ثانيـة » لكـازنتزاكس ، « مـوبى دك » لميلفل وغيرها) ولو ان الكاتب قد ركز على عينة تلتقط الوقائع وتصيغها دون تفسيرات وضعية تبرر ما لا يمكن تبريره الا اذا أدركناه بشموله ولغته الخاصة واعنى به الاسطورة .

ان الرواية ترتفع فنيتها عندما يدع الكاتب عينه وتلقائيته تعبران . مثال ذلك وصفه لأول دخول لنيكولا الى عالم الصحراء :

« وعلى طول الطريق الذى قطعوه بين الجبال فى ذلك الصـباح القديم مروا بشجرتين أو ثلاث » .

« الشجرة تكون وحيدة فى الارض القفار فتصبح ظلا ، فيفىء البدو بأغنامهم تحت هذا الظل ويقيمون مسكنا من الخيش ، يهدمونه ويرحلون حين تعجز الاغنام عن ايجاد ورقة خضراء تأكلها » .

« ومن خلال بقع الظل هذه ، كان يخرج لهم بين الحين والحين مخلوق يعترض القافلة وذراعه على عينيه .. ويهمهم بلغة غير مفهومة وهو يلوح بسـيفه الطويل الصدىء .. فيصب له الشيخ على قليلا من الماء فى وعائه ، ويعطيه سيجارة ، فيقعى الرجل على الارض ويأخذ فى التدخين بنهم .. » .

لقد حزنت بالفعل لان هذه الطزاجة افتقدت فى بعض اجزاء الرواية ، وغلبهـا طابع ذهنى تحليلى .

واتمنى كذلك لو ان الكاتب احيانا لم تأسره خفة ولباقة التعابير الصـحفية ، فلا تلد ايليا طفلة لمجرد ان تكرر نفسها . أى ان لا تبهره حلاوة العبارة فيستغنى بها عن النفاذ الى موقف شديد التعقيد والخصوبة .

د٠ مجاهد عبد المنعم مجاهد

نشر هذا الحوار فى مارس عام ١٩٧٥ بالعـدد (١٥٧) مـن مجلة المعـرفة ، السورية ، وقد نشر معه مقـال تحليـل للدكتور مجاهد بعنوان « الشكل مـع المضمون ، ملتحما » ننشره ايضا بعد هذا الحـوار » ٠

ليس فوز صبرى موسى بجائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٧٥ مجرد حدث عادى مما يتكرر كل عام ٠ فان تكريم صبرى موسى هو تكريم لجيل كامل هو الجيل الذى سقط بين الجيلين ، الجيل الذى تفتح ابداعه مع بدء الثورة المصرية فجاء جيـلا له طابع خاص ٠٠ لقد تفتح فى ظل اللبرالية ، وفى الوقت نفسه كان يستشرق أبعاد التغيير الاجتماعى ، وكان نواة ابداع خاص ، وكان ملهما لجيل بعده ٠٠ وسـقط هو بين الجيلين ٠٠ انه جيـل صبرى موسى وبدر نشأت وفاروق منيب وعبـد الله الطوخى وصالح مرسى وكامل أيوب وسيد جاد ونجيب سرور ٠٠ انه الجيل الذى ركز عـلى الفن والابداع ، ولم يركز على تنسم المناصب الاجتماعية فلم يتمتع بشـهرة كافيـة ، مما ألقى بظل على تجربته الابداعية فأجهدها ، ولم يجعلها تكتمل تماما ٠٠ وانتهى اما بالصمت ، واما بالابتعاد ، واما بالتغرب ٠٠ ولم تبق الا قلة قليلة تجدد فى

ضمت واخلاص . ومنها صبرى موسى الذى توج شـــوط ابداعه منذ مجموعة قصصه القميص عام ١٩٥٨ برواية فساد الامكنة عام ١٩٧٣ ، وقد آن نتعرف على الفنان من داخله ، فكان هذا اللقاء .

● **د . مجاهد : فلنبدأ من جبل الدرهيب .. الاطار الذى تجـرى من خلاله أحداث الرواية .. نريد أن نعرف بشيء من التفصيل ، كيف نبتت فكرة رواية فساد الأمكنة .. ؟**

صبرى : فى الحقيقة سنجد صعوبة فى اختيار التفاصيل التى تجيب على هذا السـؤال .. فقد ظلت الرحلة للصحراء تستهوينى منذ وعيت أن مصر بلادى منتزعة من براثن تلك الصحراء انتزاعا (هبة النيل) .. وكم كانت دهشتى وأنا أراها من مقعدى فى السماء داخل طائرة .. شريط رفيع طويل اخضر ، لايكاد يرى وسط مساحة هائلة من اللون الاصفر الصخرى .

وقد كانت رحلتى الصحراوية الاولى ، فى الخمسينات (١٩٥٨) تجاه الغرب وراء السلوم وحدودنا مع ليبيا .. وبدت لى الصحراء الغربية آنذاك جيرية بيضاء تبدو فقيرة عاطلة ازاء البحر العظيم الابيض .. ولا أظننى قد كتبت بعـد تلك الرحلة سوى بضع مقالات تتناول بالاشفاق حاجة سكان تلك الصـحراء للاهتمام والرعاية .

وفى الستينات (١٩٦٣) رحلت الى الصحراء الشرقية ، فيما وراء اسـوان والسد العالى وحدودنا مع السودان .. رحلت أكثر من مرة بأكثر من وسيلة .. مرة بالقطار حتى قفط ، ومنها بالسيارة – عبر طريق الحج القديم – الى القصير على البحر الاحمر ، ثم مرسى علم وابو غصون ، الى الصحراء الحقيقية .. ومرة أخرى بالسيارة مباشرة من السويس بحذاء البحر الاحمر حتى برانيس فى أربع وعشرين ساعة ، اشتريت بعدها سجائرى من قرية حلايب المصرية السودانية التى تنزوى على شاطىء البحر الاحمر خارج نطاق الحدود الدولية .. وخارج نطاق الزمن .. حيث باع لى سجائرى الامريكية الحديثة المستوردة مخلوق أسمر فى ثياب بيضاء ، يضفر شعره على طريقة فراعنة طيبة القديمة ! .

ومرة ذهبت بالطائرة .. حملتنى من القاهرة ذات فجر ، واسقطتنى بعـد ساعتين ونصف ، فى قلب الصحراء عند حماطة ، وهى نقطة صغيرة للأمن والاتصالات اللاسلكية ، تبعد ساعة وربع ساعة بسيارة النقل القديمة عن جبل الدرهيب ، حيث كان مقررا مبيتى فى معسكر خشبى مهجور ، يخص منجما قديما عاطلا عن العمل .

وأعترف لك أننى لم أجدا أبدا فى هذا الجبـل ما يميزه عن غيره من الجبال الاخرى ، سوى اسمه غريب الايقاع والتكوين .

لقد ظل هذا الاســــم يلح على خيالى طوال ارتحالى فى الصحراء . وكأنما هو لغز مهيب تلقيه الطبيعة عبر طريقى يعترضنى ويطالبنى بتفسيره ..

وتنضاف الى هذا اللغز تلك المعطيات البكر التى منحتها لى الطبيعة عبر الرحلة واهمها ، الاحساس الغامر الحقيقى بجـــدة كل شيء وبكــارته .. وكأنمـــا العـــالم يوجد فى تلك اللحظة فقط بالنسبة لى .. رغم قدمه الشديد .. مما يعطينى الحق بأن أصنع له قوانينه وقواعده لابدا فى تشكيله على هواى .. وأبتكر له مخلوقاته وسكانه .. فكيف اذا لا تنبت فى داخلى فكرة هذه الرواية . ؟

● **د . مجاهد : وهل مازالت للـدرهيب فى نفســك بقيــة ، يمكن ان تصـلح موضوعا لعمل فنى قادم .. ؟**

صـــبرى : أحيانا يخيل لى أن الدرهيب فى فســاد الامكنة قد تحول الى رمز للارض بشمولها ، وأن نيكولا يجتهد على طريقته ليكون الانسان فى شموله .

وقد اكتفت فســاد الامكنــة بأن تضـع نيكـولا فى مواجهـة كـل الاسـئلة التى يطرحها الدرهيب حـــول فكرة الوطن والزواج أو الاسرة .. والجنس والعمـل والصـــداقة .

وقد بدت الاسئلة التى يواجهها نيكولا ، عنيدة وقاسية لدرجة أنه يســلم بعجزه فى النهاية .. ويرغب ــ هربا من هذا العجز ــ أن يتحد بالطبيعة الام ، فيصبح حجرا أو صخره من صخور الجبل .. ويصبح بالتـالى قويا وعظيما مثـل الطبيعة .

وعلى هذا الاساس اعتقد أحيانا أن التصميم الفنى فى فساد الامكنة ، لم يترك لى فى الدرهيب بقية لعمل فنى قادم .

ومن يدرى .. فبالنسبة لى ، فان أبشر ولد ايسا البدوى ، ما يزال يوجد فى ذاكرتى الفنية ، ويلح عليها بين الحين والحين .

د . مجاهد : لقد خيم على الرواية جو الاســـطورة والجنس والموت .. فهل هناك تأثيرات لاعمال كازنتزاكس وهيمنجواى والطيب صالح ؟ .

صبرى : أنا معجب بهؤلاء جميعا .. وبغيرهم أيضـا .. لكننى أحب بتحيز كل الاساطير القديمة ، واعتقد انها أثرت فى منهجى واختيارى .

● **د . مجاهد : لقد بدات بالقميص ، وهو مجموعة قصص قصيرة .. فكيف حدثت النقلة عندك من القصة القصيرة . الى الـرواية .. ومـا هى مراحـل تطـورك الفنى .. ؟**

صبرى : القصة القصيرة لم تكن البداية .. لقد بدأت رساما ونجحتالى حد ما .

وحينما فشلت فى الشعر حاولت القصة القصيرة ٠٠ وحين جاء زمن السفر والترحال استهوتنى محاولة تسجيل الرحلات ٠٠ كانت بالنسبة لى تعمقا فى معـــرفة الارض والناس ، ومهربا من نوعية العمل والحياة المعتادين ٠٠ ولعل ذلـك هـو ما قادنى الى الرواية ٠٠ وقد استهوانى فن السينما أيضا ، فكتبت عددا من الســيناريوهات ٠٠ قنديل أم هاشم ، البوسطجى ، الشيماء ، رغبات ممنوعة ، رحلة داخل امرأة ٠٠ ثم عدت من جديد للرواية واوشك أن أنتهى هذه الايام من رواية (السيد مــن حقـل السبانخ) ٠

● د ٠ مجاهد : يلاحظ بصفة عامة فى انتاجـك اهتمامـا شـديدا بالصـورة ، والصياغة الفنية ـ كيف تكونت هذه الخاصية المميزة لديك ٠٠ ؟ وهل تنميهـا بشكل واع ؟

صبرى : لقد بدأت كما قلت رساما ، وقد حاولت الشعر ، وهما فنان يعتمدان اعتمادا جوهريا على الصورة ٠٠ ثم ان الحياة كلها صور ٠٠ أما الصياغة عندى فهى محاولة التعبير بهذه الصورة ، التى تقول كل شىء بأقل الكلمات الممكنة ، ولكن المشكلة دائما فى أختيار هذه الكلمات فان كثيرا من الكلمات التى تستخدم قد فقدت معناها الجوهرى الحقيقى من كثرة الاستخدام ٠٠ وانا أدرب نفسى باستمرار على لعبة الكلمات هذه . فاعيد ترتيبها وتشكيلها بحيث تبدو جديدة وتكتسب قدرة عــلى الايهـام ، والايحـــــاء ٠

● د ٠ مجاهد ، بمناسبة الحديث عن الصور ، يلاحظ أن الصورة عندك ذات طابع شــــاعرى ٠٠ فما هى علاقتك بالشعر ، وهل يمكن للفن القصصى أن يستفيد من الشعر ؟ ٠

صبرى : مازلت أطمح أن اكون شاعرا ، واعظم القصص تأثيرا ، سوف تجد روح الشعر فى صياغته ٠٠

● د ٠ مجاهد : ماهى المكونات الخاصة التى جعلتك تفلت تماما من اســار نجيب محفوظ ، يوسف ادريس ، انطون تشيكوف ، الذين دمغوا معظم كتاب القصة من جيلك تماما ـ من ناحية الشكل والمضمون ـ بطابعهم ٠ ؟

صبرى : أنا رغم كل شىء قليل الانتاج ، ولعل هذا يعطينى فرصة البحث والاختيار والتجدد المستمر ٠٠ وحتى فى مجموعاتى القصصية القصيرة التى جاءت بعد القميص « حكايات صبحى موسى » و« مشروع قتل جارة » ، سوف تجد ان كلا منها قــد افلتت من اسار سابقتها ، واختلفت عنها ٠

وكذلك أيضا تختلف فساد الأمكنة كرواية ، شكلها الفنى ومضـــمونها عن

سابقتها : « حادث النصف متر » ٠٠ ولسوف تختلف كثيرا « السيد من حقـــل السبانخ » عن سابقتها « فساد الأمكنة » ٠

● ●

تطرح أعمال صبرى موسى كلها وروايته الاخيرة « فســـاد الامكنة » بصفة خاصة قضية جمالية : هل الصورة الفنية هى مجرد جزء من الصياغة الفنية أم انها هى لب العمل الفنى ؟

بشكل اخر : هل الصورة مجرد تجســيد للعمــل الفنى لابراز مضـمونه أم هى المضمون نفسه ، واننا اذا جردنا العمل الفنى من هذه الصورة لم يبق منه ولو حتى هيكل واهن يشير الى الفن ؟

وطرح هذه المشكلة بهذا المنظور انما يكشف عن بعد آخر فى القضية ، بعد حضارى ، اذ كيف استطاع صبرى موسى (الا) يدخل تحت مظلة نجيب محفوظ الذى دمغ جيل صبرى موسى فى غالبيته بطابعه الاجتماعى فى الابداع ؟

كيف شذ صبرى موسى عن جيله المتأثر فى القصة القصيرة بفن أنطون تشيكوف الذى يجد وجهه المصرى عند يوسف ادريس ؟

فلنتأمل هذه الصورة الواردة فى الرواية : « فيتداعى الى ذهنه مشهد قـــديم لزوجة هذا الباشا المسماة اقبال هانم والتى تصغره بواحد وعشرين عاما ٠٠ شبه عارية على رمال مرسى علم الساحلية ، ممددة بجسدها اللدن المعطاء أمام ماريو الجالس بجوارها شبه عار هو الآخر ٠٠ يجمع قواقع البشبش الدقيقة الحجم المتموجة الالوان ، ويرصها جامدة ساكنة على الجسد الانثوى العارى ، فتتلألأ فى وهج الشمس الغاربة كأنها فصوص من جواهر تزينه وتزيده فتنه ، فما تلبث الحيوانات اللزجة الدقيقة المختبئة فى تلك القواقع ان تطمئن للدفء المنبعث من حرارة اللحم ، فتخرج اقدامهـــا الهلامية وتزحف بقواقعها على جسم المرأة ، بنشاط وسرعة هنا وهناك ، حول الرقبة ، والثديين ، وفوق البطن ، وداخل السرة ، كأنما قد دبت الحياة فى القواقع فجأة ، بينما تتلوى اقبال هانم مدغدغة مثارة ، تصرخ وتضحك ويختلط ضحكها بصراخها فيخرج من فمها الشهوانى على ذلك الشاطىء البكر مزيج من الرعب المصطنع واللذة ٠ » !

هل هذه مجرد صورة منتزعة من الواقع فحسب ؟
أم هى القدرة على التشكيل الفنى بحيث أصبح الواقع اسطورة والاسطورة واقعا ؟

لسنا هنا أمام الممكن المستحيل النادر الحدوث كما يظن بالفن عادة ، بل نحن أمام المستحيل الممكن وأمام فن فحسب ، بل نحن أمام اسطورة فنية أو فن أسطورى ٠
فهل مثل هذا التشكيل يصلح له البعد الاجتماعى ؟

ولقد أدرك المؤلف تنافر التجسيد الفنى الاسطورى مع البعد الاجتماعى المباشر فلم يأخذ منه سوى قشرة رقيقة ‥ ولقد تمازج طريقه الفنى مع البعد النفسى أساسا ليكون كل هذا لا فى أمكنة واقعية تماما ، بل فى أمكنة تكتسى هى الاخرى بذلك الطابع الاسطورى الذى يشكل جوهر فنه وأسلوبه الادبى ٠

وأين يمكن العثور بمثل هذا المكان الاسطورى الا فى جبل حيث عمليات التعدين وحيث البشر متحدون مع الطبيعة ومغتربون عنها فى وقت واحد ، وليبرز هذا أيضا بشكل أكثر عمقا مع بطل أسطورى هو الآخر ، ولا يمكن أن يتهيأ هذا الا بانسان مقتلع من جذوره غير نابت نبتا طبيعيا فى أرض المكان وانما هو مقيم اقامة مصطنعة ‥ انه المقيم العابر والعابر المقيم ، مغترب فى عواطفه وفى مصيره ٠

وهكذا حتم التجاء المؤلف الى هذا الاسلوب فى عرض الصورة الى أن تكون هى نفسها محتوى العمل الفنى بحيث جاء هو الآخر تشكيلا اسطوريا ٠

وارتسمت الصورة البانورامية للرواية : جبل الدرهيب بدهاليزه وصخوره وتاريخه العريق وكنوزه ومعادنه قرب الحدود المصرية السودانية فى الصحراء الشرقية ‥ ليس مجرد جبل مادى ، بل هو أيضا أسطورة ‥ فقد كان الدرهيب « هلالا عظيم الحجم . لابد أنه قد هوى من مكانه بالسماء فى زمن ما ، وجثم على الارض منهارا متحجرا يحتضن بذراعيه الضخمتين الهلاليتين شبه واد غير ذى زرع ، اشجاره نتوءات صخرية وتجاويف ، احدثتها الرياح وعوامل التعرية خلال آلاف السنين» (ص ٧) وهذا الجبل يحمل فى باطنه فى آن واحدة : المادة والاسطورة تجسيدا للحضارة والجشع معا ، وهو مقبرة لزعيم المتصوفين أبو الحسن الشاذلى : مقبرة موت وخلود معا ٠

وهكذا تقع فى هذا الجبل الاحداث الاسطورة ٠

فالمؤلف يعى محتواه وتشكيله معا ‥ ولهذا تنتهى الرواية بنيكولا غارقا فى الحمر وسط الامكنة الفاسدة « يقبع مستندا بظهره الى صخور الدرهيب التى بدأت فى التشلج . حتى يظهر فى شرق السماء كوكب المريخ باحمراره القرنفلى الخفيف مطلا فوق جزيرة العرب ، ويبدأ المشترى يتأرجح بعيدا فوق الصحراء الكبرى ‥ فيسبح عقل نيكولا فى الملكوت » ٠

وهكذا يستعيد صبرى موسى للعمل الفنى أصالته بأن يكون متميزا يستحضر شخصية مؤلفه وهى مفردة غير متكررة ‥ ويستعيد للعمل بعض عنامنه التى افتقدها طوال جيل كامل من التمصص المصرى الغارق فى شدة الوضوح ‥ ويستعيد لنا أن العمل الفنى هو أولا وقبل كل شىء عمل فنى قبل أن يكون رؤية اجتماعية ، وأن

العمل الفنى هو الكلى من خلال الجزئى ٠٠ انه البحث عن خطيئة نيكولا المغترب المتوحد ٠٠ انه المتناهى من خلال اللامتناهى ٠٠ انه الخطيئة والتكفير معا ٠٠ انه العجز ازاء اسرار الحياة ٠٠ انه الانسان الضائع وسط لاتناهى الطبيعة التى هى مقبرته ومفخرته معا ٠٠ التى هى عامل انتصاره وانهزامه فى وقت واحد ٠

وهكذا يصبرى موسى ينشأ وضع : ليس المهم فقط أن تكون فنانا بل المهم أيضا ان تعى أبعاد هذا الفن ، أى أن ترسم له تخطيطا وأن تكون على دراية بتشكيله وصياغته وتجسيده وأبرازه ٠٠ و « فساد الامكنة » ليست فحسب عملا روائيا رائعا ذا ملامح خاصة ستنحفر فى مجرى التاريخ الادبى لمصر الحديثة ، بل الرواية عمل فنى يثير قضايا جمالية وربما تكون بذرة دراسات نقدية وفنية جديدة ، وتتيح للنقد وعلم الجمال فرصة طرح قضايا متنوعة ٠٠ ان « فساد الأمكنة » تؤكد المقولة الهامة ٠ ان العمل الفنى العظيم هو ملهم الدراسات الفنية والجمالية العظيمة ٠٠ وستظل خصائصها الفنية الجمالية أخصب من أية دراسة نقدية عنها ، بل هى بكل أبعادها السيكولوجية والميتافيزيقية ستكون منعطفا جديدا فى فن الرواية المعاصرة ٠



● مجلة المعرفة « سوريا » ـ مارس ١٩٧٥

صدر للمؤلف :

- القميص — قصص قصيرة
- حادث النصف متر — رواية
- فى الصـــحراء — تسجيل رحلة
- حـكايات صبرى موسى — حـــكايات دنيوية

مزدحمة بالحوادث ، والمفاجآت ، حكاية للضحك ، وحكاية للبكاء ٠

- فى البحيرات — تسجيل رحـلة
- وجهـــا لظهر — قصص قصيرة
- مشروع قتل جارة — قصص قصيرة
- فســـاد الأمكنة — رواية

تحت الطبع :

- ملاحظات زائر مبتدىء — تسجيل رحـلة
- السيد من حقل السبانخ — رواية
- آدم ذو الألف وجــه — صور للرجال عن قرب